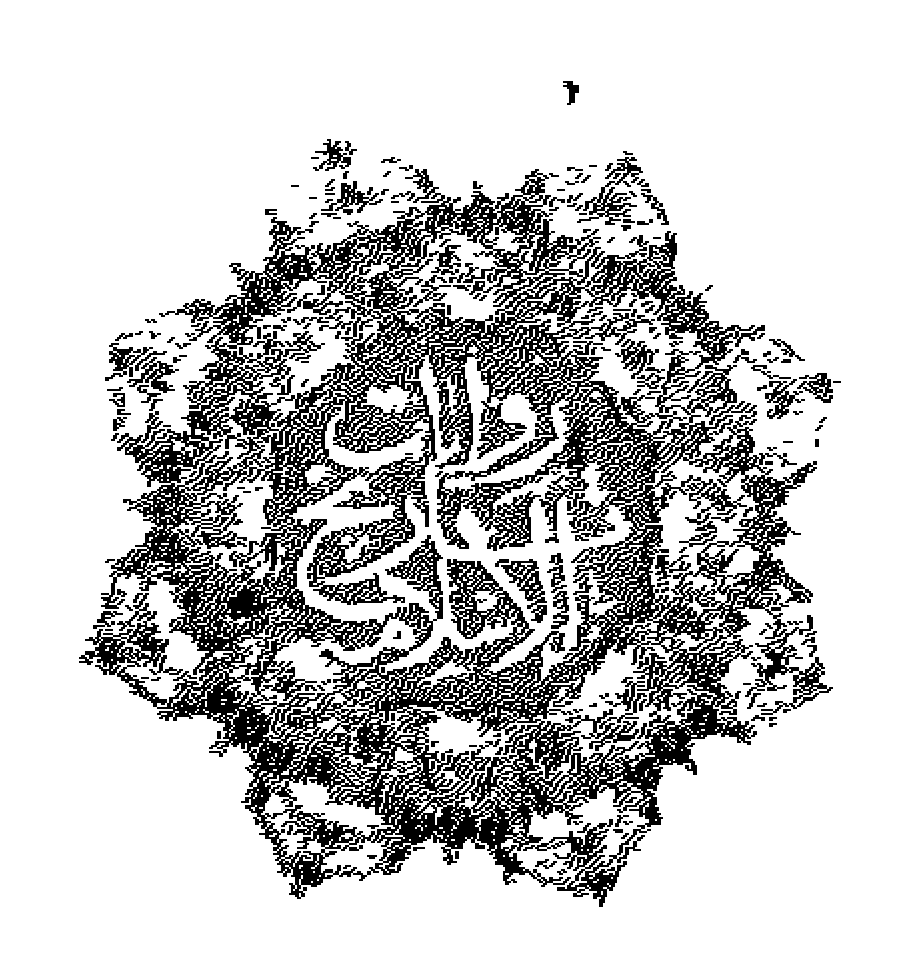


فتاة القيروان

جرجي زيدان

a retourner

فتاة القيروان

تضمن ظهور دولة العبيديين او الفاطميين في افريقية ومناقب
ـز لدين الله وقائده جوهر ، الى اخراج مصر من الدولة
خشيدية سنة ٣٥٨ هـ ، مع وصف الاخشيديين وجندهم

جرجي زيدان

المكتبة الادبية - بيروت

أبطال الرواية

☆ **المعز لدين الله**	: الخليفة الفاطمى
☆ **جوهر الصقلى**	: قائد المعز
☆ **الأمير حمدون**	: حاكم سجلماسة
☆ **لمياء (فتاة القيروان)**	: ابنة حمدون
☆ **أم الامراء**	: زوجة المعز
☆ **الحسين**	: ابن القائد جوهر
☆ **سالم**	: خطيب لمياء
☆ **أبو حامد**	: داعية ضد المعز
☆ **كافور الاخشيدى**	: ملك مصر
☆ **زينب بنت الأخشيد**	: بنت ملك مصر السابق
☆ **جعفر بن الفرات**	: وزير كافور
☆ **مسلم بن عبيد الله**	: شريف شيعى بمصر
☆ **يعقوب بن كلس**	: يهودى من رجال الدولة

مراجع هذه الرواية

هذه هى المراجع التى اعتمد عليها المؤلف فى تأليف الرواية ووقائعها التاريخية

☆ معجم ياقوت　　☆ تاريخ اليعقوبى

☆ تاريخ ابن خلدون　　☆ تاريخ المقريزى

☆ تاريخ المقدسى　　☆ تاريخ ابن خلكان

فذلكة تاريخية

قاسى الشيعة فى عهد حكم بنى أمية فى الشام عذابا شديدا ، وصلب وسجن كثيرون منهم . وكذلك كان شأنهم فى عهد العباسيين ، ولا سيما فى أيام المنصور والرشيد والمتوكل ، فحملهم ذلك على الفرار الى أطراف المملكة الاسلامية شرقا وغربا ، وكان فيمن فروا منهم على عهد الرشيد : ادريس بن عبد الله بن الحسن المثنى ، أخو محمد بن عبد الله الذى بايعه المنصور ثم نكث بيعته . فأتى ادريس مصر وهى يومئذ فى حوزة العباسيين ، واقام بها متخفيا حيث وافاه بعض الشيعة سرا ، وكان من بينهم صاحب البريد فحمله الى المغرب حيث رحب به الشيعة هناك وبايعوه ، فأنشأ دولة فى مراكش عرفت بالدولة الادريسية ، وظلت من سنة ١٧٢ حتى سنة ٣٧٥ هـ . ولكن أمراءها لم ينادوا بأنفسهم خلفاء

اما الفضل فى تغلب الشيعة وارتفاع شأنهم فيرجع للدولة الفاطمية نسبة الى فاطمة بنت النبى التى ينتسب اليها القائمون بأمر تلك الدولة ، وتعرف ايضا باسم الدولة العبيدية نسبة الى مؤسسها عبيد الله المهدى

وكان الشيعة قد بدأ ظهور أمرهم فى المشرق على يد بنى بويه فى أواسط القرن الرابع للهجرة . ولما تغلب البويهيون على بغداد ، كانت الدولة الفاطمية قد اشتد ساعدها فى المغرب وهمت بفتح مصر . وكان آل بويه يغالون فى التشيع ويعتقدون ان العباسيين اغتصبوا الخلافة من مستحقيها فأشار بعضهم على معز الدولة البويهى ان ينقل الخلافة الى العبيديين أو الى غيرهم من العلويين ، فعارض ذلك خاصته وقالوا له : « ليس هذا برأى فانك اليوم مع خليفة تعتقد انت واصحابك انه ليس من أهل الخلافة ، ولو أمرتهم بقتله لقتلوه مستحلين دمه ، أما ان اقمت أحد العلويين خليفة تعتقد انت واصحابك صحة خلافته فانه لو أمرهم بقتلك لقتلوك ! » . فرجع معز الدولة عن عزمه

على ان ظهور الشيعة فى الشرق هون على الدولة العبيدية فتح مصر والانتقال اليها ، وكانت المهدية بافريقية عاصمتهم الاولى

وخلفاؤها ينتسبون الى الحسين بن على ، وللمؤرخين فى انتسابهم اليه اقوال متناقضة ، ويغلب فى اعتقادنا صحة انتسابهم اليه ، وان انكر ذلك المتعصبون للعباسيين ، تصغيرا لشأن الشيعة العلوية

وكان المصريون يحبون عليا من صدر الاسلام ، وكانوا من حزبه يوم مقتل عثمان ، ولكنهم لم يكن لهم شان بعد ذلك فى الانتصار للعلويين ، لأن هؤلاء لجأوا اولا الى أهل العراق وفارس . فلما قامت الدولة العباسية وتأثرهم المنصور بالقتل والحبس ، وقتل محمد بن عبد الله الحسنى وبعض أهله من بنى حسن ، فر من وجهه جميع من بقوا من العلويين ، ومنهم على بن محمد بن عبد الله ، فجاء الى مصر وقام بدعوته بعض رجال الشيعة لكنه ما لبث ان حمل الى المنصور واختفى

وكان حال الشيعة العلوية بمصر يتقلب بين الشدة والرخاء بتقلب احوال الخلفاء فى بغداد ، فان تولى خليفة يكره العلويين ضيق على الشيعة واضطهدهم . فلما تولى المتوكل واضطهد الشيعة العلوية كتب الى عامله بمصر باخراج آل ابى طالب الى العراق ، فاخرجهم سنة ٢٣٦ هـ . ولما قدموا العراق ارسلوهم الى المدينة ، واستتر من بقوا فى مصر على راى العلوية ، لأن عمال المتوكل كانوا يبالغون فى اظهار الكره للشيعة تزلفا الى الخليفة . ويروى ان رجلا من الجند فى مصر اقترف ذنبا ، فأمر يزيد بن عبد الله ، عامل المتوكل على مصر يومئذ ، بجلده ، فتوسل اليه الجندى بحق الحسن والحسين لكى يعفو عنه ، فزاده ثلاثين جلدة ! . ثم رفع صاحب البريد ذلك الخبر الى المتوكل ، فورد كتابه الى العامل بأن يضرب ذلك الجندى مائة جلدة اخرى ! . وتتبع يزيد هذا آثار العلويين ، فعلم برجل منهم له دعاة وانصار فقبض عليه وارسله الى العراق مع أهله وضرب الذين بايعوه

ولما تولى المنتصر بن المتوكل سنة ٢٤٧ هـ . كتب الى عامله بمصر بالا يقتنى علوى ضيعة ، والا يركب فرسا ، او يسافر من الفسطاط الى طرف من اطراف مصر . وأن يمنع العلويون من اتخاذ العبيد الا العبد الواحد . وإذا كان بينهم وبين أحد الناس خصومة قبل قول خصمهم فيهم بغير أن يطالب ببينة . فقاسى العلويون عذابا شديدا بسبب ذلك

ولما استقل احمد بن طولون بامارة مصر سنة ٢٥٤ هـ . اضطهد الشيعة لأنه تركى ولأنه على رأى الخليفة العباسى فاقتص آثار العلويين وحاربهم مرارا . حتى اذا ضعف أمر بنى طولون بمصر واختلت أحوال الدولة العباسية فى بغداد وتغلب آل بويه عليها فى القرن الرابع

للهجرة أخذ حزب الشيعة ينتعش ويتقوى فلما جاءهم جند المعز لدين الله الفاطمي سنة ٣٥٨ هـ بقيادة جوهر الصقلي كانت الأذهان متأهبة لقبول تلك الدعوة ففتح جوهر مصر بأيسر سبيل

اما القيروان فكانت من المدن الاسلامية التى اختطها العرب بعد الفتح مثل البصرة والكوفة والفسطاط . اختطها عقبة بن نافع الفهرى سنة ٦٠ للهجرة على مقربة من تونس وهو الذى فتح أكثر المغرب . وفى أواسط القرن الرابع للهجرة صارت القيروان قصبة بلاد المغرب، وتقاطر الناس من انحاء العالم لتعميرها ، فقطنها العرب من قريش وسائر البطون فى مصر وربيعة وقحطان ، واصناف من العجم من أهل خراسان ، وأصناف من البربر والروم وغيرهم وكان أهلها يشربون من ماء المطر الذى ينصب من الأودية الى برك عظام يقال لها المواجل . وكان بنو الاغلب لما نزلوها فى القرن الثالث قد ابتنوا على ميلين منها قصورا لهم ، ثم ابتنوا محلة على ثمانية اميال منها . سموها رقادة . حتى اذا نزلها الفاطميون فى اول القرن الرابع للهجرة ابتنوا لانفسهم حصنا مستديرا بالقرب منها سموه « صبرة » ويسمى أيضا « المنصورية » . وقد جعلوا ذلك الحصن مستقرا لهم ولأهليهم، كما فعل المنصور اذ بنى بغداد قبل ذلك بقرنين . فالمنصورية بلدة مستديرة الشكل قرب القيروان بناها اسماعيل ابن القاسم بن عبد الله المهدي سنة ٣٣٧ هـ واستوطنها وجعل قصره وسطها ، وأجرى الماء فيها ، وأنشأ بها أسواقا جيلة ومسجدا، وجعل لها سورا عرضه ١٢ ذراعا . وهى منفصلة عن القيروان بعرض الطريق . ومن ابوابها : باب الفتوح ، وباب زويلة ، وباب وادى القصارين . وكلها مصفحة بالحديد

وأول الخلفاء الفاطميين عبيد الله المهدى بن محمد الحبيب بن جعفر الصادق من نسل الحسين بن فاطمة الزهراء . قام له بالدعوة رجل شيعى اسمه ابو عبد الله الشيعى ، واعانته قبائل البربر ، وبخاصة كتامة وصنهاجة ، كما قام أبو مسلم الخراسانى فى المشرق بدعوة العباسيين بعون الخراسانيين . ولما استقر لعبيد الله المهدى الملك قتل أبا عبد الله الشيعى كما قتل المنصور أبا مسلم

وكان عبيد الله فى أول الدعوة يقيم بالمهدية على ساحل تونس ثم انتقل الى القيروان وتوفى سنة ٣٢٢ هـ ، فخلفه ابنه القاسم ولقب بالقائم بأمر الله وتوفى سنة ٣٣٤ هـ . فخلفه ابنه المنصور ابو طاهر وتوفى سنة ٣٤١ هـ فخلفه المعز لدين الله . وعلى عهده فتحت مصر على يد قائده جوهر الصقلى . وفى أيامهما جرت حوادث هذه الرواية

المعز لدين الله وقائده جوهر

خرج المعز فى ليلة مقمرة من ليالي سنة ٣٥٧ ﻫ الى حديقة قصره فى المنصورية قرب القيروان . وفى الحديقة بركة واسعة يصب فيها ماء جر اليها من نبع فى جبل قرب المنصورية ،وقدفرق هذا الماء على قصور المدينة ومسجدها واسواقها بوساطة انابيب من الرصاص ، وصرف ما يبقى منه الى القيروان . ولم يكن فى المنصورية الا الخليفة واهله وحاشيته وأعوانه لا يشاركهم فيها أحد. وقد احاطوها بسور ضخم عال منيع ، ابوابه مصفحة بالحديد ، ولا تفتح الا عند الحاجة ، فكانت المدينة لهذا أشبه بالحصون

وكان المعز مطمئن الخاطر لا يخاف غدرا وهو داخل ذلك الحصن المنيع ، حتى اذا توغل فى الحديقة ولا شيء فيها من زخارف المدينة ، أشرف على تلك البركة وليست هى مما يستوقف النظر او يستلفت الانتباه ، لكن لها شأنا خاصا يطرب له المعز ولا يطرب له سواه الا قائده جوهر البطل الصقلي . وكان قد أسكنه فى مدينته واختصه بقصر من قصورها وبالغ فى اكرامه ورفع منزلته

ولما وصل البركة ، كان القمر قد تكبد السماء ، فسارع البستانى الى اعداد المقعد المخصص لجلوس الخليفة ، وكان قد نزل فى تلك الساعة واهل القصر نيام . وانما ارقه أمر شغل خاطره واخذ بمجامع قلبه ولكنه لم يكاشف به احدا من اعوانه ، لأنه كان حريصا على سره لا يطلع عليه أحدا الا اذا نضج وآن اخراجه الى حيز الفعل ، شأن رجال العمل وأهل الحزم. على انه فى تلك الليلة ضاق ذرعا بالاحتفاظ بذلك السر ، فخطر له أن يكاشف به قائده جوهر

وكان المعز عالى الهمة عظيم الهيبة واسع المطامع ، ادرك الاربعين من عمره ، وقد لبس فى تلك الليلة رداء أبيض بسيطا،والتف بالعباءة، وجعل على رأسه عمامة صغيرة . فلما استقر به الجلوس صفق ونادى : «خفيف» فاقبل غلام صقلبى كان المعز قد اختصه بخدمته، فقال له : « ادع قائدنا جوهر »

فمضى خفيف ، وما عتم أن عاد ومعه جوهر ، وهو كهل فى السادسة والخمسين من عمره ، وخط الشيب فوديه ، طويل القامة

مهيب الطلعة ، ثابت الجاش . وكان لما جاءه رسول المعز قد ذهب الى فراشه فنهض وارتدي ثيابه وخف الى ملاقاة مولاه . فلما شعر المعز بقدومه تحفز للنهوض ورحب به وبش له ، فخجل جوهر من ذلك الاكرام فأكب على يد الخليفة فقبلها وقبل ركبتيه ، وأوشك أن يقبل قدميه . فأنهضه المعز ودعاه للجلوس بجانبه ، فجلس متأدبا فبادره المعز قائلا : « مرحبا بقائدنا الحازم وحبيبنا الباسل »

فتأدب جوهر وقال : « انى عبد مولانا أمير المؤمنين اضرب بسيفه وافديه بروحى »

قال : « بل انت سيفنا المسلول وحامى دولتنا ، وانى لا اجلس الى هذه البركة وارى السمك يسبح فيها الا ذكرت بلاءك فى سبيل الحق . ان هذا السمك يشهد بما لك من الفضل على هذه الدولة . أليست هذه الاسماك من نسل ما حملته الينا فى القلل من سمك البحر المحيط ، يوم فتحت افريقيا واخضعت قبائلها . لا انسى يوم جئتنا بتلك القلل وفيها السمك من ذلك البحر العظيم اشارة الى ما أدركته من الفتوح العظيمة التى لم يسبق اليها سواك ، فلا غرو اذا اختصصتك بصداقتى وآثرتك على سائر بطانتى وأهلى »

فخجل جوهر من هذا الاطراء وقال : « العفو يا مولاى ، انى لم افعل شيئا الا باسمك . والله انما نصرنى بك لأنك سلالة أحق الناس بالخلافة ، اعنى ابن عم الرسول (صلعم) وصهره . فانت ابن فاطمة الزهراء ، وحسبك هذا نسبا لا يعلى عليه »

فأسكته المعز قائلا : « ان الحق لا يعلو دائما ، فكم ظل اجدادى العلويون يجاهدون ويذوقون أنواع العذاب ممن استأثروا بالسيادة دونهم . ولو اتيح لهم سيف مثل سيفك لغلبوا . فانك فتحت هذه البلاد من هنا الى البحر المحيط واخضعت أهلها ، بارك الله فيك . فاذا رفعنا منزلتك فما أعطيناك الا حقك » . وسكت وقد بدا الاهتمام فى وجهه ، وجوهر ينتظر ما يبدو منه لاعتقاده انه لم يدعه فى تلك الساعة الا لأمر ذى بال . فاعتدل فى مجلسه وتوجه اليه كأنه يستفهم عما يريده

اما المعز فمد يده واخرج من تحت العباءة قضيبا من عود طوله شبر ونصف شبر ، مكسوا بالذهب . فلما رآه جوهر علم أنه قضيب الملك فتأدب احتراما له فابتدره المعز قائلا : « أليس هذا قضيب الملك يا جوهر ؟ »

قال : « نعم يا مولاى انه قضيب الحق وصاحبه صاحب الخلافة الحقة »

قال : « هل يكون فى الدنيا خليفتان على حق ؟ »

فأدرك جوهر انه يشير الى خلافة العباسيين فى بغداد ، والى انها على غير الحق ، ولحظ ما وراء ذلك من الامور فقال : « كلا يا سيدى ، ان النبى واحد وخليفته واحد »

قال : « الى متى نترك هؤلاء القوم فى ظلمائهم ؟ »

فأجاب جوهر على الفور : «نتركهم حتى يأمر مولانا اميرالمؤمنين»

فاكبر المعز هذا الجواب الدال على حزم جوهر وتفانيه فى سبيل نصرة العلويين ، فابتسم واشرق وجهه ، وكان القمر مواجها لهبحيث يظهر ذلك لجوهر ، ثم قال : « بارك الله فيك،هذا ما كنت أرجوهمنك، وقد جال هذا الفكر بخاطرى منذ اعوام ، فكنت اتردد واستطلع المنجمين ولا ابوح به لأحد ، حتى اذا كانت الليلة رايت ان اسره اليك وكنت احسبه جديدا عليك فاذا انت أكثر تفكيرا فيه منى . اما وقد اطلعت على سرى وانت الوحيد الذى اطلع عليه منى ، فارجو ان تشير على »

قال : « ليس للعبد ان يشير ، وانما عليه ان يطيع . ولو امرنى مولاى ان اركب الاسنة واذهب فى الأرض فاتحا لفعلت . لعلمى انى ذاهب فى نصرة الحق »

قال : «لله درك من قائد باسل وصديق حميم.ولكن الامور مرهونة بأوقاتها . فالآن اكتم ما دار بيننا واخبرنى عن رأيك فى قوادنا »

قال : « انهم نعم الرجال يتفانون فى نصرة مولانا ولا سيما شيوخ كتامة فانهم قاموا بنصرة امير المؤمنين خير قيام وعليهم المعول فى امرنا »

□

سكت المعز برهة ، وقد عاد الى الاهتمام واخذ يلاعب قضيب الملك بين اصابعه وهو يتأمله ، ثم قال : «ولكننى اخاف عليهم الجنوح الى الترف ، فيأخذهم ما اخذ أعداءنا فى بغداد من أسباب المدنية حتى صاروا الى ما صاروا اليه من الذل ، فغلبهم مواليهم الاتراك والديلم ولم يتركوا لهم من الخلافة الا اسمها . ولا أخفى عليك انى لم اطمع فيهم الا لما بلغنى من ترفهم واسترسالهم فى الملذات ، فاذا أصاب رجالنا ما اصابهم صرنا الى مصيرهم »

قال:«ليس هذا ما أخافه يا سيدى فان قومنا بعيدون عنالترف. وكيف نخاف عليهم ذلك وهم يرون امير المؤمنين ابن بنت الرسول يتولى الدولة بنفسه ، ويجلس فى برد الشتاء على اللبود ، لا يرتدى



وقال المعز لجوهر : « لله درك من قائد باسل وصديق حميم »

غير جبة،وحوله ابواب مفتحة تفضي الى خزائن كتبه،وبين يديه دواة واوراق ، لا يأكل الا ما يأكل رعاياه ، ولا يتقلب فى الديباج والحرير والمسك والخمر كما يفعل ارباب الدنيا .ولا يكاد يفرغ من الاطلاع على الكتب التى ترد اليه من المشرق والمغرب ، ومن الرد عليها بخطه ، لا يلهيه شيء من ملاذ الدنيا ، ولا يعمل الا ما يصون ارواحهم ويعمر بلادهم ويذل أعداءهم ؟ »

فأعجب المعز بما سمعه منه فقال : «ان هذا لا يكفي يا ابا الحسين. واني لأخاف على رجالى استكثارهم من النساء . ولا أرى لكل منهم ان يقتنى غير امرأة واحدة ، لئلا يتنغص عيشهم وتعود المضرة عليهم وتنهك ابدانهم وتذهب قوتهم . وكثيرا ما اوصيتهم بذلك ليقرب الله منا امر المشرق كما قرب أمر المغرب »

قال : « ان سهر مولاى على دولته بمثل ما تقدم كفيل بالنجاة من الوقوع فيما تخافه ، ولكننى اخاف .. » . وسكت وهو يتشاغل باصلاح عمامته

فلحظ المعز فى وجهه شيئا يكتمه فقال : « وما الذى تخافه يا جوهر ؟. قل »

قال : « أخاف الدسائس »

قال : « الدسائس ؟. ممن تخشى أن تكون ؟ »

قال : « أخاف قوما لا نعرفهم ولا نعرف نياتهم »

قال : « من تعنى ؟. كيف نخافهم ونحن لا نعرفهم ؟ »

قال : « لو عرفتهم لبددت شملهم ، فانى اتوسم خطرا من جماعة يزعمون أنهم موتورون ، ولا أعرف من هم ولكننى اتنسم رائحة ذلك من بعض الأحاديث »

قال : « صرح يا جوهر ، انك فى مأمن »

قال : « ألا تعلم يا سيدى ما أصاب أبا عبد الله الشيعى الذى قام بالدعوة فى أول أمرها ومهد الدولة لجدك المهدى رحمه الله ؟ »

فلما سمع اسم أبى عبد الله تغير لون وجهه ، ولكنه اظهر الاستخفاف وقال : « أظنك تريد أن تقول ان الرجل قتل ظلما ؟ »

قال : « لا أعنى ذلك ، ولكن بين أصحابه الذين اعانوه فى نصرة الدعوة من يظنون أنه ظلم ، لأنه جمع القبائل لنصرتها ، ولما استتب الأمر لمولانا جدكم قتله وقتل اخاه أبا العباس . اما انا فأعتقد انه نال جزاءه بعد أن فسدت نيته وطمع فى الأمر لنفسه فلا بد أن يكون لأصحابه مطمع فى افساد أمرنا ، وان كنت لا أخاف فوزهم . ولو سألتنى عن واحد منهم لاعترفت بأنى لا أعرف احدا ، وانما

هو سوء الظن لا بد منه فى مثل هذه الحال »

فاعتدل المعز فى مجلسه وقال : « صدقت ، ولـكن لا خوف منهم . غير انى أسمع أن ذلك المقتول كان عنده مال خبأه فى مكان لا أعرفه ، وقد عجل جدى قتله قبـل معرفة مستودعه . سمعت أنه مال كثير . ولا يخفى عليك شدة الحاجة الى المال فى هذه الاحوال »

قال : « نعم يا سيدى سمعت بخبر المال المخبأ لـكننى لا أعرف مكانه ولو عرفته لاخرجته ، ولا يبعد أن يكون قد تبعثر وسأوالى البحث عنه »

قال : « ان لدينا الآن صناديق من المـال قد شذ عنى ترتيبها لـكثرتها ، وقد ادخرتها للقيام بالعمل لعلمى أن أعداءنا قد أصابهم الفقر حتى تغيرت قلوب الناس عليهم »

قال جوهر : « صدق مولاى ، ولـكنى ارى مع ذلك ان نحتاط ونسيء الظن حتى برجالنا وأمراء القبائل البربرية ، ولا سيما الذين كانوا حكاما وانصرفوا الى الدسائس . أخص منهم حمدون صاحب سجلماسة فان هذا الرجل حاربناه وهو صاحب دولة ، فأخضعناه فاستسلم مكرها على ما اظن ، فاذا رأى مولاى ان نقيده برهن كان ذلك اقرب الى الصواب »

قال : « وما هو الرهن ؟ »

قال : « لهذا الأمير ابنة اسمها لميـاء يحبها كثيرا ، وقد شاهدت منها فى اثناء حربنا معه بسالة وانفة لم أعهدها فى فتاة قبلها ، فقد كانت تحارب حرب القواد على جواد من خير الجياد . ولم نستطع اخذها الا بعد جهـد كثير . وقـد أراد الفارس الذى أسرها أن يتخذها سبية فمنعته وأنقذتها من السبى وأكرمتها . ولا ريب أن اباها يضن بها لحبه لها ، فاذا اتخذناها رهنا على بقائه فى طاعتنا فلن يقدم على الخيانة »

قال : « حسنا ، وأين هى الآن ؟ »

قال : « فى فسطاط أبيها المضروب فى هذا السهل خارج القيروان »

قال : « ولـكنى أخاف أن ننبهه الى الحقد اذا طلبناها منه الآن »

قال : « لا خوف من ذلك فانى أطلبها منه لتكون مكرمة معززة فى قصر أمير المؤمنين فى خدمة أم الأمراء (زوجة المعز) . وهذا شرف لا يتأتى لأحد سواه . وانا على يقين بأن مولاتنا أم الأمرا[illegible] ترتاح لرؤيتها . فان فى وجهها مهابة وجمالا مع تعقل وبسا[illegible] ، وقـد تحققت مع ذلك أنها من أشد الناس غيرة على دعوة الحق فانها تجل الامام عليا وتنصر شيعته مما لم أره فى سواها من جماعة البربر .

فاذا وافق مولاى فانى ارى ان نصاهر الرجل فنكتسب حزبه »
قال : « وكيف ذلك ؟ »

قال : « سأقول ان الغرض من نقل ابنته الى قصر أم الأمراء انى اريد ان اتخذها زوجة لابنى الحسين . فنكسب الفتاة ونكسب قلب أبيها »

قال : « حسنا . افعل بارك الله فيك ، ولا حرمنا من سعيك الحميد » . وتزحزح الخليفة فنهض جوهر واستأذن فى الانصراف

ثم خرج جوهر من حضرة المعز وقضى بقية ليلته مفكرا فيما سمعه ، وكان شديد الاهتمام بأمور الدولة كثير الغيرة على الدعوة العبيدية . ولم يكن واهما فيما لمح به للمعز عن الدساسين شيعة أبى عبد الله ، بل كان هذا هو الواقع ولكن تلك الاحزاب لم تكن تستطيع الظهور لتغلب القوة فكانت تتربص للوثوب على الدولة . وكان صاحب سجلماسة اخوف من يخافهم جوهر ، لأن الرجل كان صاحب سطوة وله حزب كبير ، كما انه مجازف لا يقدر العواقب . فرأى جوهر من حسن السياسة أن يقيده بالرهن على تلك الصورة ، ثم يقربه بالزواج فيخطب ابنته لابنه فيكتسب ثقته ومساعدته او يتخلص من شره

□

لم يكن صاحب سجلماسة يشعر بشىء مما فى خاطر جوهر ، بل كان يحسبه فى غفلة عن حركاته وخطواته

وفى صباح اليوم التالى أرسل جوهر غلامه الى حمدون يدعوه اليه فى قصره بالمنصورية ، فبادر الرجل بتلبية الدعوة . وكان حمدون هذا كهلا طويل القامة دقيقها ، أسود العينين غائرهما ، لا تستقر حدقتاهما على حال . ولم يكن عنده من الولد غير لمياء . وقد ماتت امها فتزوج اخرى وعهد فى تربية ابنته الى رجل من خاصته كان شديد التشيع لأهل البيت . فشبت على ذلك . وأما حمدون فلم يكن تشيعه الا جريا مع تيار القوة . ولو ترك لنفسه لاختار ان يدعو الناس الى الالتفاف حوله هو نفسه ، فقد كانت مطامعه لا تقف عند حد . وكان قد هم بأن يدعى المهدوية وهو فى سجلماسة ، لكنه غلب على امره وحمل أسيرا الى القيروان فأظهر الطاعة على غل وشعر جوهر بشىء من ذلك

ولم يكن حمدون مع سعة مطامعه من أهل الدهاء ، لكنه كان اذا خطر له أمر بادر الى تنفيذه ، لايبالى ما فى سبيله من الخطر

وكان عرش سجلماسة قد اتصل اليه بالارث من اجداده واتصل بخدمته شيخ اسمه ابو حامد زعم أنه من اهل الكرامة نزل عليه منذ اعوام ومعه شاب جيل الصورة اسمه سالم ذكر أنه ابن أخيه وهو فارس شجاع . ونزل كلاهما فى داره وهو فى ابان امارته . وكان سالم يرى لمياء وهى تذهب وتجىء أو تركب الجواد ، والبربر اقل المسلمين حجبا لنسائهم ، فوقعت من قلبه موقعا جميلا ، وتعارفا وتحابا . فتقدم ابو حامد الى حمدون فى خطبة لمياء الى ابن اخيه سالم ، فقبل . ثم اتى جوهر القائد بجيشه وفتح سجلماسة واسر اميرها واهله وفى جملتهم لمياء وابو حامد ولم يقفوا لسالم على خبر فظنوه قتل فى المعركة فبكته لمياء

اما حمدون فكان يعتقد أن سالما قتل ، وخيل اليه أنه شاهد شبحا مثله ملقى على الأرض أثناء القتال . ولم تمض على قيامهم من القيروان أيام قليلة حتى خطر لجوهر ما خطر له فبعث يستقدمه اليه فى ذلك الصباح الى قصره ، فلما جاءه بالغ فى اكرامه وتقديمه، وحمدون لا يعلم سبب هذا الاكرام . ثم قال جوهر : « أتعلم لماذا دعوتك أيها الأمير ؟ »

قال : « لا يا سيدى ؟ »

قال : « أنت تعلم أننا كنا بالأمس أعداء يستحل احدنا دم الآخر ، فصرنا الآن اخوانا نتعاون على نصرة الحق وخدمة امير المؤمنين ، وقد احببت أن تزيد تلك الروابط متانة فأرجو ان توافقنى »

فلم يفهم حمدون قصده لكنه بادر الى الثناء على هذه الرغبة فقال : « ان ذلك غاية مناى وشرف عظيم لى »

قال : « لا شرف ولا تشريف . أتعرف ولدنا الحسين ؟ »

قال : « نعم اعرفه حفظه الله »

قال : « وأنا أعرف ابنتك لمياء ، وقد شهدت منها أثناء حربنا ما حبب الى أن تكون زوجة لابنى الحسين ، وانت تعلم مقدار حبى له ، فبهذا المقدار سيكون حبى لها »

فلما سمع حمدون قوله أطرق هنيهة يفكر ، ثم ابرقت أسرته ، لا غبطة بالشرف الذى سيناله من مصاهرة أكبر قواد المعز الفاطمى ، ولكنه توسم فى ذلك عونا له على أمر قام فى نفسه فقال : « ان مثلى يا مولاى لا يطمع فى أكثر من هذا »

فأثنى جوهر على قبوله وقال له : « وانى رفعا لقدرها احب أن يكون العقد عليها فى منزل أم الأمراء زوج أمير المؤمنين فتقوم مقام أمها . هل ترى بأسا فى ذلك ؟ »

فنهض شاكرا وقال : « أى بأس من ذلك يا سيدى ؟ انه شرف عظيم ! »

قال : « سأرسل غلامى اليك بعد ساعة فترسل معه لمياء الى دار أمير المؤمنين »

قال : « سمعا وطاعة » . وخرج وقد أدهشه توفيقه الى فرصة طالما تمناها ، وسار توا الى صديقهابى حامد فقص عليه ما دار بينه وبين جوهر واظهر أنه يستشيره فصاح فيه هذا قائلا : « أيعرض عليك أن تكون لك يد وعينان فى قصر المعز وقائده وتتردد ؟ اقبل .. » . قال ذلك وهو يحك ذقنه ليخفى ما خامره من الفرح بتلك البشرى وله فى ذلك غرض يشبه غرض حمدون

فقال حمدون : « لم أتردد فى القبول لحظة . ولكننى توقفت بادىء الأمر لأن ولدنا سالما أولى بها و ... »

فقطع أبو حامد كلامه قائلا : « دع سالما الآن انه بعيد ولا ندرى متى يعود »

فاطمأن حمدون اذ ظهر له أن سالما ما زال حيا وكان يظنه قتل فقال : « وأين سالم الآن ؟ »

قال : « ليس بالقرب من هنا وسأخبرك بمكانه . أما الآن فلا ترفض ما عرضه عليه القائد الفاتح »

فذهب حمدون وقص الخبر علي ابنته وحسن لها الذهاب ، فامتنعت فى بادىء الرأى لأنها عالقة القلب بسالم ، فأكد لها أن سالما قتل أو هرب ولا أمل فى رجوعه . ونظرا لما يعلمه من تعلقها بأهل البيت ضرب لها على وتر الدين فقال : « انك تكونين هناك قرب أمير المؤمنين ابن بنت الرسول »

فرضيت وذهبت مع الرسول الى قصر المعز



لمياء فتاة القيروان

بات المعز تلك الليلة وقد خف بلباله بعد ما دار بينه وبين قائده من الحديث . وفى صباح اليوم التالى قام بفروض الصلاة ثم ذهب الى ديوانه ، وبينما هو جالس ينظر فى أعماله ويقرأ كتب العمال ويرد عليها بنفسه ، جاء غلامه خفيف الصقلبى واستأذنه فى كلمة فقال : « ما وراءك ؟ »

قال : « ان مولاى القائد بعث بفتاة قال انها لقصر مولانا ؟ »

فقال المعز : « أدخلها . . أين هى ؟ »

فدخلت الفتاة وهى تنظر الى ما فى القاعة من صناديق الكتب وليس فيها غير الخليفة وكاتبه . وكانت لمياء طويلة القامة اشبه فى مشيتها بالرجال منها بالنساء مع جمال وهيبة . سمراء اللون كبيرة العينين اذا نظرت فكأنها تأمر، مقوسة الحاجبين متناسبة اللامح ، غليظة الشفتين قليلا ، عريضة الوجنتين . وحول رأسها عصابة تدلت منها خيوط فى أطرافها كرات من الذهب وقطع اخرى من المصوغات . وقد أرسلت شعرها على كتفيها متجعدا ، وأحاط به رداء كالخمار عقد فى اعلى الصدر بعروة من الذهب . وحول عنقها عقود من الجزع ونحوه

فلما وقع نظر المعز عليها لم يتمالك من الاعجاب بها ولا سيما بعد ما سمعه من قائده ، فاستدناها وهش لها تلطفا وقال : « تقدمى يا فتاة ما اسمك ؟ »

قالت : « لمياء يا أمير المؤمنين »

قال : « لعلك ابنة نصيرنا صاحب سجلماسة ؟ »

قالت : « نعم يا مولاى »

قال : « وهل يسرك أن تكونى فى قصرنا ؟ »

قالت : « هذا شرف لا استحقه » . وابتسمت

قال : « بل انت أهل لأكثر من ذلك . أمتزوجة انت ؟ »

فلما سمعت سؤاله أطرقت وبان الخجل فى محياها من الدم الذى تصاعد الى وجنتيها ولم تجب

فعلم أنها عذراء فاكتفى وقال لها : « اذهبى مع غلامنا هـذا الى

أم الأمراء ، فانى اوصيتها بك خيرا وستحسن وفادتك . وارجو ان تكونى عند حسن ظنك بنا »

فرفعت بصرها نحوه وقالت : « اذا كنت تعنى صحة خلافة آل البيت فنعم »

فاعجب بصراحتها وقال : « انك لنعم الفتاة العلوية لولا ما اراه على راسك وصدرك من كثرة الحلى فاننا لا نرى الجنوح الى شيء من اسباب الترف »

وما اتم كلامه حتى مدت يدها الى راسها وصدرها ، ونزعت ما كان عليهما من الحلى والعقود ورمت بها الى الأرض ثم قالت : « لم اكن أعلم ذلك يا مولاى . وقد كان لى فيما شاهدته من بساطة ردائك عبرة وعظة . وهذه جواهرى رميتها تحت قدميك »

« بورك فيك ، انك ستنالين اضعاف ما نزعته من الجواهر ، فضلا عن سرور أم الأمراء بك » . واشار الى الصقلبى فمشى بها . وعاد المعز الى عمله

□

كانت أم الامراء زوجة المعز امراة عاقلة حكيمة ، ذات مبرات وحسنات ، ولها راى وحزم . وكثيرا ما كان المعز يستشيرها ، وقد ادلى اليها فى ذلك الصباح بحديث لمياء واوصاها بها خيرا

ولو كانت لمياء قد دخلت قبل ذلك بعض قصور الأمراء فى مصر او بغداد فى ذلك العهد ، لحسبت قصر أم الأمراء منزل الخدم . لأنه كان من البساطة بحيث يقرب من حال البداوة . فتلك كانت سياسة المعز خوفا من عواقب الترف ، لعلمه ان الترف والرخاء من اكبر العوامل فى سقوط الدول

وكانت ام الأمراء جالسة فى غرفتها على بساط من السجاد بلا وشى ولا تطريز ، وعليه مسائد من الديباج البسيط ، وقد ارتدت ملابس بسيطة واتشحت بمطرف ، وارسلت شعرها مضفورا على ابسط ما يكون . فسرت لمياء لنزع حليها قبل الدخول على تلك الأميرة . فتقدم خفيف الصقلبى أولا فأنبأ ام الأمراء بمجيء لمياء فامرت بدخولها ، وما وقع نظر لمياء على أم الامراء حتى استانست بها كأنها ربيت عندها ، فأشارت اليها ام الأمراء أن تقعد فقعدت متأدبة ، وانصرف خفيف فقالت ام الامراء : « أهلا بالضيفة العزيزة »

فقالت : « أشكرك يا سيدتى على تلطفك . انما انا جارية فى قصرك »

قالت : « بل انت ضيفة مكرمة فان قائدنا جوهر أثنى كثيرا على ادبك وتعقلك وقال انه لم يرض لك الرق فأطلق سراحك »

قالت وهى تنظر فى البساط مبالغة فى التأدب : « ان ذلك فضل كبير له لا انساه عمرى . اما فضل مولاتى زوج أمير المؤمنين فلا اقدر ان افيه حقه من الشكر »

فغيرت أم الأمراء الحديث وقالت : « لم افعل شيئا بعد ، ولعلى استطيع ذلك فى المستقبل فيكون لك قصر مثل هذا القصر تعيشين فيه آمرة ناهية . لانه ينبغى لمثلك أن يكون لها أحسن نصيب من كبار الرجال »

فأدركت لمياء انها تشير الى رغبتها فى تزويجها من أحد الأمراء ، فلم يعجبها ذلك لانها عالقة القلب بسالم ، فبدا ذلك فى وجهها وتساقطت من عينيها دمعتان تدحرجتا على خديها فمسحتهما بكمها وهى تبتسم اخفاء لما ظهر من عواطفها ، فأدركت أم الأمراء ذلك فبادرتها قائلة : « يظهر انك مشغولة القلب بسوانا »

فلم تتمالك لمياء عن البكاء وهى تخجل من بكائها فغطت وجهها بيديها ، وكأنها استضعفت نفسها وانفت من ظهور ضعفها فتجلدت وتشاغلت بالابتسام وهى تنظر الى أم الامراء والدمع يتلألأ فى عينيها . فشاركتها أم الامراء شعورها وارادت استطلاع حقيقة حالها لعلها تنفعها فى شىء فدنت منها وهى تظهر الاهتمام بها وقالت : « لا يشق عليك تعرضي لك فى أمر تريدين كتمانه وانما أردت أن اباسطك . ولما توسمته فيك من الظرف أردت ان اكرمك بأحسن رجالنا . لكننى ارى انك مشغولة الخاطر بسواه . ألا تثقين بى وتطلعيننى على سرك وان كانت هذه أول مرة رأيتنى فيها »

فغلب الخجل على لمياء وقالت : « العفو يا سيدتى ، انك تتنازلين كثيرا فى مخاطبتى وما انا أهل لشىء من ذلك »

فأحست أم الأمراء انها ضايقتها فى الحديث من أول مقابلة فرأت أن تتركها الى فرصة أخرى فقالت : « بل أنت اهل لأحسن منه . والآن قد آن لك أن تستريحى » . وصفقت فأتتها قيمة الدار فأمرتها أن تعد غرفة خاصة للضيفة وأن تساعدها فى تبديل ثيابها وتؤانسها . فنهضت لمياء ومشت مع القيمة وقد تنبهت عواطفها وهاجت أشجانها

فأخذتها القيمة الى غرفة فى القصر تطل على الحديقة التى فيها البركة من ناحية وعلى المسجد الجامع من جهة أخرى ، وساعدتها فى تبديل ثيابها فألبستها ثوبا من أثواب الأميرات ، وهو بسيط فى زيه

بلا زركشة ولا تأنق . وقد اعجبت لمياء بكل ما شاهدته هناك من أدلة البساطة والجنوح الى العمل . وقلما وجدت شيئا يراد به الزخرفة فقط . مع أن قصر ابيها فى سجلماسة لم يكن يخلو من الترف والرخاء يقلد بهما حضارة بغداد او مصر أو الأندلس فيأتى من كل بلد بأفخر مصنوعاته . أما المعز فكان يخاف ذلك فيميل الى التمسك بالبساطة والبعد عن الترف

□

ولما خلت لمياء الى نفسها فى الغرفة تصورت ما أصابها فى ذلك اليوم ، فقد كانت امس فى فسطاط أبيها خارج القيروان ، وهى الآن فى قصر الخليفة المعز لدين الله معززة مكرمة . وتذكرت ان المعز من نسل الامام على وفاطمة الزهراء فاختلج قلبها من الفرح لحصولها على الحظوة بالتقرب من ذلك الدم الطاهر والشرف العظيم . ومشت الى شرفة مطلة على الحديقة ولم تكد تجلس حتى تقاذفتها الهواجس وتذكرت خطيبها سالما وكانت قد احبته ووطنت النفس على الاقتران به . فلما آن وقت العقد أخذت أسيرة مع ابيها ولم تعد ترى سالما ولا علمت أين هو . وكانت تعلم من أسراره ما لا يعرفه عمه وكان فيما أطلعها عليه من أغراضه أمور تنكرها عليه ولا يعلم عمه ابو حامد باطلاعها عليها . ولعله لو علم لم يسمح بتقربها من المعز

فأطرقت حينا وهى غارقة فى التفكير وجعلت تناجى نفسها قائلة : « اين أنت يا سالم . لا أصدق انك قتلت .. لا . لم تقتل بل انت مختبىء أو متنكر . او لعلك تفكر فى ذلك الأمر .. ليتنى استطيع أن أراك لأطلعك على أمور تسهل عليك الرجوع عن عزمك .. واتخلص مما يعرضونه على . انى لا أحب الزواج الا بك لأنى لم أحب سواك ولكننى مع هذا لا أقرك على عزمك لأن فيه خطرا . آه اين انت ؟ »

وفيما هى فى ذلك سمعت حركة وحديثا فى الحديقة ، فأنصتت وجلست تتوقع أن ترى أحدا . وكانت قد ضفرت شعرها ضفيرتين جانبيتين ، ولفت راسها بخمار كبير كالحبرة يغطى كتفيها وجنبيها . وما لبثت ان سمعت خفق نعال على مقربة من النافذة فتراجعت وهى لا تزال تنظر الى الحديقة . واذا هى برجلين عرفت منهما جوهر القائد ، وبجانبه شاب فى مقتبل العمر يظهر من ملامحه انه ابنه الحسين وتذكرت ما قيل لها عن رغبته فيها فأحست بنفور منه ، وانزوت مخافة ان يقع نظره عليها

اما جوهر فكان ماشيا وعليه الجبة والقفطان وفوق راسه العمامة الصغيرة وحولها الخمار وقد تقلد السيف ، وفى مشيته ووثبات قدميه ما يدل على أنه قائد عظيم . وأما ابنه فكان فى مثل لباسه لكنه لا يزال يانعـا وفى محياه نضارة الشباب مع هيبة القـواد والبسالة بادية فى عينيه وجبينه

ولحظت لمياء وهى منزوية أن الحسين بن جوهر لما وصل الى جانب غرفتها التفت كأنه يلتمس أن يرى احدا وسمعت أباه يقول له بصوت منخفض : « لا شك انك لو رأيتها ما تمالكت عن الاعجاب بها لأنها جمعت بين مهابة الرجال ولطف النساء »

فقال الحسين : « انى لا اخالفك فى شيء تراه . وانت اعلم منى وأوسع اختبارا ، لكننى لا اثق بأبيهـا ولا اظنك تجهـل ما فى خاطره و . . »

وكانا يتكلمان وهما ماشيان فلم تسمع لمياء من حديثهما الا نتفا فهمت منها انهما يتحادثان فى شأن خطبتها له ، فوقعت فى حيرة وخافت ان يطلب منها الزواج به وهى عالقة القلب بسالم وان كانت لا تعرف مقره

وكانت لمياء مع بسالتها وقوة بدنها قوية العواطف ، فتمكن الحب من قلبها حتى شغلها عن كل شاغل سواه ، ولا سيما ان سالما اول شاب عرفته واحبته .

ثم عادت فسمعت جوهر يخاطب ابنه وقد عادا من حيث أتيـا واتما الحديث فأصغت لعلهـــا تسمع تتمة الكلام فسمعت جوهر يقول : « أن معاملة هؤلاء بالحسنى أولى بنا وأقرب الى جمع القلوب . وصاحب سجلماسة من أولى الأمراء بذلك » . ثم انقطع سماعها الحديث لابتعادهما فأصبحت لمياء اشد رغبة فى الاطلاع عليه فأصغت لسماعه عبثا . فقعدت وهى تصلح خمارها وتعمل فكرتها واذا هى تسمع لفظا فيه صوت أبيها فأجفلت ، ثم رات اباها وجوهر ماشيين وجوهر يحتفى به ويلاطفه . ويقول له : « لا ريب ان مولانا المعـز يقدر صاحب سجلماسة حق قدره وطالما ذكرك فى غيابك واثنى على علو همتك »

فقال حمدون : « نحن نفتخر بالقيـــام بنصرة ابن فاطمة الزهراء »

ثم بعـد الصوت وعلمت لمياء من هذا الحديث ان اباها وجوهر ذاهبان لزيارة المعز وربما كان ذلك بشأنها . فقلقت لئـلا يعد أبوها بتزويجها للحسين وهى لا تريد . فمشت الى غرفتها وهى تود ان تحضر الجلسة لتعلم ما يدور بين ابيها والمعز بشأنها . ولـكنها لم

تجد وسيلة الى ذلك الا على يد ام الامراء وكانت تسمع بمشاركتها زوجها احيانا فى الراى والتدبير ، وانها كثيرا ما كانت تحضر مجالس المداولة من وراء ستار

وكانت ام الامراء قد اعجبت بلمياء كل الاعجاب واحبتها من كل قلبها . وكذلك لمياء فانهــا أحبت ام الامراء واستأنست بها كأنها تعرفها من اعوام . وقد ســهل عليها أن تكاشفها بمــا يكنه قلبها وتستشيرها فى أمرها وتستعينها على حاجتها . فذهبت تطلبها فى غرفتها فلم تجدها ولقيت حاضنتها ــ وهى امرأة رومية الاصــل اتى بها المعز من صقلية لما دخلت فى حوزته فى جملة نساء حملهن للخدمة وتدبير المنزل . وقد استلطفتها لمياء ورأت منها انعطافا نحوها فسألتها عن أم الأمراء فقالت : « ذهبت لبعض شؤونها وســتعود قريبا » . ودعتها للقعود

فقعدت وخاطرها مشغول بذهاب أبيها الى المعــز مع جوهر ، فأحبت أن تشغل نفسها ريثما تأتى أم الأمراء فقالت للحاضنة : يظهر لى من ملامحك أنك لست من أهل هذه البلاد »

قالت : « صدقت أنى من صقلية يا سيدتى »

قالت : « فأنت رومية الأصل اذن ؟ »

قالت : « نعم وافتخر بأنى من البلد الذى انجب أكبر قواد أمير المؤمنين »

فعلمت أنها تعنى جوهر القائد فقالت : « وهل القائد جوهر من صقلية أيضا ؟ »

قالت : « نعم يا سيدتى انه من ذلك البلد . الا يحق لى أن افتخر به ؟ »

قالت : « كيف لا وهو موضع فخر أهــل هذه الدولة ؟ نصره الله على أعدائه »

وفيما هما فى ذلك جاءت ام الأمراء تمشى مشية النشاط ، ولا تتثاقل تثاقل أهل الترف . فتراجعت الحاضنة وخرجت . ووقفت لمياء وهى تبتسم وتنظر الى أم الأمراء شاكرة مبتهجة ، فأجابتها بمثل نظرتها وتناولت يدها على غير كلفة ودخلت بها الى مخدعهــا وهى تقول : « أحب أن أراك تستأنسين بى وأن تعدى نفسك ابنة لى »

فأكبت لمياء على يدها فقبلتها ودموع الفرح تتساقط من عينيها وقالت : « لقد غمرتنى بفضلك يا سيدتى بما لم يعد فى امكانى القيام بشكره . كفى . ان ذلك فوق ما استحقه أو يخطر لى ببال »

قالت وهى تقربها من وسادة فى صدر الحجرة وتقعدها بجانبها :

« انك اهل لاكثر من ذلك يا لميـاء ، ولا فضل لى اذ احببتك فانى لم أسمع أحد ذكرك الا اعجب بك وبكمالك وهيبتك . هذا قائدنا جوهر شديد الاعجاب بك وقد رغب فى تقريب أبيك من أمير المؤمنين من أجلك . وقد جاء به الآن وسيدخلان اليه ، ولا شك ان المعـز سيحل أباك محلا رفيعا اكراما لقائده » . وسكتت وهى تنظر الى لميـاء وتتأمل ملامحها وما يبدو منها فرأتها مصغية لا يبدو على وجهها شىء من الاضطراب . فعادت الى اتمـام حديثها فقالت : « وبلغ من افتتان قائدنا بك انه أحب أن يأخذك اليـه ويجعلك ابنة له »

فظهرت البغتة على لمياء واطرقت حياء فابتدرتها أم الامراء قائلة : « لا اعنى ان تصيرى ابنة له دون أبيك بل هو ينوى ان يخطبك لابنه الحسين . هل رايت هذا الشاب ؟ لا ينبغى أن تخجلى منى . اتخذينى أما لك »

فتصاعد الدم الى وجنتى لمياء وابرقت عيناها وقالت : « أشكر لك هـذا الاحسان يا سيدتى . نعم انى يتيمة الأم ولـكننى فى حضن أم تتمنى كل فتاة أن تكون أمها ، وانه لينبغى لى أن أفتح لك قلبى وأفصح عن ضميرى . أما الحسين بن جوهر فانى لم أره الا فى هذا النهار عرضا وهو مار فى الحديقة مع أبيه »

فقطعت أم الأمراء كلامها قائلة : « لم يكن مجيئه عرضا ولـكنه جاء عمدا ليرى الفتـاة التى حدثه أبوه عنهـا . وماذا تضمرين بعد ذلك ؟ »

فتنهدت لمياء وهمت بالـكلام واسكتها الحياء ، فادركت ام الامراء انها تخفى شيئا ــ والنساء يتفاهمن بلغات القلوب أسرع من تفاهم الرجال ــ فقدمت لها مذبة كانت فى يدها تروح بهـا لتأنس اليها وقالت : « لا ينبغى لك أن تستحيى منى يا لميـاء بعد ما لقيته من حبى لك . ويكفى دليلا على هذا الحب أن أسعى فى تزويجك بأحسن شاب فى القيروان بعد أبناء الخليفة ، وهؤلاء يا لميـاء لم يبلغوا سن الزواج بعد » . وضحكت

فازدادت لميـاء خجلا من هـذا التلميح الممزوج بالعتاب على الـكبرياء ، ولم تعد ترى باعثا على الحياء فتناولت المذبة من يدها ثم أعادتها اليها بلطف وشكر وقالت : « لا تظنى يا سيدتى انى جاهلة حقيقة قدرى ، أو انى لم أدرك مقدار فضلك فيما تعرضينه على . ولكن اسمحى لى ان أصرح بحقيقة حالى . انى يا سيدتى مخطوبة » . وصبغ الحياء وجهها

لم تستغرب أم الامراء قولها لأنها لحظت ذلك فيها من قبل ، لكنها تجاهلت لتسمع منها هذا التصريح فأجابتها وهى تبتسم : « من هو ذلك

الخطيب السعيد الذي حظى بك وما اسمه ؟ »
فخجلت من هـذا الاطراء وقالت : « أنه ياسـيدتى شاب من اصدقاء ابى ، اسمه سالم ، وقد عرفته فى سجلماسة وله عم كثير التودد لأسرتنا فخطبني اليه »
فقالت : « اين هو ؟ »
فأجابت لمياء وهى ترفع كتفيها اشارة الجهل : «لا ادرى اين هو، ولكننى أعلم أنه شهد المعركة الأخيرة التى قضى بها لأمير المؤمنين . ولم اعلم أين ذهب سالم ... »
فضحكت أم الامراء وقالت : « يبدو لى انك تحبينه كثيرا حتى انك لا تزالين ثابتة على وده مع الشك فى بقائه حيا »
فتنهدت تنهدا عميقا واطرقت وقد صبغ الحياء وجههـــا ولم تجب . فتشاغلت أم الامراء باصلاح ضفائر الشعر المرسـلة على صدرها من الخمار وقالت : «هل تحسبينه ثابتا على حبك لا يلتفت الى سواك ؟ أن هؤلاء الرجال لا يركن اليهم ، ولا تظنى انه يتأتى أن تجدى مثل الحسين بن قائدنا جوهر فى جيل من الناس . ومع ذلك فالرأى لك ، وانا انما أردت خيرك لأننى أحببتك و... » . قالت ذلك وبان العتب فى عينيها
فأثر هذا التأنيب اللطيف فى نفس لمياء تأثيرا شديدا ورأت قولها معقولا ولكن قلبها لم يطاوعها على العمل به ولا طاوعها عقلهـا على الرفض . ولم تكن مع ذلك تعلم أين سالم . وهل هو ميت أو حى ولم تر فرجا من تلك الحيرة الا بالبكاء فجاشت خواطرها وهمت بالبكاء ثم امسكت عواطفها تجلدا وسكتت تغالب نفسها واطرقت لا تبدي حراكا . واظهرت انها تتفرس فى جلد أسد مفروش هناك
فلم تبال أم الامراء سكوتها فأتمت كلامها قائلة : « ومع ذلك فقد سمعت قائدنا جوهر يطرى شجاعتك وثباتك فى حـومة الوغى . فمالى أرى فيك هذا الضعف الآن ؟ »
فلم تعد لمياء تستطيع التمالك فتنهدت تنهدا عميقـــا ورفعت عينيها الى أم الامراءوالدمع يتلألأ فيهما ، وجثت أمامهـــا وقالت وهى تغص بالكلام : « لقد غمرتنى بلطفك يا ســـيدتى . انى لا استحق هـذا الالتفات . نعم لا أستحق النعمة التى تعرضينها على ولكننى . آه . لا املك قياد قلبى . سامحينى على هذا التصريح . لقد رأيت من عطفك ولطفك ما يخولني الدالة عليك وان خالفتالعادة والطبع ، انى يا مولاتى لا املك من قياد نفسى شيئا. نعم انى شجاعة فى الحرب لا أهاب لقاء الأبطال، ولكننى مع سالم ضعيفة. فاذا ذكرته شعرت بانحلال عزائمى وخفقان قلبى . أهذا ما يعبرون عنه بالحب؟

وقد سألتني اذا كان يحبني فكيف لا يكون كذلك وأنا لا أرى للحياة قيمة بدونه » . ولما وصلت الى هنا انتبهت لنفسها وأحست انها تورطت في التصريح بما لا يجوز لمثلها ، وانما غلبت على عواطفها فلم تملك امساك هواها . وخجلت من أم الامراء فحولت وجهها نحو الحائط وأخذت في البكاء . وقد بكت هذه المرة أسفا على ضعفها وتطلعا الى رؤية حبيبها سالم وهي لا تعلم أين هو

اما أم الامراء فاستغربت تعلق لمياء بخطيبها ، ولم تكن تتوقع أن ترى منها ثباتا في حبه الى هذا الحد . فلما آنست منها ذلك قالت : « يسرني يا بنية أنك تحبين خطيبك الى هذا الحد فان المحبة من اكبر النعم . وأطلب الى الله أن يجمعك به ، واذا رأيت أني أستطيع مساعدتك في ذلك فقولي . اما الحسين فاني استمهله لنرى ما يكون — اذ لا يعلم ما في الغيب الا الله »

فهمت لمياء بتقبيل يدها شكرا على صنيعها فأبت عليها ذلك وقبلتها في رأسها ونهضت وهي تقول : « قد تعودت أن أذهب في مثل هذه الساعة الى مقعد لي يشرف على قاعة أمير المؤمنين التي يقابل الناس فيها حيث أطل عليها من وراء حجاب فأشاهد مجلس الامراء وأسمع ما يدور بينهم فاني شديدة الاهتمام بشؤون الدولة»

فأعجبت لمياء بعلو همتها وقالت : «سمعت ذلك عنك ، وهل ترين بأسا من أن أكون معك ؟ »

قالت : « كلا . فاني أستأنس بك »

ومشتا في الدهليز الى غرفة في أحد جدرانها مقعد على دكة يصعد اليه ببضع درجات وراء ستر يحجبه . و في الستر ثقوب اذا شاء الجالس أن يشرف على من في القاعة من الكبراء رآهم وسمع أقوالهم . فأخذت أم الامراء بيد لمياء وأجلستها بجانبها على المقعد وقالت لها : « أنظري من هذا الثقب » . فنظرت فاذا هي تشرف على مجلس الخليفة من أعلى الحائط بحيث ترى الجلوس هناك ولا يرونها

رأت قاعة واسعة فرشت أرضها باللبود ، وقد جلس المعز لدين الله في صدرها على منصة كالوسادة الصغيرة وهو في لباس بسيط اذا قيس الى ما يلبس الملوك والخلفاء . على رأسه العمامة وعلى كتفيه برنس كالعباءة يغطي أثوابه . وقد التف به وقعد الأربعاء قعود من أتعبه العمل فتربع والقى كوعه على فخذيه . والى جانبه حسام مغمد وفي يمينه قلم . وفي يساره ورقة من الكاغد ينظر اليها وكاتبه واقف أمامه ينتظر أمره . وبعد أن تأمل المعز الورقة وضع القلم بجانب دواة بين يديه ودفع الورقة الى الكاتب وأشار اليه ان يذهب . ثم تنفس الصعداء وقال : « اذا شاء الامراء والمشايخ أن يدخلوا فليتفضلوا »

فلما سمعت ام الامراء قوله قالت للمياء : « انه يدعو مشايخ كتامة وصنهاجة وهوارة وهم رجال دولته من أمراء البربر ، ولعله يريد النظر فى أمر هام »

فسرت لمياء لهذه الفرصة لترى كيف يعقد مجلس الملوك . وما لبثت قليلا حتى رأت جماعة من المشايخ والامراء دخلوا والقوا التحية بصوت عال كالعادة . وأشار اليهم المعز فقعدوا على وسادات مثل وسادته محيطة بالقاعة . وجعلت لمياء تتفرس فيهم ، فرأت بينهم وجوها تعرفها من قبل ولما استقر بهم الجلوس جعل المعز يرحب بهم وهم يدعون له ثم قال : « قد تكبدتم المشقة فى المجىء الينا ، وانما دعوتكم لأريكم ما نحن فيه من العمل . ان بعض الذين لا يعلمون يتصورون الامامة وسيلة الى الراحة والتنعم والانقطاع عن العمل . وانها لكذلك لمن شغلوا بالترف عن مصالح الدولة كصاحب بغداد وصاحب قرطبة وامرائهم فى الأطراف ، ممن شغلتهم الدنيا عن الامامة ، فانغمسوا فى الملذات ، وتقلبوا فى الديباج والمسك والخمر . وأما انا فقد دعوتكم لاريكم كيف ينبغى ان يكون الامام ، انظروا الى هذا الكساء والجبة ، والى ما انا جالس عليه من اللبود ، وهذه الأبواب مفتحة تفضى الى خزائن الكتب وانا اشتغل بمكاتبة الأطراف بيدى لا التفت الى أمور الدنيا الا بما يصون أرواحكم ويقمع أضدادكم . فافعلوا يا شيوخ فى خلواتكم مثل ما أفعله ولا تظهروا التكبر والتجبر فينزع الله النعمة عنكم وينقلها الى غيركم »

فتصدى شيخ منهم وقال : « ان أمير المؤمنين قدوتنا ونعم المثال هو »

فقال : « اذا فعلتم ذلك يقرب الله منا امر المشرق كما قرب امر المغرب . انهضوا رحمكم الله ونصركم »

فوقفوا وحيوه وخرجوا وقد امتلأت قلوبهم هيبة ، ولمياء تعجب لتعجيله صرفهم ، وأدركت أم الأمراء ذلك فقالت : « لا بد لسرعة صرفهم من سبب فقد تعودت ان أجلس هنا ساعات أسمع مباحثاتهم »

ولم تتم كلامها حتى سمعت المعز يصفق ويقول : « خفيف ! » فحضر غلامه فقال : « ذكرت لى منذ هنيهة ان قائدنا يطلب ان يرانا على حدة فاسرعنا فى صرف شيوخ كتامة لنتفرغ له . ادعه »

فخرج الغلام وهمست أم الأمراء قائلة : « هذا هو السبب فى سرعة صرفهم . ان جوهر قادم اليه . لله دره من رجل باسل »

فلما سمعت لمياء اسمه تذكرت انها رأته فى الحديقة مع ابيها ، وخطر لها أنها رأته ايضا مع ابنه الحسين فخفق قلبها لأنها أصبحت تخاف ان تراه بعد ان دار ما دار بينها وبين أم الامراء بشأنه

الخطبة . . والمعارضة

ما كادت لياء تفكر فى ذلك ، حتى رات جوهر فى وسط القاعة وقد امسك بيده أباها حمدون ، واخذ يقدمه الى المعز بقوله : « اقدم لمولانا امير المؤمنين الأمير حمدون صاحب سجلماسة صديقنا الجديد »

فنظر المعز اليه وابتسم ابتسامة الملوك وقال : « اهلا بصديقنا . ارجو الا يكون فى خاطره شيء علينا »

فاسرع حمدون وترامى بين يدى المعز كالمستغيث . وقد فعل ذلك مبالغة فى التزلف وقال : « لقد اسعدنا الحظ بهذه الصداقة وهى شرف لنا ولو عرفنا مناقب الامام من قبل لجئناه بغير حرب »

فانهضه المعز بيده واشار اليه ان يجلس بجانبه على وسادة وهو يرحب به ويبتسم . واشار الى جوهر ان يقعد فقعد وهو مسرور من نجاح مهمته بتقريب هذا الأمير للطاعة لأنه صاحب جاه واسع وحزب كبير

جلس حمدون مظهرا التأدب فى حضرة المعز،وعيناه تجولان خلسة فى أطراف القاعة لا تستقران على حال كأنهما عينا لص . على أنه كان فى وجهه هيبة الأمراء

أما لياء فلما رات أباها هناك سرت لتقربه من المعز ، لأنها كانت تعلم ما فى خاطره عليه ، وانه لم يكن أثقل على قلبه من ذلك الأسر . فسرها أنه رضى بارسالها الى بيت الخليفة ، وزاد سرورها أنه تقرب منه . هذا الى اعتقادها أن المعز من نسل فاطمة الزهراء ، وقدشبت على حب الشيعة والانتصار لهم . . وكان همها بعد ذلك أن يأتى سالم ويتقرب الى المعز فيتم لها السرور . وهى وان كانت بفطرتها عزيزة الجانب ميالة الى استقلال الرأى وقد حاربت فى سبيله ولم تستسلم الا قهرا . لكنها لم تكن راضية عن اعمال أبيها فان بين أخلاقها وبين أخلاقه بونا عظيما . وقد لقيت من المعز وامراته كل رعاية واكرام فوطنت النفس على التفانى فى مصلحتهما ، وانما ينقصها العثور على سالم واقناعه بأن يستسلم ويصطلح . ومع علمها بتحرج موقفه كانت تعتقد أنها تقدر أن تتغلب عليه بالدالة والبرهان

أما المعز فالتفت الى جوهر لفتة صديق معجب بصديقه وقال :

« يسرني كثيرا أن تجتمع كلمة شيعتنا على المطالبة بحقوقنا »

فقال جوهر : « ان ذلك يسير بتوفيق مولانا اعزه الله . وانا أعد حلف أمير سجلماسة الباسل فالا مباركا . لأنه رجل حرب وله اعوان يتفانون في نصرته فبمثله يعتز الملك »

فقال حمدون : « اني أفاخر سائر الأمراء بهذه الحظوة بين يدي امير المؤمنين ، وقد أصبحت الآن سيفا من سيوفه اناضل عنه الى اخر نسمة من حياتي . اقول ذلك عني وعن رجال قبيلتي »

فابتسم المعز وقال : « انك اذ تفعل ذلك انما تنصر الحق كما انصره انا . وان امامتي لا تميزني من رجالي بشيء من مرافق الحياة . بل انا اكثرهم تعبا وسهرا كما ترى مما بين يدي من الأعمال . اني اعمل بيدي مالا يعمله صاحب بغداد ولا صاحب قرطبة ، وانظر في كل شيء بنفسي . لا أقول ذلك افتخارا ولكنني اقول الحق . فما انا امامكم الا بما خصني به الله من النسب الطاهر ، وأما فيما خلا ذلك فأنا واحد منكم ! »

فقال حمدون وهو يظهر الاخلاص : « اني احمد الله على ما من علي به من نعم ، وسيرى مني أمير المؤمنين ما تقر به عينه وتنبسط نفسه »

فأبرقت اسرة جوهر فرحا بنجاح مسعاه ونظر الى المعز نظرة فهم المعز مراده منها فالتفت الى حمدون متحببا وقال : « وما انا بقانع لامير سجلماسة بما أردته لغيره من الأمراء المقربين . بل انا أحب أن أختصه باكرام لم ينله سواه . انت تعلم منزلة قائدنا جوهر حامي حمى هذه الدولة . انه صاحب المنزلة الأولى عندنا فنحب أن نزيد أسباب القربى بينك وبينه . وهي قربى لنا أيضا »

فأدرك حمدون غرضه ولكنه تجاهل وقال : « ان امر مولانا مقبول على الراس والعين . فليأمر بما يراه »

قال : « نحب أن نخطب ابنتك لمياء الى الحسين ابن قائدنا جوهر وهو من خيرة الشبان . فهل توافقني على ذلك ؟ »

فأجاب حمدون بقوله : « ان هذا شرف عظيم لنا يا سيدي . ان لمياء لا تستحق هذه النعمة لأن جوهر حفظه الله قدوة القواد . وان لمياء جارية امير المؤمنين يضعها حيثما يشاء . لأمير المؤمنين الأمر وعلينا الطاعة »

▭

كانت لمياء تسمع كلام المعز مع أبيها من وراء الستر وهي تخاف أن يفضي الى اتفاقهما على الخطبة . فلما وقع ما كانت تحذره أجفلت

وارتبكت والتفتت الى أم الامـراء لفتـة مستغيث . فضمها الى صدرها ولم تزد . فرفعت لمياء راسها لتنظر فى عينى أم الأمراء لعلها تفهم مرادها من ذلك التحبب ، فراتها تضحك ضحك من ظفر بغنيمة . فاشتبه عليها امرها هى لا تدرى ماذا تعمل ، وأخذتها الرعدة وترقرق الدمع فى عينيها

فهمست ام الأمراء فى اذنها قائلة : « لم تقبلى ذلك الطلب منى فها قد اتفق عليه أبوك وامير المؤمنين فهل من سبيل الى الرفض ؟ »

فأجابتها لمياء بهز راسها هز الانكار ولسان حالها يقول : « انى لا ازال على عزمى »

فأشارت ام الأمراء بسبابتها على فمها وهمست قائلة : « فلنصبر الآن وسنرى »

فسكتت لمياء ، ثم سمعت المعز يقول لأبيها : « بارك الله فيك انى اهنىء ابن قائدنا بهذه الفتاة كما أهنئها به ، لأنه من خيرة الشبان فعسى أن تكون راضية بذلك ؟ »

فقال حمدون : « انها لا شك راضية . كيف لا ترضى بمـا رضى به لها أمير المؤمنين ووافق عليه أبوها ؟ »

فلم تعد لمياء تصبر على سماع ذلك فنهضت تريد الانزواء نفورا من ذلك الحديث ، فأمسكتها أم الأمراء وأجلستها ، فأطاعت وسكتت وهى تكاد تتميز غيظا ولا تعلم ماذا تعمل

اما المعز فتزحزح عن مجلسه اشارة الانصراف . فوقف جوهر وحمدون واستأذنا فى الانصراف فأذن لهما وهو يقول : « نترك تعيين وقت العقـد لقائدنا ، ونحب ان يكون ذلـك فى حضرتنا اكراما للعروسين »

فانصرفا وتركا لمياء على مثل الجمر وقد جمد الدم فى عروقها وتولتها الدهشة . وحق لها ذلك فانها مع شدة تعلقها بسالم لا ترى مندوحة عن طاعة أمير المؤمنين وأبيها

ثم نهضت أم الأمراء وأخذت لمياء بيدها تخفيفا عنها . وقد شعرت بما هى فيه من الارتباك ، فمشت لمياء معها وهى مستغرقة فى الهواجس لا تنبس ببنت شفة

حتى اذا وصلنا الى حجرة أم الأمراء استأذنت لمياء فى الانصراف الى الغرفة التى أعدت لمنامها . وكانت الشمس قد مالت الى المغيب فدعتها أم الأمراء الى البقاء عندها فاعتذرت بصداع شديد لا ترى وسيلة للتخلص منه بغير النوم . فأذنت لها لئـلا يؤثر الضغط فى نفسها وأضمرت ان تتفقدها بعد هنيهة

سارت لمياء وهي تتعثر بأذيالها ، ولم تبلغ غرفتها حتى أحست بتخاذل قواها فاستلقت على فراشها وقد انقبضت نفسها ، وزادها غروب الشمس انقباضا . واخذت تفكر فيما هي فيه من الضيق فرات انها لولا حبها سالما لـكانت في سعادة لا مثيل لها ، لأنها ستخطب لابن أكبر القواد على يد أحسن الخلفاء في دار الملك . وقد تقربت من ام الأمراء وتصادقتا . وهي تشعر ان هذه الملكة تحبها حقيقة . فلولا تعلقها بسالم لـكانت أسعد الناس حالا . وارادت ان تقنع نفسها بتركه والرضا بتلك النعم فلم تستطع

واخذت تغالب عواطفها وتخاطب نفسها وهي جالسة على الفراش قائلة : « لعل أم الامراء مصيبة في قولها عن الرجال انهم لا يحفظون ذماما . ولـكن سالما ليس مثل سواه . كيف أفكر في غيره وقد تعاقدنا . لله ما هذه الأفكار الشيطانية . ليس في الدنيا أكبر نفسا واجمل خلقا من سالم . ليست السعادة بالمال ولا في الجاه ، وانما هي في الحب . ومهما تعاندني صروف الدهر فحسبي أني اذا تذكرت سالما شعرت بلذة وراحة لا مثيل لهما . ما اجمل الحب واحلاه . ولـكن هل يحبني سالم كما أحبه ؟ »

وفيما هي في ذلك طرق الباب فاجفلت ، فرات صقلبيا يحمل مصباحا وقف بالباب وقال : « ان مولاتي ام الأمراء امرتني ان أنير لك هذا المصباح » . ووضعه على رف في الحائط مصنوع لهذه الغاية ثم سأل : « هل تأمر مولاتي بأن آتيها بطعام العشاء ؟ »

قالت : « اني لا أشعر بالجوع ، وأرجو ان تبلغ مولاتنا أم الامراء شكري على أفضالها »

فانحنى وهم بالخروج . فاستوقفته وقد خطر لها خاطر جديد فقالت : « هل أنت من خدم هذا القصر ؟ »

قال : « نعم يا سيدتي هل تحتاجين الى شيء ؟ »

قالت : « أحب أن أرى مولاتنا أين هي ؟ »

فقال : « هي هنا يا سيدتي » . وتنحى

فاستغربت قوله . واذا بأم الأمراء بالباب فبغتت لمياء لوجودها هناك وقالت : « كيف حضرت يا سيدتي ؟ وأين كنت ؟ »

فضحكت واشارت الى الخصي فانصرف وضمت لمياء الى صدرها وقبلتها وقالت : « أتظنين أني غافلة عما أنت فيه ؟ لقد اذنت لك في الانصراف الى مخدعك وقلبي يراعيك ولم أتمالك عن أن أجيء بنفسي لأراقب حركاتك . وانما أرسلت الصقلبي قبلي ليرى هل أنت نائمة »

فلما سمعت كلامها اكبت على يديها وجعلت تقبلهما قائلة : « بالله يا سيدتي ما هذه النفس الكريمة ؟ وما هذه الاخلاق العالية والحنو الكريم ؟. هل استحق منك هذه العناية ؟ ان شعورك معى فى ضائقتي قد خففها » . وسكتت وهى تدعو أم الأمراء للجلوس على فراشها

فأجابتها : « قلت لك انى أحببتك ، ولم اقل ذلك جزافا . ثم انى اعلم الناس بما يكنه قلبك فقلت فى نفسى : لعلى اذا جئتها وكانت مضطربة ان اخفف عنها شيئا »

فتنهدت لمياء وسبقتها العبرات وقالت : « لقد خففت عنى كثيرا ولكن ... »

فمسحت أم الأمراء دموع لمياء بمنديلها وقالت : « انك يا بنيسة قد حملت نفسك التعب باختيارك . ان النصيب الذى جاءك لو عرض على أحسن نساء العالمين لفرحت به وانت لا ... » . واستغنت عن التصريح بالاشارة

فقالت لمياء : « هذا كله أعلمه وقد حاولت أن أقنع نفسى فلم أستطع . انى ضعيفة مسكينة . آه من الحب . سامحينى يا سيدتى على هذه الحرية فى كلامى . أردت أن أقنع نفسى بأن ما يريده لى ابى سعادة لا ترد ، فشعرت بقشعريرة أرتعدت لها فرائصى . لا أقدر . لا أقدر ان أتسلط على نفسى . انى لا أملك رشدى ، يظهر أنى مجنونة »

فضحكت أم الأمراء تداعبها وقالت : « هل تشكين فى ذلك ؟ الا تعلمين أن العلماء يسمون الحب الشديد جنونا »

قالت : « مهما يكن فانى لا أستطيع التخلص من هذه الهواجس — بالله أشفقى على وارفقى بى »

قالت : « انى سأعمل على هنائك . نعم أحب أن تكونى من نصيب الحسين بن جوهر ولكننى أفضل راحتك . فاذا كنت تظنين أنى استطيع مساعدتك فى شيء قولى »

فأطرقت تفكر وسبابتها على شفتيها السفلى ، وأم الامراء تنظر اليها وتنتظر ما تقوله ، ثم رفعت لمياء بصرها اليها وقالت : « انى أطلب الى مولاتى أمرا لا يصعب عليها . أحب الذهاب الى أبى لأراه وأباحثه فى الأمر الذى عرض عليه اليوم . لعله يعفينى منه اذا علم بما فى خاطرى . وانت تكملين فضلك بارجاع أمير المؤمنين عن عزمه »

ففكرت أم الأمراء لحظة وهى تعلم أن زواج لمياء بالحسين يراد به اكتساب قلب حمدون ، فضلا عن تكافؤ العروسين ، فلم تشأ

ان تعدها باقناع زوجها لـكنها طيبت خاطرها وقالت : « لك على ذلك ، ومتى تذهبين الى أبيك ؟ »

قالت : « الآن يا سـيدتى . انى لا أستطيع رقادا ان لم اره واباحثه »

قالت : « كيف تذهبين الآن وقد داهمنا الظلام وابوك فى معسكره خارج المنصورية وقد اقفلت الأبواب . ومثلك لا يؤذن فى خروجها من هذا القصر »

قالت : « أخرج متنكرة وأنا لا ابالى الظلام ، وكل ما ارجوه أن تأمرى لى بثوب أحد الصقالبة خدم القصر لألبسه واخرج بحجة رسالة أحملها من أمير المؤمنين الى صاحب سجلماسة »

ففكرت أم الأمراء لحظة ثم قالت : « ذلك هين على ، ولـكننى اخاف أن يرتاب حراس الأبواب فى أمرك »

قالت : « لا تخافى »

فقالت : « ها أنذا ذاهبة الى حجرتى وبعد قليل تعالى الى تجدى الثوب حاضرا »

فأكبت على يدها لتقبلها شكرا على هذا الصنيع ، فمنعتها أم الأمراء من ذلك وتركتها وخرجت

□

انتظرت لمياء برهة ، ثم مشت الى ام الامراء فراتها قد اعدت الثوب ، فلبسته وأصلحت من شأنها حتى لا يشك من يراها انها غلام صقلبى ، ثم ودعها . فأرشدتها أم الأمراء الى الطريق الأقرب المؤدى الى باب المدينة

فمشت بقدم ثابتة لا يعتريها خوف . فمرت فى الحديقة دون أن يعترضها أحد ، واهل القصر مشغولون بمهامهم ، حتى وصلت الى باب البلد فاذا هو موصد والحراس وقوف عنده بأسلحتهم . فطلبت اليهم أن يفتحوا لهـا الباب لأنها ذاهبة فى مهمة عاجلة الى معسـكر أبيها . ففتحوه ولـم يشك أحـد منهم فى أنهـا رسول صقلبى

ففرحت بانطلاء حيلتها وخرجت الى الخلاء . ونظـرت الى اتجاه معسكر أبيها فعرفت مكانه من النار الموقدة عنده فمشت بسرعة والظلام حالك والمكان خال وكل شىء هادىء . فلم تمش غير يسير حتى رات شبحا طويلا يدنو منها بهدوء وعليه عباءة سوداء قد التف بها ، فتحولت عن جهته لئـلا يعترضها فوقف لهـا ونادى : « من الرجل ؟ »

فقالت : « رسول من امير المؤمنين الي هذا المعسكر »
فقال : « قف عندك »
ولما سمعت الصوت اقشعر بدنها لأنها تذكرت صوتا تعـرفه ، لـكنها تجلدت وتجاهلت وقالت : « دعني .. اني ذاهب في امر مستعجل »
فناداها قائلا : « لا يخرج الرسل من القصر ليـلا »
قالت : « انها رسالة عاجلة ، وقد رآني الحراس بالباب ولم يعترضوني »
قال : « انا اعترضك . قف عندك او تعال معي الى النور لأرى وجهك .. اني اعرف غلمان القصر جميعا »
فتحيرت في امرها وتفرست في مخاطبها واخذت تفكر فيمن عساه ان يكون وصوته يشبه صوت الحسين بن جوهر ، واستبعدت أن يكون هو هناك وليست الحراسة من شأنه . فتجاهلت وظلت ماشية وهي تقول : « اني ذاهب في مهمة سرية ولا يجوز للحراس أن يطلعوا عليها ولا أن يعرفوا من انا »
قال : « اذا كان ذلك لا يجوز لسواى فهو جائز لي » . قال ذلك ومد يده يريد ان يمسك بيدها فنفرت منه وخبأت يدها وراء ظهرها وقالت : « قل لي من انت ؟ »
قال : « انا الحسين بن جوهر »
فلما علمت أنه هو بعينه ارتج عليها ولم تخف على نفسها منه ولكنها خافت كشـف سرها . فحولت وجههـا عنه ومشت وهي تقول : « لا نعهد الحسين ابن اكبر القواد ينتحل الحراسة ليتعرض لرسول امير المؤمنين . دعني وشأني والا عادت عاقبة ابطائي عليك »
فاعترضها وهم بأن يمسـك يدها فأفلتت يدها منه فقال لهـا : « ليس من شأنك أن تعين لكل انسان مهمته . نحن جميعا نخدم امير المؤمنين نضرب بسيفه ونحرس قصره . دع عنك ذلك واتبعني واذا كنت رسولا كما تزعم فلا خوف عليك . بل اكون لك عونا في ابلاغ الرسالة »
فلم تجد لمياء بدا من الطاعة فقالت : « ها انذا وقفت . ما الذى تريده مني . اكشف اللثام عن وجهك اولا ثم تكلم »
فأزاح اللثام فاذا هو الحسين بعينه فخفق قلبها واستغربت تلك المصادفة وقالت : « نعم انت مولانا الحسين بن جوهر ، فما الذى تريده مني ؟ »
قال : «اني لا ارى وجه صقلبي ولا اسمع صوت صقلبي اني اسمع صوت امرأة »

فضحكت استخفافا وقالت : « ارأيت انك مخدوع ؟ فحسبتني امراة وانا غلام »

قال : « اذا كنت غلاما صقلبيا فأصدقنى ولا تخف »

فسقط فى يدها ولم تجد بدا من التصريح فقالت : « انظر فى وجهى جيدا »

فتفرس فيها على شعاع النور وقال : « انت فتاة . وكأنى رأيت هذا الوجه صباح هذا اليوم. الست لمياء بنت صاحب سجلماسة ؟ »

فلم تطاوعها نفسها على الانكار فقالت : « نعم انا هى وما الذى تريده منى ؟ »

فتنهد وابتسم ثم قال : « ان ما أريده منك ليس هنا مجال الكلام فيه يالمياء . واطمئنك فلا خوف عليك منى لسبب سوف تعلمينه . وانما اعجب لخروجك فى هذا الليل متنكرة ، ومثلك لا يؤذن لها فى الخروج من قصر امير المؤمنين . كيف خرجت ؟ »

قالت : « الم اقل لك انى خارجة فى مهمة لصاحب سجلماسة »

قال : « انت ذاهبة الى ابيك ؟ »

قالت : « نعم . ها قد قلت لك . فأنت وشأنك »

قال متوددا : « ان شأنى شأن المأمور المطيع يالمياء . ولو كان الخارج فى هذا الليل سواك لكانت حياته فى خطر . وأما أنت فانى فى خدمتك حتى ترجعى الى مأمنك . انما ارجو ان تذكرى هذا لى اذا ذكرت به »

فشعرت بأنه يحملها جميلا سيطالبها به يوما ما فقالت : « لم أخرج من القصر فى الليل وحدى وانا خائفة من احد . فاذا شئت أن تصر على اعتراضك سبيلى فافعل »

وكان الحسين قد علم فى النهار أن اباه واباها زارا المعز ، وأنه خطبها له من أبيها ورضى ابوها. ولكنه كان على يقين من انها لم تطلع على شىء من ذلك بعد . وتوسم فى اجتماعها بأبيها فى تلك الساعة خيرا له اذ يبلغها ابوها ما كان من خطبة امير المؤمنين لها من ابيها فقال : « قلت لك ان شأنى معك أن أكون فى خدمتك حتى تبلغى مأمنك وتجتمعى بأبيك . ولعلك فى عودتك تغيرين لهجتك معى »

فأدركت كل ما جال فى خاطره وفهمت ما يشير اليه، لكنها تجاهلت وقالت : « انى لن اذكر ابن القائد جوهر بعد هذه المكارم الا بالشكر والثناء فى كل حال . فهل تأذن فى انصرافى الآن ؟ »

قال : « نعم . ولكننى أكون فى خدمتك لئلا يعترضك سواى

فان فى هذه الطرق حراسا آخرين اقامهم أبى سرا حرصا على سلامة امير المؤمنين . ولا احب ان يعرف احد منهم ولا سواهم بخروجك ، ولا اريد أن يخاطبك احد ولا أن يقول لك كلمة ولو كانت سلاما واحتراما . أنى أكثر حرصا عليك منك » . قال ذلك متحببا

فظلت على تجاهلها وقالت : « بارك الله فيك وفى مروءتك ، واحب ان تكتم ما رايت عن كل احد كانك لم تشاهد احدا »

فاستأنس بهذه الوصية واستدل منها على ميل اليه وقال : « قلت لك انى احرص منك عليك . وهذا يكفى »

فلم تجبه ولكنها مشت ، ومشى هو فى اثرها عن بعد حتى دنت من معسكر ابيها

وكان ذلك المعسكر خياما مضروبة اكبرها فسطاط الامير فلما دنت من الفسطاط صاح بها رجل من الواقفين للحراسة : « من القادم ؟ »

فظلت على تنكرها وقالت : « رسول من امير المؤمنين الى الأمير حمدون »

فنظر فى اثوابها فحسبها غلاما صقلبيا فدخل ليستأذن لها

وكان حمدون قد عاد بعد مثوله بين يدي الخليفة وصدره مملوء بالأماني ، وخلا الى صديقه ابي حامد فترة طويلة ودعاه للعشاء معه فقضيا ساعات يتساران لا يأذن لأحد فى الدخول عليهما . فلما دخل الحرسي يستأذن لرسول امير المؤمنين قال حمدون : « ماذا عسى ان يكون أمر هذا الرسول ؟. فليدخل »

فدخلت لمياء ولم تقع عين ابيها عليها حتى عرفها فهم بأن يناديها فاشارت اليه بالسبابة على فمها أن يكتم أمرها . فاشار الى الحاجب أن يخرج ويبعد سائر الحجاب عن الفسطاط

وكان فسطاط الأمير حمدون خيمة كبيرة من الادم المدبوغ بلون أحمر ، وقد فرشت ببساط كبير حمله معه من سجلماسة ، وهو فى الاصل مجلوب من اسبانيا مما كان امراء الأندلس يفرشونه فى قصورهم . فقد كان ايام امارته يقلدهم فى أسلوب عيشتهم . والخيمة قائمة على ستة اعمدة علقوا عليها الاسلحة والدروع وانيرت أطراف الفسطاط بالمصابيح

فدعا لمياء للجلوس على وسادة بجانبه واخذ يرحب بها وابو حامد الى جانبه الآخر . وهو كهل قصير القامة دقيق العضل كبير الراس بارز الجبهة خفيف اللحية ، قد برز فكاه ونتات سناه المتوسطتان من فكه الأعلى نتوءا كثيرا وافترقتا . وله عينان غائرتان متقاربتان تبرقان دهاء ومكرا كأنهما مصباحان متجاوران قد اختلط نورهما . وفى احداهما

انحراف نحو الاعلى ، وبينهما أنف كبير اعقف كأنف النسر . وقد ارسل شاربيه على شفتيه ليخفي سنيه البارزتين . وأهمل لحيته الخفيفة بلا تمشيط . وكان قد تخفف بلباس الليل وغطى رأسه بلبدة سوداءزادت تلك السحنة غرابة . اذا لقيه الرجل استخف به ثم لا يلبث عندما يخاطبه حتى يهابه لقوة عارضته وفصاحة لسانه

فلما رأى حمدون يرحب بلمياء شاركه في الترحاب وهش لها وسبق اباها الى مخاطبتها فقال : « بارك الله فيك لقد جئت في ابان الحاجة اليك . ولكن ما الذي جاء بك في هذا الليل ؟ »

فضحك ابوها وقال : « يظهر أن أرواحنا تخاطبت عن بعد »

فقالت لمياء والاهتمام باد في عينيها البراقتين : « جئت يا سيدي لأمر اهمني كثيرا »

قال وهو يبتسم : « لعلهم أنبأوك بما دار بيننا وبين المعز في هذا الصباح »

قالت : « لم ينبئوني ولكنني سمعت الحديث بأذني »

فتصدى أبو حامد للكلام قائلا : « اهنئك يا لمياء بهذا النصيب الحسن » . فنظرت اليه نظرة عتاب وقالت : « وانت تقول ذلك ايضا ؟ »

قال : « كيف لا أقوله ؟ » . ونظر الى ابيها كأنه يستشيره

فقال حمدون : « نعم يحق لنا أن نهنئك يا بنية فان هذا النصيب لا يتأتى لأحد من أهل القيروان ! »

فالتفتت الى أبي حامد وقالت : « وسالم ؟ » . وتوقعت أن تفحمه بذلك الاعتراض

فقال : « سالم ؟ وسالم أيضا يفرح لك بهذا النصيب ! »

فدهشت لهذا الجواب وقالت : « سالم ؟ لا . لا . لا اظنه يفرح ولا أنا فرحت به »

فالتفت أبوها اليها لفتة استغراب وقال : « وانت لم تفرحي به ؟ يا لله ما الذي تتوقعينه أحسن من هذا ؟ »

قالت : « أتوقع ان . . . » . وغلب عليها الحياء فسكتت

فقال ابو حامد : « ان كنت ترفضين هذه النعمة لأجل سالم ، فأنا اضمن ارتياحه اليها »

قالت : « سالم لا يرضى أن أكون لسواه ؟ كلا »

فضحك أبو حامد ملء فيه وهز رأسه استخفافا وقال : « أنك تنظرين الى هذا الزواج من وجه واحد فقط »

فاستغربت هذا التعبير وقالت : « وهل ينظر في هذا الأمر من وجوه عدة ؟ »

فأخذ حمدون وأبو حامد ينظر كل منهما الى صاحبه ويضحك . واغرق ابو حامد فى الضحك حتى كاد يستلقى على قفاه وقد برز سناه من بين شعر شاربيه . فشق ذلك على لمياء فابتدرها ابوها قائلا : « الا يكفى لقبولك هذا النصيب أن يكون قد تم الاتفاق عليه بين ابيك وامير المؤمنين ؟ واذا كنت لا تبالين راى ابيك ، الا تهابين امر الخليفة : » . قال ذلك بلحن العتاب والتوبيخ

فخجلت من هذا التعريض لكنها لم تقتنع ، فسكتت واطرقت وفى سكوتها انكار . فتصدى أبو حامد وهو يظهر التلطف والاهتمام ويتشاغل باصلاح غطاء راسه وقال لها : « انا لا اشك فى تعقلك وحكمتك ، ولذلك فانا اخاطبك بصراحة . أؤكد لك أن سالما لو كان معنا الآن لأمرك ان تطيعى اباك وتقبلى ما عرض عليك . ليس لأنه لا يحبك ولكنه يرجو من ذلك خيرا لنا جميعا »

فلما سمعت قوله استغربت ما فيه من التلميح ولم تفهم مراده وهى تعلم أن سالما اذا كان يحبها كما تحبه لا يرضى أن تكون لسواه ولو أعطى مال العالم كله . ولم تفهم ما هو النفع الذى يرجوه من قبولها . فوقعت فى حيرة وظلت ساكتة وقد بان الارتباك فى عينيها ، فتنحنح ابو حامد فنهض ابوها وخرج من الخيمة كأنه يريد حاجة عرضت له . فبقيت لمياء مع ابى حامد فانصرف بكليته اليها وقال : « ارجو أن تكونى قد فهمت مرادى »

فرفعت بصرها اليه وقالت : « كلا يا سيدى . اعترف لك بأنى لم افهم مرادك . وانا أعلم أن سالما اذا كان يحبنى كما تقولان لا يمكن ان يرضى بهذا الامر . وأنى اقيس ذلك على نفسي » . وأطرقت وقد توردت وجنتاها من الخجل واخذت فى اصلاح المنطقة حول خصرها كأن ثوب الصقالبة قد ضايقها لأنها لم تتعوده

فقال ابو حامد وهو يخفض صوته كأنه يسر اليها أمرا هاما : «اننى اجل ذكاءك عن أن يخفى عليك مرادنا . أم انت راضية بالقعود أسيرة كالجارية فى بيت ذلك الأمير المغرور »

قال ذلك وفى صوته ما ينم عن الاحتقار . فتذكرت لمياء ما كانت تعلمه من نقمته على المعز من قبل . ولكنها كانت تحسبه قد اقتنع بما صار لعجزه عن مناهضته . وأحست لما سمعت اسلوب تعبيره بغيرة هبت فى صدرها للدفاع عن نفسها وعن المعز فقالت : « لم أكن أتوقع منك يا عماه ما سمعته فما انا جارية ولا المعز مغرور »

فقال : « لله انت ما أطيب سريرتك ، لقد خدعوك حتى حولوا قلبك عن ابيك وأهلك ، وصرت تجدين الاسر عزا والذل سعادة . أين انفة لمياء راعية الجواد الأدهم سليلة آل مدرار أصحاب سجلماسة ؟

ام غرك ما ناله أولئك من الظفر الرخيص ؟ . انهم غير اهل للملك والتحكم فى الرقاب . ألم ترى منازلهم لا تمتاز عن منازل العامة ؟ واميرهم يجلس علي اللبود ويلبس ما يلبس الناس ؟ اين ابهة الدولة التى كانت لأبيك واجدادك؟ ان آل مدرار وحدهم اهل للسيادة،وبهم وحدهم يليق الملك . اقول ذلك وما انا منهم،ولكننى أعرف منزلتهم ولا اهدف الا الانتصار للحق . ولو كان أبوك هنا لخاطبك بمثل خطابى »

◻

كانت لمياء تسمع وتعجب ولم تستطع صبرا على السكوت فقالت : « اراك يا عماه قد بالغت فى التقريع ولا ارى حاجة الى ذلك . ان المعز لدين الله لم يبلغ ما هو فيه من سعة الملك الا لأنه أحق بهذا الأمر بما له من النسب الشريف ، انه من ابناء الرسول وقد حاربنا وحاربناه ولو كان الحق فى جانبنا لظفرنا به ، وقد كنت فى مقدمة المحاربين ولا ازال احب الاستقلال ولكننى لا أجد اليه سبيلا . وهذا امير المؤمنين قد اكرم وفادتنا واحسن الظن بنا واخلصنا النية له فلا ينبغى أن نخونه »

فضحك ثم قطع ضحكته فجاة وقال : « لم استغرب من قولك الا ايمانك بصحة النسب الذى يدعيه هؤلاء لأنفسهم . أنا أعلم الناس بأنسابهم ، ولكن الانسان اذا تغلب انتحل النسب الذى يريده . أما قولك انهم تغلبوا وان ذلك دليل على حقهم فى الخلافة فهو منقوض لأنهم لم ينالوا هذا الأمر ببطشهم فأنت تعلمين ان ابا عبد الله الشيعى هو الذى سلم اليهم هذا السلطان وانصاره هم أهل هذه البلاد . ثم كافاه هؤلاء الخلفاء بالقتل . اليس كذلك ؟ فكيف تقولين مع هذا انهم اكرموا وفادتنا واحسنوا الظن بنا ؟ ما الذى اكرموكم به وقد ابتزوا سلطانكم ، واغتنموا اموالكم ونهبوا منازلكم ؟. يكفى ما أخذوه من قصرك من التحف والاثاث والرياش . اين جوادك بل اين مرآتك الذهبية التى كانت فى غرفتك ؟ اين حاضنتك التى كانت تقوم على لباسك وشؤونك ؟ أين ماشطتك ومربيتك ؟ الم يكن الخدم عشرات فى منزلك اذا ركبت وقفوا واذا مشيت تطامنوا واذا امرت اطاعوا . وكنت الملكة الآمرة الناهية لا يسمع فى القصر غير أمرك ونهيك . انسيت كل ذلك واعجبك أن تكونى رهنا عند هذا الرجل لتوهمك انه أكرمك واحسن وفادتك ؟ انهم لم يكرموا احدا مثل اكرامهم ابا عبد الله ثم قتلوه غدرا ! » . قال ذلك وغص بريقه وكاد يشرق بدموعه .

فتأثرت لمياء من خطابه وكانت تعلم غدر الفاطميين بأبى عبد الله

لكن تعلقها بطهارة نسبهم كان يحببهم اليها ، هذا مع علمها بعجز ابيها عن مناوأتهم . أضف الى ذلك ما شاهدته من لطف المعز وامرأته وقائده وبقية اهل القصر . على أنها لما سمعت ذكر سابق عزها ومجدها وشرف اسرتها وفخامة ملكهم،تنبهت فيها شهوة الملك ونعرة السيادة ، فخفت لهجتها فى المقاومة ، وأرادت أن تباحث أبا حامد فى الأمر وهى لا ترى بأسا من ذلك فقالت : «ان ما قلته صحيح لا شك فيه لكن ما الفائدة منه ونحن لا حول لنا ولا طول و . . »

فقطع كلامها قائلا : « هذا شيء آخر سنبحث فيه وقد سرنى انك رجعت الى ما هو جدير بك من المحافظة على شرف أبيك وعز الملك ، فأنتم آل مدرار توارثتم السيادة كابرا عن كابر . وأحرزتم الملك بحد السيف لا بالحيلة وادعاء النسب الشريف »

فتحيرت لمياء لما سمعته من التناقض فقالت : «اذا كان الأمر كذلك فما بالكم ترغبوننى فى ابن ذلك القائد وهو مولى ابن مولى ؟ ولم عنفتمونى على ترددى فى أمره »

فابتسم وقال : « ان شعرة من راسك تساوى ملك هذا الخليفة وكل قواده . ان ذلك الطالب لا يساوى قلامة من ظفرك »

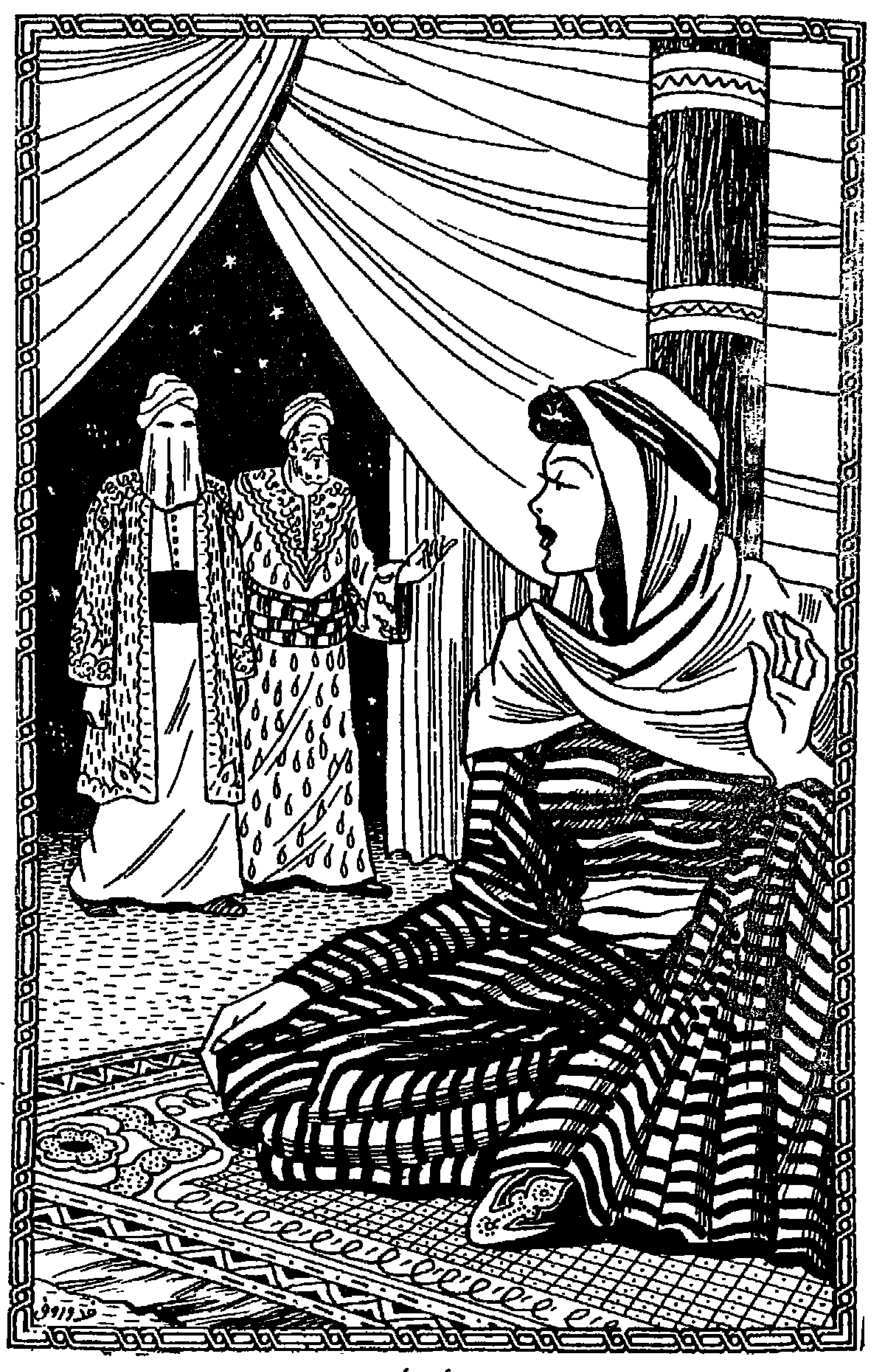
فاستغربت قوله فقالت : « لم أفهم مرادك يا سيدى »

فقال : « مرادى ؟ الم تفهمى مرادى وعهدى بك الذكاء ؟ أم تتجاهلين ؟. اتظنين سالما يرضى أن يحظى بك أحد من العالمين وهو حى ؟ »

فازدادت دهشتها وقالت : « قلت لكم ذلك فغضبتم علىّ . لكننى لا أزال جاهلة مرادك »

فضحك ونظر الى باب الخيمة ، وتحرك كأنه يتحفز للنهوض . فالتفتت ورأت أباها داخلا ومعه رجل ملثم ملتف بعباءة لا يبدو منه الا عيناه . فلم تعرفه وابتدرها ابوها قائلا : « لعلك لا تزالين على تمسكك بالرفض ومقاومة امر الخليفة وارادة أبيك » . قال ذلك وهو يتقدم حتى جلس فى مكانه والرجل الملثم واقف بجانب احد اعمدة الخيمة كأنه متكىء عليه . فشغل خاطرها به وخافت أن يكون فى الأمر دسيسة لكنها لم تكن لترتاب فى ابيها . ولما سمعته يطرح ذلك السؤال عليها قالت : « ولكن العم أبا حامد يقول أنكم تبخلون بى حتى على الخليفة ولا تعطون شعرة منى بكل ملكه »

فضحك ضحكة متهكم وقال : « هل قال لك ذلك ؟ هل صدقته ؟ لا . لا . كيف نخرج من أسر أمير المؤمنين . كيف ننكر فضله علينا ؟ اننا مدينون له بحياتنا » . قال ذلك وتنحنح . ونظرت لمياء فى وجهه فرأت فى عينيه معنى غير الذى نطق به لسانه . والعين أصدق تعبيرا



« ونظرت لمياء إلى باب الخيمة فرأت أباها داخلا ومعه رجل ملثم »

من اللسان فعلمت أنه يتهكم ولكنها تجاهلت وقالت : « لقد حيرتمونى فى أمرى . فلا ادرى من أصدق »

ونظرت الى ابيها فرات الغضب فى عينيه وهما تكادان تقدحان شررا ، وشارباه يرقصان فى وجهه ، وقد تعودت ذلك فيه اذا اشتد غضبه فتهيبت وأثر منظره فيها وتوقعت ان تسمع جوابه فراته نهض مسرعا يتعثر بحمائل سيفه وأردان جبته ومشى على البساط مشية ملك يتخطر تيها وعجبا وليس فى قدميه نعال وكان قد نزعهما بباب الفسطاط . فالتفتت نحوه وهى تراعيه فى تخطره وتنظر خلسة الى الرجل الملثم وقد ازدادت دهشة ولبثت صامتة . ووقع نظرها على أبى حامد فرأته ينظر اليها ويشير بسبابته على شفته السفلى أن « أسكتى لنرى »

□

ظل حمدون يخطر فى الخيمة ذهابا وايابا وهو يلاعب شاربيه وسيفه يجر على الفسطاط ، وقد انحرفت عمامته من مكانها فلم ينتبه لها من الغضب ، ثم وقف بين يدى لمياء وقال : « لمياء يا لمياء ! الى متى تتجاهلين ومثلك لا يحتاج الى ايضاح هل تصدقين أن اباك أمير سجلماسة سلالة آل مدرار السادة الفاتحين يرضى بمصاهرة عبد صقلى يباع أمثاله فى الأسواق بدراهم معدودة ؟هل صدقت اننا نعير طلب صاحب القيروان التفاتا . اننا قد وافقناه حتى يتيسر لنا ما نريد.لا تكونى ساذجة وأنت ابنة حمدون صاحب سجلماسة قائدة الجند فى ساحة الحرب . ما أسرع ما نسيت مجدنا وملكنا ! أنكون أصحاب سجلماسة ونصاهر العبيد ؟ . لا يغرنك ما اتيح لهم من النصر ، انها فلتة لا تستقر الا ريثما توافقيننى على ما أطلبه منك فيذهب ملكهم ونسترجع ملكنا . ونخضعهم لأسيافنا » . قال ذلك وهو يرتعش من الغضب

فتحمست لمياء وعادت اليها روح السيادة وحب الرياسة ، وتأثرت مما ظهر من حماسة ابيها لكنها اعملت فكرتها فلم تجد كلامه مبنيا على شىء واضح ثابت . لعلمها أنهم هناك كالأسرى عند المعز لدين الله وان جند أبيها وان كثروا لا يعدون شيئا فى جانب جند المعز واتباعه . ولكنها انصاعت لقوله بنعوذ الأبوة ــ والولد سريع التصديق لما يسمعه من أبيه ومعلمه ولو كان مستحيلا ــ ومع ذلك فهى لم تفهم حقيقة ما يريدونه من ذلك التناقض فقالت : « صدقت ياابتاه وهل ترى وسيلة لارجاع ما كان لنا من الملك ؟ انى ابذل روحى فى هذا السبيل »

فلما سمع قولها أكب عليها وضمها الى صدره وقبل رأسها وابتسم ابتسامة من فاز بضالة كان يبحث عنها وقال : « بورك فيك من ابنة عاقلة انك جديرة بأن تكوني ملكة سجلماسة وستكونين كذلك باذن الله اذ ليس لي أبناء سواك »

فأخذتها العزة بالملك حتى شغلتها عن انعطافها الى المعز وأهله ، وتذكرت ما كانت فيه من الرفعة والكلمة النافذة ، اذ كانت الرؤوس تطاطيء لها واللحي ترتجف تهيبا منها . فنهضت متحمسة ووقفت بين يدي أبيها وقالت : « انكم تخاطبونني بالألغاز والأحاجي. ما معنى هذا التناقض ؟ قل يا أبتاه ما الذي تريدونه مني . وأحب ان اتحقق باديء ذي بدء انك قد رجعت عن الرضا بما طلبه المعز لدين الله »

قال : « أما هذا فلا ارجع عنه . انها فرصة لا ينبغي ان نضيعها . فرصة ثمينة تنيلنا مرادنا ان عرفنا كيف ننتهزها »

فلم تفهم قصده فقالت : «كيف تريدون أن أكون ملكة في سجلماسة وتطلبون الى ان أتزوج احد اتباع صاحب القيروان ؟ »

فقطع كلامها قائلا : « لا اعني أن تتزوجيه. ان باعه أقصر من ذلك كثيرا . كيف تتزوجينه وسالم حي ؟ لو بلغ ذلك سالما فماذا يقول عنا بل ماذا يقول عنك وانت راعية الجواد صاحبة السيف حامية حي آل مدرار . أنا لا اعني ان تتزوجي ابن جوهر حقيقة . ولكننا نريد ان يكون قبولك وسيلة لاسترجاع ملكنا ، وسأشرح لك كل شيء فيما بعد . والآن اريد ان أعلم قبل كل شيء هل فهمت مرادي »

قالت : « لم أفهمه بعد »

قال : ان مرادي أن نتخلص من صاحب القيروان وقائده . واذا تخلصنا منهما لا يبقى في أفريقيا كلها من يقف في سبيلنا أو يمنع سيادتنا »

قالت : « وكيف نتخلص منهما ؟ »

قال ويده على قبضة حسامه كأنه يستله : « نقتلهما ! »

فأجفلت وتراجعت واستغربت هذا التصريح وهي تعرف تهور أبيها واندفاعه ولم يكن يخطر ببالها أن يتصور قدرته على هذا العمل ولكنها ظنت انه لا يقول هذا الا وهو على ثقة مما يقول . فالتفتت الى أبي حامد وكان لا يزال قاعدا الاربعاء ويداه متقاطعتان وقد أطرق كأنه يفكر باهتمام . ثم حولت نظرها الى الرجل الملثم بجانب العمود وقالت في نفسها : « من عساه أن يكون هذا الملثم الذي شهد هذا التصريح الخطر ؟ لا بد أن يكون من الأقرباء » . وخطر لها أن يكون

سالما نفسه ، فخفق قلبها ولم تعد تستطيع صبرا عن استطلاع الحقيقة فنظرت الى أبيها وكان قد عاد الى التمشي . فمشت نحوه حتى قبضت على يده وقالت بصوت ضعيف : « أراك تقول ما تقوله على مسمع من هذا الملثم فمن هو ؟ »

قال : « ستعلمين ذلك الآن ، ولكن بعد أن توافقيني على ما قلته لك . انى لم أعد أستطيع صبرا على الذل . انهم يكلفوننا اذا دخلنا على صاحب القيروان أن نحييه تحية الامارة ، وان نؤمن على كل ما يقوله،وأن ندعو له بطول البقاء،وأن نعترف بأننا عبيده الطائعون. واننا نضرب بسيفه ونجاهد فى سبيله،وانه صاحب الحق فى الخلافة. وانه من نسل فاطمة الزهراء و . و . و . أن ذلك فوق طاقة البشر . نحن أصحاب سجلماسة من أجيال متوالية وقد تأصلت السيادة فى عروقنا فلا نستطيع احتمال هذا الذل ، فاما الصدر ، واما القبر »

فازدادت لمياء تحمسا بهذا القول وتناست كل شىء فى سبيل العود الى مجدها وعزها . وسرها فوق ذلك أنهم لا ينوون اكراهها على القبول بابن جوهر بدلا من سالم حبيبها . فاقتنعت بهذه النتيجة وفرحت ، لكنها لم تفهم سر ذلك التضاد اذ يريدونها ان تقبل الزواج بالحسين وهم لا يسمحون بشعرة منها له . فكيف يتفق ذلك ؟ فقالت لأبيها : « ان ماتطلبه يا سيدى هو غاية مرادى ولا بد من تحين الفرص للحصول عليه . أما الآن فأرجو أن تطاوعنى على التخلص من طلب المعز ليطمئن بالى »

فقطع كلامها قائلا : « لن تسنح لنا فرصة أوفق من هذه »

قالت : « وأى فرصة تعنى ؟ »

قال : « قبولك ما طلبه صاحب القيروان . وقبل اتمام الزواج تذهب روحه وروح قائده وابن قائده والسلام » . قال ذلك على عجل ومشى مسرعا الى مجلسه وقعد وهو يفتل شاربيه وتركها واقفة متحيرة ، فأدركت بعض مراده ولحظت أنه يريد ان يتخذ أمر العقد عليها ذريعة للفتك بالمعز وقائده وابن قائده ، ولا يكون ذلك الا غيلة . فأجفلت ولكنها تجاهلت ولم تشأ أن تباحثه فى التفاصيل وكأنما طاب لها انه وافقها على التخلص من الزواج بغير سالم

ثم عادت الى التفكير فى ذلك الملثم الواقف كالصنم لا يتحرك ، فاقتربت منه وتفرست فى عينيه ، ولم يكن ظاهرا من وجهه سواهما وقد وقع نور المصباح عليهما فأبرقتا . فما كادت تتفرس فيهما قليلا حتى اختلج قلبها فى صدرها وصاحت : « سالم ! »

فمد يده الى اللثام وأزاحه فاذا هو سالم بعينه . فلما بان وجهه

اخذتها البغتة وغلب عليها الحياء ،فأطرقت وتسارعت دقات قلبهـا وخارت قواها على عادتها معه . ولم تكن تحسب أنه فى تلك الديار

☐

كان سالم جميل الخلقة ممتلىء الجسم وقد أحبته لمياء كثيرا ، فلم تكن ترى فيه الا الحسنـات ، ولا ترى فى الدنيا أجمـل منه . وكانت شديدة الشكيمة مع كل انسان الا معه فانها كانت أطوع له من بنانه. فلما كشـف وجهه واطرقت قال لها : « بورك فيك يا لميـاء . كنت اعتقد انك تحبينني ولكن ليس الى هذا الحد . على أنى أحبك مثـل هذا الحب واكثر. ولكن لا خير فى حبنا ان لم نسـترجع مجدنا أو بالحرى مجد ابيك وسلطانه. وهذا لا يكون الا بتنفيذ الخطة التى يرسمها لك »

فلم تتمـالك أن صاحت فيه. « وأنت ايضـا تريد أن أرضى بما عرضوه على ؟ . لقد عرضوا على أن أكون لرجل سواك ! » . قالت ذلك وهى تتوقع منه أن ينكره ويعترض عليه فاذا هو يقول : « أريد ذلك الى حين . وعليك أن تظهرى قبولك ، ثم علينـا نحن أن ندبر الامر بعد ذلك »

قال ذلك ومشى حتى قعد بجانب عمه أبى حامد ، وأشار الى لمياء أن تقعد

اما هى فشغلها فرحها بتلك المقابلة عن كل خطر تتوقعه ـ ودهشة اللقاء تنسى المحبين كل شيء لاشتغال عواطفهم بالحاضر عن سواه

ورأى ابو حامد ان المؤامرة اوشـكت أن تنجح ، فبادر الى اتمام معداتها ، وتزحزح عن مكانه كأنه يستعد لحديث طويل ثم نظـر فى اطراف الخيمة ولسان حاله يقول : « هل يسمعنا احد ؟ » . فقـال حمدون : « أنت فى مأمن يا أبا حامد لأنى أمرت الحراس بالوقوف بعيدا وأن يمنعوا القدوم الينا »

فمسح شاربيه ولحيته بأنامله ونظر الى لمياء باهتمام وقال لها : « قد وصلنا الآن الى الجد يا لمياء . هذا هو سالم صاحب الشـأن وقد سمعت قوله ، وأنا غريب عن آل مدرار وان كنت صديقا لهم ، ولكننى أبذل حياتى فى سبيل نصرة الحق ومقاومة الخونة الذين نالوا السيادة بالغـدر والنفاق كمـا تعلمين . فلا يغرنك ما يبدونه من التقشف فان الذهب عندهم بالقناطير،وانما يخادعون النا[illegible] ليعطوهم ثم يفتكوا بهم كما فتكوا بأبى عبد الله الشيعى ! »

ثم تنهد، وعاد الى الكلام فقال : « وهذا أبوك أولى الناس بالامارة، ولا حاجة به الى دعوى كاذبة مثل دعواهم الانتساب الى فاطمـة

الزهراء ، وحسبه الانتساب الى آل مدرار ، وشرفهم معروف لا يختلف فيه اثنان . لا تظنى هذا التدبير حديثا عندنا ، ولعل اباك لم يقله لك ، ولكننا بحثنا . ونحن فى سجلماسة ، ودبرنا امورنا للتغلب على افريقية كلها ، ففسد تدبيرنا لأسباب قهرية ، وافلح ذلك الصقلى فى التغلب علينا ولكن فوزه لا ينبغى أن يضعف عزمنا عن طلب حقنا. وقد تتوهمين أن رجالنا اضعف من أن يستطيعوا محاربة جند القيروان ، فذلك ما توحى به الظواهر التى ينخدع بها غير العارفين ، اما انا فأؤكد لك أن هؤلاء الأمراء والمشايخ من كتامة وصنهاجة الذين يظهرون الطاعة والخضوع للمعز ، انما يفعلون ذلك تملقا له ، وهم يتوقعون فرصة للخروج عليه. ولا بد من واحد يبدأ العمل فيتبعه سائر الأمراء وتكون السيادة له،فأحب ان يكون ذلك الشرف لأبيك ، فانه اعرقهم حسبا ونسبا ، فلا يكاد ينهض حتى ينهضوا معه . فكيف اذا دبرنا وسيلة لقتل المعز وقائده وهما روح تلك القوة الموهومة فان القوم كلهم يأتون معنا حتى اهل الخليفة انفسهم لأنهم ناقمون متحاسدون »

ثم سكت ومسح شاربيه بمنديله وهو ينتظر ما يبدو من لمياء

وقد غلبت على لمياء شهوة الشرف وحب الاستقلال ، وتذكرت ما كان لها من السيادة والأبهة ، فغشى ذلك على احترامها للمعز وحبها لأم الأمراء . وكان أبو حامد صاحب حجة ومنطق فى حديثه ، فأقنعها كلامه ورات الحق فى جانبه وتأثرت به حتى شغلها عن وجود سالم هناك . لكنها ما زالت ترى صعوبة ذلك العمل فظلت ساكتة لتسمع تمام الحديث وترى ما يراه سالم

وادرك أبو حامد ما فى خاطرها فقال : « انى أوجه الكلام لك يا لمياء لعلمى أنك عاقلة وعليك المعول فى هذا الأمر . فلا تغرنك كثرة جند القيروان ، فعندنا جند أقوى منهم سيظهرون بعد ، وعندنا أموال مدفونة لو أخرجناها لدهش العالم من كثرتها ، وهى مهيأة قبل ولادتك وولادة سالم لمقاومة هؤلاء الغادرين وارجاع الملك الى اصحابه . وليس فى افريقية أولى به من أبيك »

فظهر لها من كلامه أمور كانت قد عرفت بعضها من أحاديثها مع سالم قبل الأسر . والمحب لا يؤتمن على سر لا يبوح به الى حبيبه . فاذا شئت أن يبقي سرك مكتوما فاحذر أن تستودعه محبا . لكنها اظهرت أنها لم تكن عالمة بشيء من هذا القبيل الا فى تلك الساعة ، ونظرت الى أبيها فرأته ساكتا . والتفتت الى سالم فاذا هو ينظر اليها كأنه يتوقع أن يسمع رأيها فقالت : « انكم تسعون فى أمر هام تقطع دونه الرقاب وتزهق النفوس ، ولكن بذل الحياة فى هذا

السبيل لذيذ . اني يا عماه ابذل حياتي اذا كان في بذلها نفع لأبي ، على أني استميحكم عذرا في كلمة اقولها وان كنت فتـــاة قليلة التجارب . ان ما تنهضون له من جمع كلمة القبائل تحت سلطان رجل واحد ، أمر لم يتم لغير الخلفاء أصحاب النسب في قريش . فالناس لا يخضعون لسواهم ، حتى صاحب القيروان لم يصل الى ما وصل اليه الا بهذا النسب سواء اكان صحيحا أم غير صحيح . وبغير ذلك لا يتم شيء و . . . »

فقطع ابو حامد كلامها وهو يضحك ضحك الاعجاب بتعقلها وسداد رايها وقال : « بورك فيك من حكيمة عاقلة . قد استدركت علينـــا امرا لم يستدركه احد سواك ، ولا يتنبه له غير العقلاء الدهـــاة . صدقت ان الامراء لا تجتمع كلمتهم الا باسم الدين ، وهذا أمر قد دبرناه وخابرنا في شأنه خلافة أرسخ قدما وأصدق نسبا من هذه . كوني مطمئنة . لم يبق الآن الا خطوة واحدة وهي ان نتخلص من هذين الرجلين وثالثهما اذا امكن ، وهذا لا يتم الا على يدك . لا أطلب اليك أن تباشري ذلك بنفسك ، وانما نطلب منك أن تظهري الرضا بابن جوهر ونحن ندبر ما بقي ونقول ما ينبغي »

فأطرقت هنيهة تفكر فيما رأته وسمعته من الغـرائب في تلك الليلة وكيف أتت ممتلئة اعجابا بالمعز واخلاصا له ولامرأته ، وثناء على ما أظهره الحسين بن جوهر من دلائل التعفف وصدق المودة ، ثم هي الآن تتآمر على قتلهم . فأجفلت وظهر التردد في عينيها ، فتلقاها سالم بالحديث قائلا : « لم أكن اشك في انك تقدمين على قتل ذلك الرجـــل بيدك في سبيل ارجاع سلطان ابيك ، على ان كـــل ما نطلبه منك هو سكوتك ورضاك . فأطيعي لئلا يقال انك وقفت عثرة في طريقهم وانا على يقين من أنهم ظافرون . وسترين ان ما يبـــدو لك من مظاهر القـــوة في هؤلاء العبيديين انما هو سحابة صيف »

وكان لــكلام سالم وقع خاص في اذني لميـــاء ، ولو انه طلب منها ان ترمي نفسها في النار لفعلت . فلم تجد بدا من اظهار الرضا واعتقدت أنهم على صواب . فقالت لسالم : « انما كنت أتمنع رغبة فيك عن سواك فاذا كنت تريد ذلك فأنا فاعلة »

فقال : « لا أعني ان تقبلي التضحية حتى نهايتها ولـــكن اقبلي فاذا لم استطع قطع الحبل قبل ان يقبضوا عليه فما أنا أهل للحصول عليك . وتكونين قـــد حصلت على اعظم شاب عندهم » . قال ذلك وتنحنح وابتسم يظهر المداعبة

أما أبوها فسره اقتناعها آخر الأمر ، فقال لها : « بورك فيك

يا ابنة صاحب سجلماسة . انهضي الآن وارجعي الى قصر المعز اذا شئت ، واذا سئلت عن الرضا بالخطبة فاظهري انك رضيت لأن أباك وامير المؤمنين رضيا . هل أرسل معك من يوصلك الى المنصورية (قصر المعز) ؟ »

فنهضت وهي تقول : « لا احتاج الى احد »

فاعترض سالم على ذلك وقال : « كيف تذهبين وحدك فى هذا الليل ؟ انى أرافقك الى هناك »

فتذكرت انها لا تلبث عند خروجها من معسكر ابيها أن تلتقى بالحسين بن جوهر فكيف تجمع بين المتناظرين ؟ فألحت على سالم الا يرافقها هو ولا سواه ، وذكرت أنها اتت وحدها وتعود وحدها لانها متنكرة بلباس خدم القصر ولا تخاف أحدا . فقال لها أبوها : « لا بأس من ارسال بعض الحراس فى اثرك من بعيد ، لأننا لا نعلم ما يحدث »

فاستحلفته الا يفعل ، فسكت وقبلها مودعا ، وودعت هي سالما والعم أبا حامد . واصلحت هندامها وخرجت وقد اشتد الظلام والأرض خالية بين المعسكرين لا انيس فيها . فمشت حتى خرجت من معسكر أبيها فما لبثت أن رات شبحا يقترب نحوها وعرفت أنه الحسين كان فى انتظارها وجاء لتشييعها الى المنصورية ، فأحست عند رؤيته بوخز فى ضميرها واحتقرت نفسها لأنها كانت منذ ساعة صادقة اللهجة شريفة النفس لا يخامر ذهنها غش أو خداع وهى الآن مخادعة مماذقة . فينبغي أن تظهر لهذا الشاب أنها تريده مكرا وكذبا فى حين أنها تتآمر على قتله وقتل ابيه والخليفة

مرت هذه التصورات فى ذهنها مرور البرق والحسين يمشى نحوها . فلما اقترب منها حياها باحترام ولم يزد على أن مشى بجانبها كالخادم الموكل بتوصيل مولاه الى مقصده . فأكبرت منه هذا التلطف ولم تتمالك أن قالت له : « لقد أتعبت نفسك يا سيدى بالانتظار فى هذا الليل »

قال وهو يماشيها على مهل : « لم أتعب نفسى يا سيدتى ، فان ذلك فرض علي ، بل هو من بواعث سرورى . كيف وجدت أباك الأمير ، عساه فى خير ؟ » . قال ذلك وهو يشير الى ما كان يتوقعه من أن يطلعها على خبر خطبته اياها ولم يكن يشك فى أنها ستفرح به وتحسب نفسها سعيدة

وأدركت هي غرضه من ذلك السؤال وأثر فيها تلطفه كثيرا فقالت : « ان أبي فى خير والحمد لله » . وكانت تريد أن تزيد على ذلك أنه شاكر راض ، وأنه مشمول برضا أمير المؤمنين ، ولكنها لم تشأ أن

تكذب فأوجزت . فحمل ذلك منها على محمل الحياء وعمد الى مداعبتها فقال : « يسرني ان يكون أبوك مسرورا ، ولـكن يهمني ان تكوني انت مسرورة ايضا » .

ففهمت مراده وشعرت بصدق طويته واخلاص نيته في حبهـا ، بينما تضمر هي غير ما تقول ، فعظم ذلك عليهـا وشعرت بصغر نفسها وتلجلجت لـكنها تجلدت واجابت : « وأنا ايضا مسرورة لما اراه من التفات أمير المؤمنين وام الأمراء قدوة الاميرات حفظها الله »

وأراد الحسين أن يغتنم تلك الفرصة ليحدثها بأمر الخطبة وليس هناك من يسمع . ومهما يكن من تحجب الفتيات عن طلابهن أمام الناس ، فان احداهن اذا خلت الى خطيبها يرتفع الحجاب ويتشاكيان . ولم يجد الحسين فرصة أثمن من هذه ولا أوفق منها وهما في غفلة عن الرقباء . ولم يكن يشك في أن اباها فاتحها في شأن خطبته وانها رضيت ولـكن الحياء يمنعها من التصريح فعمد الى تجربتها فقال : « اتشعرين يا لمياء بالسرور الذي أشعر به أنا ؟ »

فشق عليها أن يفاتحها بأحاديث الغرام وهي فيما هي فيه من التردد والارتباك ، فقالت : « لا اعلم مقـدار سرورك ولا نوعه ، ولكنني أعلم أني مسرورة من حسن لقاء أمير المؤمنين وام الأمراء » وأظهرت البغتة وهي تقول : « اظننا صرنا على مقربة من المنصورية فاني أرى أنوارها . فأشكرك شكرا جزيلا على تنازلك يا سـيدي فقد أتعبتك » . وهمت بفراقه .

فقال : « لا نزال بعيدين عن المدينة وان كنت ترين انوارها فـلا تتعجلي الفـراق ، الا ان أكون قـد أثقلت عليك الحديث ، ولعلي تطوحت الى وراء ما يجوز لي ، فسامحيني » . قال ذلك معاتبا .

فخجلت لمياء وودت لو أنها لم تقابل أباها في تلك الليلة لأنهـا كانت تعرف ما تجيب به عن هذه الأسئلة بصراحة . فربما أجابت بأنها تحبه وتحترمه ولـكنها مخطوبة لسواه . أما الآن فهم يطلبون منها اظهار رضاها به . وقد يهون عليها ذلك لو كان السائل الخليفة او أم الامراء ، وأما هو فيصعب عليها الـكذب عليه وهي تشعر بأنه يحبها من كل قلبه فكيف تخادعه ؟ . ولمـا سمعت عتابه غلب عليها طيب عنصرها فقالت : « العفو يا سيدي ، انك تبالغ في توبيخي . فهل أسأت الأدب في خطابك ؟ . أم كان ينبغي لي أن أعرف حدي فأقف عنده ؟ » .

فغلبته في العتاب وأحس انه قد يكون جرح رقيق احساسها بكلامه فقال : « اني لا أستحق هذا التقريع يا لمياء . وانما انا احتال في سماع كلمة تدل على رضاك وكفى » .

الحسين وسالم

لم تجد لمياء خيرا من السكوت ، لأن الكلام يجر الكلام وهي لا تعرف ما تقول . وسكت الحسين تهيبا من سكوتها . وفيما هما في هذه الحالة سمعا وقع حوافر جواد مسرع وراءهما ، فالتفتت فرات فارسا قادما من معسكر أبيها ، ولم تكد تتبينه حتى علمت انه سالم فأجفلت ، وخافت ان ينكشف امره لأن أهل قصر المعز يعلمون أنه غائب . والمعز يريد القبض عليه . وهو لم يلحق بها الا مبالغة في اظهار الود وليثبتها في وعدها لما يعلقون عليه من الآمال العظام ولكنه أظهر انه جاء ليحرسها . فلما رأى الحسين بلباس الحراس ماشيا في خدمتها ظنه احدهم ، ولم يخطر بباله انه الحسين ابن جوهر نفسه . فوقعت لمياء في حيرة ولكنها تجاهلت

اما الحسين فالتفت الى الفارس وصاح فيه : « من انت ؟ »

فقال سالم : « وما يعنيك من امرى ؟ سر في طريقك »

فقال : « بل يعنيني . قف حالا »

وكان سالم قد وصل الى لمياء فلم يجب وخاطب لمياء قائلا : « لمياء ! من هذا الرجل ؟ »

فارتبكت في امرها وهي لا تعلم اذا كان الحسين يريد ان يذكر اسمه أم يؤثر ان يبقى مكتوما . فتلجلجت في الجواب لحظة وهي تنظر الى الحسين كأنها تنتظر ان يكون الجواب منه

اما هو فاستغرب خطاب الرجل لها بهذه الدالة التي لا تكون الا بين الاقرباء ، فتبادر الى ذهنه أنه من أقاربها فخفف غضبه اكراما لها وسألها : « من هذا ؟ لعله من بعض أهلك ؟ »

قالت : « نعم يا سيدي انه من أبناء عمي ، وقد يكونون رأوني ماشية مع رجل لا يعرفونه فجاء أحدهم لنجدتي »

فوجه الحسين خطابه الى سالم وقال : « لا تخف يا صاحبي ، اني صديق محب وانا في خدمة ابنة عمك حتى أوصلها الى مأمنها »

فلم يرض سالم بهذا الجواب لأن لمياء متنكرة بلباس الصقالبة فكيف تأتى لهذا الرجل ان يعرفها ويماشيها على انفراد ؟ . فسبق

الى ذهنه سوء الظن فقال : « من انت يا صاحب لعلك متنكر مثلها ومن اخبرك انها فتاة وانها لمياء ؟ »

فاستاء الحسين من لهجته فى الخطاب ، وهم بأن يخبره بحقيقة حاله لكنه فضل الكتمان حفظا لكرامة لمياء فقال : « انا أيضا فى خدمة قصر امير المؤمنين ، وعرفت بخروجها فى مهمة الى أبيها الامير فجئت لمرافقتها فى ذهابها وانتظرت عودتها ، وها انذا معها حتى تبلغ مأمنها كما قلت لك »

فاستحسنت لمياء منه هذا الاسلوب وتوقعت أن ينتهى الأمر عند هذا الحد ، لكنها ما لبثت ان رأت سالما نزل عن جواده وهو لا يزال ملثما ووقف بين لمياء والحسين وولى وجهه نحوها وقال لها : « لا حاجة بك الى مماشاة الخدم انى أسير فى خدمتك . الم أعرض عليك أن أسير معك وأبيت ؟ »

فتجلدت وهى تخاف أن يغضب الحسين لهذه الجسارة وقالت : « لم أرض أن يأتى منكم احد معى لأنى على يقين من وجود هذا الرفيق » . قالت ذلك ومشت فمشى سالم بجانبها بينهما وبين الحسين وهو يقول : « لماذا لم تذكرى ذلك هناك ؟ »

فاستثقلت اعتراضه ، وتحيرت فى امرها ، ثم قالت : « لم أجد حاجة الى ذلك »

قال : « انت بنت الأمير حمدون صاحب سجلماسة ، فلا ينبغى ان يستهان بك وان يكون رفيقك فى هذا الطريق المظلم احد الغلمان . قولى له ان ينصرف وانا أسير معك »

فارتبكت فى امرها وخافت ان يغضب الحسين ويجر الجدال الى القتال أو الى كشف أمر سالم . وصارت ترتعد من التأثر وهى لا تدرى ماذا تعمل ، على ان الحسين اجابه برزانة ولطف قائلا : « ان مسيرك معها لا يخلو من الخطر عليك يا سيدى لأن حراس المدينة لا يعرفونك ، وربما آذوك أو قبضوا عليك »

فضحك استهزاء وقال متهكما : « لا . لا يقبضون على . فأنت لا تعرف من انا . سر فى طريقك ودعنا »

قال ذلك ومشى وهو يقود الجواد وراءه وأومأ الى لمياء أن تتبعه ، فأغضبها عناد سالم ولم تعرف كيف تتخلص من هذه الورطة وهى تتوقع ان يغضب الحسين ويفتضح أمرها . فلما رأته ظل ساكتا علمت انه سكت اكراما لها وصيانة لشرفها لئلا يقال انهم رأوه معها فى ذلك الظلام . فتراجعت وقالت لسالم : « لا حاجة بى الى من يحرسنى فقد صرت على مقربة من السور . بالله الا رجعت وخليتنى أسير وحدى »

فلم يجبها بل ظل ماشيا ، وظل الحسين واقفا مكانه لا يبدي حراكا . ولم يمشيا يسيرا حتى سمعا دبدبة وقرقعة واذا بكوكبة من الفرسان خارجين من السور مسرعين نحوهما فقالت : « لماذا فعلت بنا هذا يا سالم ؟ انني اخاف عليك . فالاوامر شديدة للقبض على من يرونه خارج السور . وانت تعلم انك طلبة القوم فلا احب أن نفتح بابا للقيل والقال . عزمت عليك الا رجعت من هنا . اركب جوادك الى معسكر ابى »

فعظم عليه قولها واستخف بانذارها وقال : « انهم لن يدركوا منى وطرا »

قالت : « ولكنهم ربما آذونى بسببك . بالله ارجع . ارجع . رباه ما هذا العناد ؟ »

والتفتت الى الحسين فلم تره فظنت الظلام حجبه لبعده فوقفت وعادت تتوسل الى سالم أن يرجع فأبى خجلا من نفسه ان يفر . فازدادت حيرتها وقد دهمها الوقت لأن الفرسان وهم عشرة اصبحوا على مقربة منها . وتقدم واحد منهم وصوب سنان رمحه نحوهما وقال : « من أنتم ؟ »

فتصدت لمياء لهم وقالت : « انى رسول امير المؤمنين كما تعلمون»

فقال : « ومن هذا ؟ » . وأشار الى سالم

فقالت : « أحد فرسان الامير حمدون جاء برفقتى فى هذا الطريق »

قال : « لقد ذهبت بالرسالة بلا حارس . وكيف يحتاج غلام امير المؤمنين الى من يحرسه فى بلده . وقد يكون هذا الرفيق جاسوسا فلا بد من القبض عليه » . قال ذلك وأشار الى رفاقه الفرسان فأحاطوا بسالم وقد صوبوا الأسنة نحوه وامروه ان يمشى امامهم . وتقدم اثنان منهم ليأخذوا الفرس منه

اما سالم فأفلت منهما وصاح : « اخسأوا . حذار ان يقترب منى أحد والا ارديته ! » . وهم بأن يستل سيفه . فصاح فيه مقدمهم وقال : « لا تتعب نفسك بالمحال انك فى قبضتنا ولا نريد بك سوءا وانما نطلب اليك أن تدخل معنا وتمكث عندنا الى الصباح فنعرضك على القائد جوهر فاذا امر باطلاقك اطلقناك وليس لك وجه آخر »

فوقع الرعب فى قلبه ، وندم لأنه لم يصغ لنصيحة لمياء ورفيقها ولكنه أكبر الخضوع وهو يخاف ان يكون فى القبض عليه خطر على حياته فوقع فى حيرة . والتفت الى لمياء لفتة استغاثة فتقدمت نحو الفارس وقالت : « الا تعرفنى ايها الفارس ؟ انا اضمن ما تريدونه . احبسونى مكانه الى الغد وقدمونى الى القائد . وانا المسئولة عن هذا الفارس »

فقال : « قد كان ذلك ميســـورا لولا ما بدا من قحته وهو ملثم ويظهر من كلامه أنه من أهل سجلماسة فلا بد من القبض عليه .. قال ذلك واشار الى سالم أن يمشى أمامهم

فقال : « لا أمشى »

فترجل بضـــعة منهم وهموا بأن يوثقوه ولمياء تتقـدم اليهم ان يتركوه . وكانت راغبة فى التستر ، ولعنت الساعة التى جاء فيهـا سالم . وفيما هى فى ذلك وعيناها نحو الجهة التى تركت الحسـين فيهـا اذا بشبح يتقدم من تلك الناحية مسرعا . فعرفت انه هو الحسين فلبثت صامتة لترى ما يكون . وخافت أن يتعمد القبض على سالم ويكشف امره . لكنها رأته حالما وصل الى المكان صاح فى الفرسان قائلا : « خلوا هذا الفارس فانه من الأصدقاء »

فأجفلوا والتفتوا اليه وقالوا : « ومن انت ؟ »

فتقدم خطوة أخرى حتى صار بينهم وقال : « اتركوه انا أعرفه » فلما دنا منهم عرفوه من صوته فتأدبوا وتراجعوا ، وتقدم رئيسهم وتفرس فى وجه الحسـين وهو ملثم فلم يعـرفه وان كان قد عرف صوته . فلما رآه الحسين يتفرس فيه أزاح اللثام عن وجهه وقال : « اتركوه »

فصاحوا جميعا : « مولانا الحسين بن جوهر ؟ ! » . وابتعدوا عن سالم ورئيسهم يخاطبه قائلا : « أرجو المعذرة يا ســيدى لم اكن اعرف أن ابن قائدنا الأكبر يعرفك ! » . واكب على يد الحسين يريد تقبيلها قائلا : « العفو اننا تجاسرنا »

فقطع الحسـين كلامه قائلا : « لا حاجة الى الاعتذار فقـد فعلتم ما عليكم ، وستكافأون على سهركم . وقد اتفق انى اعرف هــذا الفارس وهو من الأصدقاء فأطلقوا سراحه » . واقترب من ســالم وهمس فى اذنه وقال : « الم أقل لك انى اخاف عليـك من حراس المدينة لأنهم لا يعرفونك ؟ . اننى انا ايضا لا اعرفك ولكننى صدقت شهادة هذا الرسول . سر فى حراسة الله » . ومد اليه يده ليصافحه مصافحة الصديق

فصافحه ســالم وقد غلب على امره واخذ الخجـل منه مأخذا عظيما . واستغرب تلك المقابلة ، وكيف التقى بالرجل الذى كانوا يتحدثون عنه ويكيدون له ، وخامرته الغيرة من جهة أخرى ، اذ لم يفهم سببا لوجود الحسين مع لمياء غير اتفاقهما على ذلك من قبل ، فكيف تم هذا الاتفاق على اجتماعهما فى ذلك الليل هناك وهى تزعم انهــا لا تريده خطيبا ؟ فدارت الهواجس فى رأسه ولكنه لم يستطع الا أن يظهر الشكر على محاسنة الحسين له ، ولا سيما انه لم يسأله عن اسمه

ولا طلب منه أن يكشف وجهه ، فودعه ورجع ولم يصدق انه نجـا قبل كشف امره

واشار الحسين الى الفرسان فرجعوا الى السور وتقدم الى لميـاء وقال لها : « اقلت صاحبنا بلثامه وهو يعتقد انني لم أعرفه . وانما اطلقته اكراما لك وحرصا على كرامتك »

فأجفلت من قوله وارادت ان تغالطه فابتدرها قائلا : « اليس هذا سالما طلبة امير المؤمنين ؟ انهم يبحثون عنه ولو علم ابى بوجوده هنا لأمر بالقبض عليه ، ولكننى رأيت فيك ميلا الى كتمان امره فأخليت سبيله رغم ما أبداه من القحة . لا يخامرك شك فى انى عرفته وكيف اجهله وقد رأيته في حربنا مع أبيك وتبارزنا فى سجلماسة ، لكنـه فر يومئذ منى . وها قد نجا الآن من اجلك . على انى اتقدم اليك ان تكتمى امره واحب الا يطلع أحد على ما جرى »

فنظرت اليه نظر اعجاب وامتنان وقالت : « لقد غمرتنى بفضلك يا سيدى واشكرك على مروءتك وكرم اخلاقك . انها اخلاق كبـار القواد . وقد عرفت ذلك لك »

فمد يده نحوها وهو يقول : « انها اخلاق المحبين . اتأذنين لى فى ان اصافحك واودعك »

فلم تستطع الرفض بعد ان غمرها بفضله وما ابداه من الأريحية وسعة الصدر وكبر النفس رغم ما كان من عجرفة سالم وخشونته، واعجبت باحتماله منه الاهانة وصفحه عنه بل انقاذه من الموت ، ثم هو مع ذلك يطلب منهـــا كتمان ذلك حرصا على كرامتهـا وكرامة رفيقها . فمدت يدها نحوه ، ولكنها شعرت عند المصافحة شـعورا جديدا تمشى فى مفاصلها .. فاسرعت فى جذب يدها منه واظـهرت انه قد آن وقت انصرافها واشارت مودعة وتحولت نحو المنصورية فودعها هو بقوله : « فى حراسة الله يا لمياء »

فارقته ومشت وهى تائهة الافـــكار من وقع ما شاهدته . وقد قدرت مروءة الحسين حق قدرها ولكنها احست بشيء غير الاعجاب والامتنان ــ احست بميل وانعطاف لم تشعر بهما من قبل لكنهـــا غالطت نفسها وكذبت عواطفها لانها لا تريد ان يكون فى قلبها محل لغير سالم حبيبها الاول

دخلت باب السـور فوسع لها الحراس لاعتقادهم انها غلام صقلبى من غلمان القصر يحمل رسالة الى أمير المؤمنين . وما زالت حـتى دخلت القصر وسارت توا الى غرفتهـــا وقد انقضى معظم الليل . فدخلتها واقفلت الباب وراءها كأنها تفر من شبح يطاردها . فلمـا خلت الى نفسها لم تشأ أن تنير المصباح مبالغة فى الانزواء والتستر

ـ ولا باعث على التستر وهي في مأمن ولكن هواجسها حدثتها بذلك
ـ فوجدت نفسها تحاول عبثا لانها تريد الفرار من شعور داخلها
لا يحجبه الظلام ولا تمنعه الاقفال . بل رأت الظلام يضاعف هواجسها
ويجسم خوفها . لانها لم تكد تجلس على الفراش حتى بدا لها سالم
بأقبح الصور . رأته دنيئا غادرا خائنا وقحا جبانا ، ورأت الحسين
شهما كريما واسع الصدر كبير النفس . فاقشعر بدنها وتوهمت
انها ارتكبت ذنبا . لان سالما حبيبها الاول وقد أحبته وتركت كل
شيء لاجله وعرضت نفسها لغضب أبيها والخليفة حبا له ، فكيف ترى
فيه تلك الخسة حتى يحملها على التواطؤ معه لقتل أعظم الناس قدرا
وافضلهم نسبا ومروءة. وتذكرت كيف رجع سالم تلك الليلة مرذولا
بعد أن عرف أن خصمه هو الحسين بن جوهر . وبماذا عساه أن يعلل
وجودها مع الحسين في ذلك الليل هناك . وراجعت ما دار بينها وبين
أبيها وابي حامد من الحديث فودت لو أنها لم تذهب في تلك المهمة

ولكنها صبرت نفسها الى الغد لترى ما يكون ، واخذت في تبديل
ثيابها طلبا للرقاد . لكن كيف تنام وهي في تلك الحال وقد تراكمت
عليها الهواجس . وأحست بصدمة عنيفة زعزعت أوتار قلبها
وشوشت أفكارها ، واصبحت لا تجد راحة الا في النوم لعلها اذا
افاقت في الصباح وجدت ما مر بها حلما مزعجا ، فتوسدت الفراش
وتغطت الى ما فوق رأسها وقضت تلك الليلة في قلق واضطراب

أما سالم فلما خلا الى نفسه أحس بصغر شأنه ، وعظم عليه ما أصابه
من الفشل بين يدى خطيبته مع مناظره عليها ، بعد أن كان منذ
ساعة يحرضها على احتقاره واحتقار ابيه وخليفته . وزعم أنه قادر
على قهرهم على أهون سبيل ليعيد الملك الى أبيها فتصير هي الملكة،
وغير ذلك مما دار بينها وبينهم في تلك الليلة

كل هذه الهواجس خطرت له وهو عائد على جواده يمشي الهوينى ،
ويتوهم لفرط خجله أن الحسين يتبعه . واخذ يفكر فيما دار بينهما
في ذلك الموقف ويزن أقواله ليرى هل فرط في كرامته وهل له عذر
مقبول . واخذ يؤول ما قاله أو ما سمعه وينتحل الاعذار ويهيىء
الاسباب ويقدر العواقب لو أنه ظل على جسارته . فأقنع نفسه
بأنه أحسن بالرجوع محافظة على كرامة لمياء ، وبأنه لو تمسك بقوله
لانفضح امرها ، كما أنها هي طلبت اليه أن يعود . والانسان كثيرا
ما يصدق المحال تبريرا لعمله وردا لكرامته . وكان سالم يحب لمياء
ويعجب ببسالتها وجمالها ويرتاح الى الاقتران بها ولكنه لم يكن
يعشقها كما كانت تعشقه هي . وانما صمم على خطبتها لغرض
في نفسه.

حديث الزفاف

دخل سالم معسكر حمدون وتجاوز فسطاطه وقد ذهل عنه. وكان في عزمه أن يعود الى الفسطاط ليقص ما رآه على أبيها . فما لبث قليلا حتى فوجئ بأبي حامد وقد خرج من الخيمة واشار اليه ان يدخل ، فترجل ودخل . ولاحظ ان ابا حامد وحده هناك وقد احمرت عيناه وبان الاهتمام في وجهه ، فأدرك انه أطال التفكير في أمر عظيم،ثم قال له أبو حامد : «لقد وصلنا يا سالم الى الغرض المطلوب، اقعد ». وأشار الى وسادة على البساط فقعد سالم،وقعد أبو حامد الى جانبه وهو يقول له : « أين كنت ؟ »

قال : « ذهبت لأشيع لمياء الى المنصورية وليتني لم أذهب »

قال : « ولماذا ؟ »

فقص عليه ما جرى وكيف وجد الحسين هناك وكيف كان في انتظار لمياء وقد رافقها في غير كلفة . ولم يذكر فشله

فقال أبو حامد : « وهل ساءك ذلك ؟ »

قال : « كيف لا ؟ وقد كنا منذ ساعة نتحدث في اقناعها بأن تقبله وهي تظهر أنها لا تريده ، فكيف تكون على موعد منه وترافقه في هذا الليل ؟ »

فتكلف أبو حامد الضحك ، وقال : « يظهر أنك لا تزال تهتم بهذه الصغائر ، هل يحول ذلك الاجتماع دون غرضنا الذى أوقفنا حياتنا عليه ؟ . كلا بل هو يهونه علينا » . ثم خفض صوته وقال : « أم نسيت الغرض الأول من علاقتنا مع هذا الامير المغرور ؟ »

فسكت سالم وأطرق كأنه يفكر في حديث دار بينه وبين أبي حامد من عهد بعيد

فقال أبو حامد : « لا أنكر ان لمياء فتاة شجاعة وجميلة . ولكن هل خطبناها لأننا لم نجد بين نساء هذه القبائل من يليق بك ؟ انك ستجد خيرا منها ولا سيما بعد ان ننال بغيتنا ونتخلص من أولئك الخائنين . كن رجلا واعمل عمل الرجال . وانظر الى الغاية التي نستهدفها . يكفي أننا اقنعنا هذه الفتاة بأن تمهد لنا السبيل لقتل الرجل وقائده . فان قتلناهما لا يبقى لهذا الغلام حظ من

الحياة فتكون لمياء لك وعند ذلك .. » . وسكت وهو يتلفت يمينا وشمالا محاذرا أن يسمعه احد وقال : « الا تعلم أنك اذا تزوجت لمياء كنت انت صاحب القيروان ؟ »

وكان لأبى حامد سلطة عظيمة على عقل سـالم . فاذا قال قولا صدقه ولو كان مستحيلا لـكنه أحب الاستفهام فقال : « وكيف ذلك ؟ »

قال : « ما هو الفرض الذى أوقفت حياتي عليه ؟ »

قال : « الأخذ بثأر ابى عبد الله المقتول ظلما »

قال : « وهل نكون قد اخذنا بالثأر ان لم نخرج السلطان من أيدى هؤلاء الخونة ؟ »

قال : « انت أعلم »

قال : « أنا أقول لك ان عظام أبى عبد الله تنادينا من ظلمة القبر ان نأخذ بثأره ونخرج الملك من ايدى هؤلاء الخائنين وأنت تعلم أننا كنا نسعى فى ذلك قبل ان يؤخذ صاحب سجلماسة اسيرا . وكنت احسبه رجلا يعول عليه فى العظائم فاذا هو ثرثار مغرور يقول مالا يفعل ، وهو ليس اهلا لغير الادعاء الفارغ ، ولا يغرك ما سمعته من اطرائى أجداده ومبالغتي فى مدحه . لو كان رجلا لما صار الى الأسر واضطر الى اطاعة المعز . وانما انا اداجيه لنستخدم ابنته فى تمهيد السبيل لقتل المعز وقائده ، فنجعله صاحب القيروان . واذا تزوجت أنت بابنته وهو ليس له ذكر يرثه صارت الامارة اليك او نجعلها اليك قبل موته بما أعددناه من الأحزاب والأموال وسـائر المعدات وعند ذلك نكون قد انتقمنا لذلك المقتول »

ورغم ما غرس فى ذهن سالم من قدرة أبى حامد العجيبة لم يفته ما يحول دون الوصول الى تلك الغاية من العقبات فقال : « اسمح لى يا سيدى ان اسأل عن أمر »

فقطع كلامه وقال : « لا تخف يا سالم ، انى لا أخطو خطوة قبل ان أقدر ما بعدها . لعلك تقول فى نفسك : كيف تنتهي مهمتنا بقتل ذينك الرجلين وهذه قبائل البربر من كتامة وصنهاجة وهوارة كلها من انصارهما ؟ وهم يعدون بمئات الألوف ، ونحن ليس عندنا غير رجال صاحب سجلماسة !. ان تلك القبائل يا بنى لم تذعن للمعز الا لتخاذل أمرائها وتفرق كلمتهم واعتقادهم صحة انتسابه الى الامام على . وهذا على تدبيره . الا يكفيك انى عالم بهذا الاعتراض ؟ أم انك تخاف ان أسيء التدبير ولا أحسن الحيلة ؟. الا يكفى هؤلاء الأمراء من هذه الغنيمة ان يعود كل منهم أميرا مستقلا بحكومته

وأن من يقتل منهم صاحب القيروان صارت القيروان له ؟ وهي ستكون نصيب صاحب سجلماسة . وهل تظن أهل القيروان يرمون نبلا علينا بعد قتل خليفتهم ؟ ان رجال سجلماسة معنا وهم اشداء قادرون على أخذ القيروان وحدهم ، فكيف اذا ساعدتهم القبائل ؟ »

فازداد اعجاب سالم بدهاء عمه وقال : « لله درك من ملك قادر . انك والله أولى بهذا الأمر مني ومن سواى »

فأسرع أبو حامد فوضع كفه على فم سالم يريد اسكاته وقال : « لا تقل ذلك ان هذا الملك مقدر لك بوصية من امامنا وكفى هذا الآن » . قال ذلك ونهض ممسكا بيد سالم لينهض معه ، فنهض وقد تهيب وود لو يستزيده بيانا ، لأنه مع طول صحبته له لم يسمع منه تصريحا عن الوصية وأما أبو حامد فقال وهو يصلح عمامته : « لا حاجة بي لأن أوصيك بالكتمان . حتى الحديث الذي ذكرته عن لمياء والحسين اخفه واجعل انك لم تر شيئا » . ثم سكت وبان الاهتمام فى وجهه وقال : « اما انت فلا ينبغى أن تبقى هنا بعد هذه المقابلة . لا بد من سفرك الى مصر فى صباح الغد فى مهمة مثل التى اتيت منها بالأمس . فتجتمع بذلك العبد الأسود اميرها كافور ، وتعقد معه عهدا على هؤلاء الفاطميين فانه يخافهم . وسيكون عونا لنا فى تأييد دولتنا مع صاحب بغداد ، اذ لا بد من خلافة ثابتة تتأيد بها دعوتنا . اظنك فهمت مرادى . ولا ينبغى أن يعلم حمدون بهذه المساعى ولا غيرها . فهمت ؟ »

فأشار بعينيه أنه فهم ، وهم بالخروج فاستوقفه وقال : « لا بد من سفرك فى الصباح خلسة فانى اخشى عليك الدسائس »

قال : « سأسافر »

ثم وقف أبو حامد فجأة وقد تذكر امرا ذا بال ، ونظر فى عينى سالم وحدق فيهما طويلا كأنه يستطلع ما يجول فى خاطره . فأطرق سالم تهيبا ، فقال أبو حامد : « اخاف أن تكون قد بحت لأحد بما اعددناه فى (فج الأخيار) من قواتنا التى سيتم لنا بها الأمر فننشىء دولة تخفق اعلامها على ضفاف النيل وضفاف الفرات »

فلما سمع قوله اختلج قلبه فى صدره لعلمه أنه لم يحافظ على ذلك السر ، لكنه أسرع الى تهدئة روعه ، فهز رأسه وقال : « كيف ابوح به وعليه معولنا ؟ كن مطمئنا »

فصدقه وقال : « فاذهب الى فراشك ، ولا تثق بأحد سواى »

فهم بتقبيل يده وخرج ، وظل أبو حامد وحده وقد أصبح يعد

هذا الحديث كالجمل الهائج ، وازداد احمرار عينية حتى صارتا مثل عيني المحموم من فرط ما هاج في خاطره من البواعث ، فلما خلا الى نفسه جعل يخطر في الخيمة ذهابا وايابا وهو يقضم اطراف شاربيه بأسنانه . وقد جعل يديه متقاطعتين وراء ظهره واخذ يناجي نفسه قائلا : « رحمك الله يا أبا عبد الله ، قد آن لي أن انتقم لك من هؤلاء الغادرين . هناك في فج الأخيار في جبل ايكجان دار الهجرة التي جعلتها للأحزاب التي نصرت بها العبيديين . وهي الآن دار هجرتنا ، وفيها الاموال التي جمعتها عند أول الفتح . نعم هنـاك قوتنا » . وضحك ضحكة ظافر وقال : « احب ان يبعث أبو عبـد الله ويرى نجاحنا .. ولـكن .. » . وسكت واخـذ في تبديل ثيابه للرقاد

⊏

قضت لمياء ليلتها مضطربة تتقلب كأنها على فراش من قتاد . ولم يغمض جفناها الا عند الفجر فنامت وانتابتها الأحلام المزعجة . ولم تستيقظ الا عند الضحى ، على قرع الباب ، فنهضت مذعورة وقد تذكرت حالها بالأمس فتمنت لو كان حلما . وبادرت الى الباب ففتحته فرأت حاضنة أم الأمراء أمامها ، وحالما وقع بصرها عليهـا قالت : « كيف أم الأمراء عساها في خير ؟ »

قالت : « قد استبطأتك فأرسلتني للسؤال عنك »

فأحست ازاء التلطف ، بوخز ضميرها لمـا دبروه لزوجها من المـكائد لـكنها تجلدت وقالت : « كان على أن أسرع اليها مبكرة لكنني استغرقت في النوم »

قالت : « لا بأس يا سيدتي فاني ذاهبة لأطمئنها عليك »

قالت : « قولي لها اني مسرعة لتقبيل يدها حالا »

فعادت الحاضنة ، وعمدت لميـاء الى تبديل ثيابها ثم خرجت قاصدة غرفة أم الامراء ، ولحظت وهي سائرة في الدهليز أن أهـل القصر في حركة غير عادية كأنهم يتأهبون لاحتفال . ثم علمت انهم يأخذون عدتهم لصوم رمضان فتذكرت أنهم دخلوا في شهر رمضان واصبحوا في ذلك اليوم صائمين

وصلت الى غرفة أم الأمراء ، فرأتها جالسة على مقعد . ولمـا دخلت لمياء نهضت لها مبتسمة كأنها تستقبل بعض أولادها ، فلم تتمالك لمياء من فرط امتنانها لذلك التلطف أن أكبت على يدها تقبلها وقد سبقتها العبرات . فاستغربت أم الأمراء بكاءها وظنتها تبكي لأمر يمس خطبتها للحسين وهي انما كانت تبكي أسفا لمـا فرط منها

من التآمر على الخليفة ، فضمتها أم الأمراء الى صدرها وقالت : « ما بالك تبكين يا بنية ؟ »

فأغرقت فى البكاء وغلبت على امرها حتى لم تعد تستطيع امساك نفسها . فجعلت أم الأمراء تخفف عنها وقالت لهـا : « لعلك لم تنجحى فى مهمتك ؟ » . وهى تشير بهـذه المداعبة الى رغبتها فى تزويجها من الحسين

فتماسكت وتجلدت وقالت وهى تمسح عينيها : « نعم يا سيدتى ، انى لم انجح ، والظاهر ان الله قد أراد ما أراده أمير المؤمنين »

فبان السرور فى وجه أم الأمراء واجلست لمياء الى جانبها وقالت : « الذلك تبكين يا لمياء ؟ لا ينبغى ان تحزنى وسوف تتحققين انك احرزت نصيبا حسنا . واحمد الله لانه قدر لك ان تكونى زوجة لهذا الشاب النادر المثال . وبرهانا على سرورى بذلك فانى سأجعل لك مهرا لم تنله فتاة من أهل القيروان لانك عزيزة علينا . وسأقوم انا بتأدية مهرك ، وسأجعل امير المؤمنين يهبك قصرا من قصوره وافرشه لك أحسن فرش وازوده بالتحف والجوارى بحيث يجعلك تنسين ذلك الرجل الذى كاد يسبقنا اليك »

فلم يزدها هذا الكلام الا غيظا من نفسها وندما على ما فرط منها ، ولكنها تجلدت وقالت : « أشكرك يا سيدتى على هذه النعم ، انى لا استحق شيئا من ذلك » . وكانت تعنى ما تقوله تماما . ولكن أم الامراء حملت قولها على محمل التواضع فقالت : « بل أنت اهل لأكثر منه ، ولكن لا بد من الانتظار الى انقضاء شهر رمضان ، لأننا دخلنا فى هذا الشهر المبارك من اليوم ، واظن ان امير المؤمنين يؤجل الزفاف الى عيد الفطر أو ما بعده وسننظر فى ذلك »

فسرها أن يؤجل الزفاف لعلها تتمكن قبـل موعده من تدبير ما ينقذها من هذه الورطة . فبان الارتياح فى محياها وقالت : « انى امتك ولسانى قاصر عن اداء حق شكرك ، جزاك الله خيرا »

فقالت : « انما يهمنى يا لمياء أن تكونى سعيدة ، واحب ان يكون قرانك بالحسين سعيدا لأفرح انا ايضا . وقد بدات اشعر بانك صرت من اهلنا واصبح ابوك يفضل سائر امرائنا بحق القربى من قائدنا . وانت تعلمين منزلة جوهر من نفس امير المؤمنين فانه يؤثره على كثيرين من آله وذوى قرابته . وسترين هذا المساء متى جلسوا للافطار كيف يجلسه بجانبه ويقربه اليه دون سائر العبيديين . ولا ريب انه سيقرب اباك الامير حمدون أيضا اكراما لك »

فلم تعد لمياء تستطيع سماع هذا الاطراء ، وودت لو انها تسمع عكسه عسى أن يخف بعض ما بها من تأنيب الضمير . فأحبت تغيير

الحديث فقالت : « سندخل الليلة فى شهر رمضان ، جعله الله شهرا مباركا عليك ، وزادك من نعمه ومتعك بأبنائك . ما هى العادة فى تناول الافطار عندكم ؟ »

قالت : « ان لأمير المؤمنين عناية خاصة بهذا الشهر ، فهو يأمر أصحاب المطابخ باعداد طعام الافطار لأهل القصر ، فتمد الأسمطة للخليفة واهله وقواده وامرائه وسائر رجال حكومته على حسب درجاتهم فيأكلون معا . وتمد الموائد أيضا للنساء من اهل هذا القصر فاتولى أنا الاشراف على اعدادها بأيدى الجوارى . وستكونين انت معى ، وسأجعل مجلسك بالقرب منى لأستأنس بك . وكذلك نفعل فى طعام السحور أحيانا . واما انت فستكونين معى كل هذا الشهر فى السحور والفطور . وسأريك عند الغروب كيف تمد الأسمطة وكيف يجلس الخليفة والأمراء عليها ، وسترين اباك معهم »

فشكرت لها فضلها وأحبت الاستئذان فى الذهاب الى غرفتها فرارا من ذلك الحديث ولكى تريح اعصابها . فقد احست بألم فى رأسها لما قاسته بالأمس من الاضطراب . وزادها حديث أم الامراء اضطرابا ، فاعتذرت بالتعب ولم تكن تحتاج فى اظهاره الى تكلف لأنه كان باديا فى وجهها وقالت : « ألا تأذن مولاتى فى انصرافى ، فقد شغلتها عن شئونها وانا احس بحاجة الى الراحة »

قالت : « انى اقرأ ذلك فى عينيك ، وهو طبيعى فى مثل حالك . ولكننى أرجو أن تنسى ذلك بعد قليل » . وصفقت فجاءت حاضنتها فقالت : « أحب ان تكون عزيزتى لمياء فى غرفة قريبة من غرفتى . قولى لقيمة القصر أن تهيىء لها غرفتها فانها ذاهبة اليها بعد قليل »

فاشارت مطيعة وخرجت ، ولم تسر لمياء بهذا الاكرام ، لأنها كانت تود البقاء بعيدة على انفراد خوفا من أن يظهر شىء منها من حيث لا تشعر فيفتضح أمرها . لكنها لم تجد بدا من الشكر على ذلك الانعام . وبعد قليل جاءت الحاضنة وقالت : « ان الغرفة مهيأة »

فنهضت لمياء وودعت . فقالت لها أم الامراء : « سنلتقى هنا قبل الغروب » . فأومأت لمياء مطيعة ومشت الى غرفتها الجديدة . فلما دخلتها رأتها أحسن أثاثا من الغرفة الأولى ، وفيها مرآة جميلة من الفضة الصقيلة مستديرة الشكل . ومنضدة عليها المكحلة والمشط والسواك وسائر ما تحتاج اليه المرأة فى اصلاح شأنها . وبها سرير من الأبنوس ، يبدو رغم بساطته ثمينا جدا ، وكذلك كان كل ما فى الغرفة

على انها ما لبثت أن عاودها قلقها . وما صدقت ان دخلت الغرفة

حتى اغلقت بابها وتوسدت الفراش واستغرقت فى الافكار . وقد سرها تأجيل الزفاف شهرا كاملا لتتاح لها فرصة للتفكير والتدبير . واخذت تفكر فى استنباط حل يريح ضميرها . فتبقى هذه النعمة لها وتعرف حق المعز وامراته وفضلهما عليها فلا تخونهما . ثم هى تريد ان تحفظ لأبيها مقامه . ولما تصورت هذا خفق قلبها لما تذكرته من أمره بالأمس وكيف عاد خائبا ، وما اظهره الحسين من المروءة وكبر النفس معه ، وأحست بانعطاف نحو الحسين . فكذبت نفسها واخذت تغالط نفسها ، وصورته لا تغيب عن مخيلتها كما راته فى آخر لحظة وهو يودعها ويوصيها بكتمان ما جرى لسالم . وقدرت تلك الاريحية حق قدرها وجعلت تقنع نفسها بأن ما تحس به من الانعطاف اليه انما هو اعتراف بالجميل ، لانها لم تكن تريد من سالم بديلا وهو أول من طرق حبه قلبها صغيرة فقد تسرب حبه اليها تدريجا لانهما تعارفا منذ الصغر فلم يأتها الحب فجأة كما أصابها هذه المرة . ولذلك لم تقتنع بأن شعورها نحو الحسين هو الحب الذى لا يلبث أن يتمكن . ولكنها باتت تنتظر ساعة الافطار بفارغ الصبر لكى تراه جالسا على السماط فى جملة الجالسين كما قالت لها أم الامراء . ثم غلب التعب عليها فنامت واستغرقت فى النوم

□

افاقت لمياء على اصوات المؤذنين فى العصر ، فنهضت واصلحت من شأنها ونظرت الى وجهها فى المرآة فاذا بلونها ممتقع قليلا وقد ذبلت عيناها . فأحبت أن تتناسى هواجسها فخرجت لملاقاة ام الأمراء ، فراتها فى انتظارها . وقد رحبت بها وسألتها عن صحتها ، ثم أشارت اليها أن تتبعها لتطلعها على ما يعدونه من أسمطة الافطار

فمشت معها حتى دخلتا شرفة تطل على ساحة بعيدة الاطراف فى جانب الحديقة قد نصب فيها سرادق كبير ، واخذ الخدم فى مد الاسمطة والموائد . فأشارت اليها أم الامراء فقعدت على مقعد أمامه ستر فيه كوى صغيرة تأذن للجالسين فى رؤية كل حركة فى تلك الساحة بدون أن يراهم أحد من أهلها . وقعدت أم الامراء الى جانبها وجعلت تقص عليها ما تعودوه فى الأفطار . وهى ترى الخدم يهيئون الأسمطة على شكل خاص . أعلاها فى الصدر سماط يتسع لبضعة عشر يجلسون على الوسائد حوله . وقد وضعت عليه أنواع الأطعمة والفاكهة ، ونحو ذلك فى أسمطة أخرى هنا وهناك . وعليها الاطعمة من اللحوم والافاويه وقد تصاعدت عنها روائح البهارات وغيرها .

وما زالت رائحة الند المحروق فى اطراف الحديقة غالبة على سواها حتى تكامل وضع اطباق الطعام فتغلبت روائح الأطعمة وبهاراتها . واشتغل جماعة من الخدم السود فى انارة المصابيح المعلقة بأعمدة السرادق . واما الصقالبة البيض فكانوا مشغولين بحمل اطباق الاطعمة . ووقف جماعة منهم يحملون الأباريق الفضية والأقداح الزجاجية ليصبوا الماء للشاربين

وانتهى اعداد كل شيء قبيل الغروب ، ولمياء تتشاغل برؤية الخدم يذهبون ويجيئون بين الموائد صامتة . وشاركتها ام الامراء صمتها ، ثم قالت : « يحسن الآن ان نذهب الى مائدتنا فقد أعدت هى الأخرى »

فاظهرت لمياء انها تؤثر البقاء حتى يجلس الخليفة والأمراء على الطعام ثم تنصرف . وبعد قليل أصبح أهل الحديقة فى هرج واهتمام يتسابقون الى التأدب فى مواقفهم استعدادا لاستقبال أمير المؤمنين . ثم اطل الخليفة ماشيا الهوينى وبجانبه القائد جوهر . ووراءهما الحسين بن جوهر ، ثم أولاد الخليفة واهله ، ثم جماعة الامراء والقواد . فتفرقوا الى مقاعدهم على الوسائد حول الأسمطة . فجلس المعز فى صدر السماط الأول وأومأ الى جوهر فجلس الى يمينه ، ونادي الحسين فأجلسه بجانب ابيه . ثم جلس أبناء الخليفة واهله حول ذلك السماط . وجلس سائر الأمراء والقواد حول الأسمطة الأخرى . وبعد قليل علت أصوات المؤذنين فأخذ القراء يتلون الفاتحة وضج المكان بتلاوتها . وجعلت لمياء تتفرس فى الوجوه فرأت اباها وقد دعاه المعز الى اقرب الأسمطة اليه وهو يبش له ويرحب به . وظنت أم الأمراء ان لمياء لم تتنبه الى ذلك فقالت لها : « هذا ابوك قد جاء . ويسرنى ما أراه من اكرام أمير المؤمنين له »

ولما وقع نظرها على الحسين بن جوهر خفق قلبها وتصاعد الدم الى وجهها ، فندمت وحولت نظرها عنه ، وأخذت تغالب عواطفها ونهضت واظهرت انها مستعدة لمرافقة أم الأمراء الى مائدتها متى شاءت . فقالت أم الأمراء : « هذا الحسين أراه جالسا بجانب أبيه ان هذا المنظر يغنيني عن الافطار . وأنت ؟ » . قالت ذلك تداعبها. فسكتت لمياء وصبغ الحياء وجهها وازدادت ارتباكا . ولم تجد سبيلا الى اخفاء عواطفها الا بالتحول عن المكان ، فنهضت الأمراء، وهى تتبعها الى قاعة مد فيها سماطها الخاص ، فجلست اليه واجلست لمياء الى جانبها ، وتناولتا الافطار على نحو ما وصفناه من افطار الخليفة وأمرائه

ولحظت أم الأمراء ان لمياء تسرع فى تناول الطعام وهى ساكتة والاهتمام باد فى عينيها ، فأدركت أنهـا تود الرجوع الى الشرفة فاختصرت فى الأكل حتى اذا فرغت منه قالت لها : « هلم بنـا الى الشرفة لنسمع ما يدور من الحديث هناك »

فنهضت ومشت معها وقد تناست ندمها ، ورأت أنهـا مدفوعة بدافع لا سلطان للعقل عليه . ولما وصلتا ، كانت الأسمطة قـد رفعت وانصرف معظم المدعوين ، وجلس الباقون منهم بين يدى المعز وفيهم جوهر وحمدون والحسين . وقد جلس حمدون بقرب جوهر يتحدثان ويتخلل حديثهما ضحك وتودد . فأصاخت لمياء بسمعها لتسمع ما يدور . فسمعت الخليفة يقول لأبيها : « سرنى ما تجدد بيننا من الروابط بخطبة لمياء الى ابن قائدنا ، وانهما لنعم العروسان . وسرور أم الأمراء لا يقل عن سرورى وهى تود أن تختص عروسنا لميـاء بالتفات هى أهل له ، وستؤدى مهرها عن قائدنا . وسنسوقه اليكم قريبا . وسنخص العروسين بقصر من قصورنا مثل بعض أهلنا .»

فأسرع جوهر الى مقابلة هذا الانعام بالنهوض واكب على يدى المعز ليقبلهما فمنعه المعز وقال : « أن الحسين ابننا ولمياء بنتنا ، وكل ما يهمنا أن يكون زفافهما سعيدا مباركا »

فقال حمدون : « ان نعم مولانا فوق ما نستحق ، ويكفينا شرفا أن يكون العقد على يده . فيكون مباركا ، ويزيد بركة اذا تنازل مولانا وحضر حفلة الزفاف . وهذا مطمع جرأنى عليه ما وجـدته فى مولاى من التواضع فى مجاسنتنا »

فلما سمعت لمياء هذا القول اكبرته وخافت أن يكون أبوها قد شط فى طلبه الى مالا يمكن اجابته . ورأت مثل هذا الاستغراب من جوهر ايضا . أما المعز فابتسم وقال : « ان ذلك مما يزيد فى سرورنا ، لأن قائدنا جوهر أهل لمـا هو فوق ذلك »

فترامى جوهر على ركبة المعز وقبلها وهو يقول : « قد غمرنى أمير المؤمنين بفضله واحسانه »

فأسرع حمدون الى الـكلام قائلا : « لم أطلب ما طلبت الا وأنا أعرف منزلة القائد جوهر عند مولانا اعزه الله . وقد جرأنى على ذلك ان امير المؤمنين حفظه الله خطب للحسين ابنتنا لمياء . ونحن اتباعه ، ومهما نفعل لا نقوم بواجب الشكر على نعمه »

فكانت لمياء تسمع هذا الحديث وقلبها يطفح سرورا لما توسمت فيه من تغير رأى أبيها فى المعز فيقلع عما كان بيته له . ولما تصورت ذلك اعترضها شبح سالم كأنه يؤنبها على ايثارها الحسين عليه .

فانه لو تم الزفاف بلا فتك لصارت عروسا للحسين ؟ فارتبكت فى تفكيرها ولبثت صامتة وافكارها تائهة وام الأمراء تراعى حركاتها . فلحظت اضطرابها ولكنها لم يدر بخلدها ما كان يجول فى خاطر لمياء

ولما فرغ حمدون من قوله أجابه المعز بقوله : « ان ظنك فى محله ايها الأمير . ولكن قائدنا لم يعرف حقيقة منزلته عندنا . اننا سنشهد حفلة الزفاف ولا بد أن يكون ذلك فى معسكركم حيث تقيم العروس قبل زفافها »

فأجاب حمدون : « اينما كنا فنحن فى ظل امير المؤمنين . وليس لاحد منا معسكر أو قصر الا من نعمه . واذا تنازل المولى ورأى أن يكون ذلك فى ظاهر المنصورية أريناه عادة السجلماسيين فى الاحتفال بأعراسهم . وسيجرى الفرسان هناك فى حلبة السباق ويلعبون على ظهور الخيل . ولعله يسر أن يرى رجاله وعبيده يتسابقون على الأفراس بين يديه . ولو كان فى المنصورية متسع لهذه الألعاب ، أو لو أمر سيدى بذلك فاننا مطيعون »

قال المعز : « بل نذهب الى معسكركم ونشاهد احتفالكم . انى كثير الشغف برؤية الفرسان يتسابقون ، ولا سيما فرسان سجلماسة المشهورين بالفروسية والمهارة فى ركوب الخيل . فمتى ترى أن يكون ذلك ؟ »

فقال حمدون : « ليس لاحد منا رأى ، فان الأمر فى ذلك لمولانا »

فنظر المعز الى جوهر كأنه يستشيره فبادر الى الجواب قائلا : « الأمر لمولاى »

فقال المعز : « أما وقد دخلنا فى شهر رمضان المبارك فلا ارى أن يتم الزفاف قبل انقضائه . فنجعله فى عيد الفطر تبركا به ويكون احتفالنا بالزفاف فى وقت احتفالنا بالعيد »

فبان البشر فى وجهى حمدون وجوهر ، واخذا فى تنميق عبارات الثناء . أما لمياء فلم يكن ذلك جديدا عليها وكانت قد سمعته من ام الأمراء . ولحظت من خلال تلك الأحاديث أن المعز عمل بما أوحته اليه امرأته فوثقت حينئذ بأنها شديدة الاهتمام بأمرها وبحبها لها . والتفتت اليها لفتة ملؤها الامتنان والشكر . ففهمت ام الامراء من تلك اللفتة مالا تقوى الألسنة على بسطه . وكان جوابها أنها ضمتها الى صدرها وقبلتها ، فأكبت لمياء على يدها لتقبلها فمنعتها وقالت : « ثقى يا بنية بأن فرحى باتمام هذا الأمر يكفينى . ولكنهم أطالوا أجل الاقتران أليس كذلك ؟ » . قالت ذلك تداعبها

فأطرقت لميــاء حياء فابتدرتها أم الأمراء قائلة : « اعنى انهم اطالوه على أو على الحسين . الا ترينه ساكتا مطرقا لا يكلم احدا . انى أعد هذا الشاب من أولادنا كما أعدك ابنتنا . ولذلك لا أرى ان يأخذوك الى بيت أبيك الا قبل الاقتران ببضعة ايام . اريد أن اشبع منك »

وكانت لمياء أثناء ذلك قد عادت هواجسها اليها واصبحت شديدة الرغبة فى مقابلة ابيها لترى هــل اقلع عن عزمه بعد ما لقيه من اكرام المعز ، أم كان ما قاله مداجاة . وسبق الى ظنهــا انه يظهر ما يعتقده لأن الصادق الحر لا يتصور نفاق الـكاذبين ، ثم هى من الجهــة الأخرى يشق عليها أن تقبل الحسين وتعد قبولها خيانة لسالم

وفيما هى فى ذلك رات الخليفة يتحفز للنهوض ، فنهض الجلوس واستأذنوا فى الانصراف . ونهضت ام الأمراء ومشت لمياء معهــا وهى تود الا تعــود الى محادثتها فى امر ذهابهــا الى ابيها لأنها تحب ان تترك الأمــر للمقادير لترى ما يكون اثنــــاء رمضان . وتحب أن تخلو الى نفسها لتفكر فى أمرها وتحــل هذه المشكلة حلا معقولا

□

ودعت لمياء ام الأمراء وذهبت الى غرفتها وهى غارقــة فى بحار الهموم . ولم تكد تخلو بنفسها حتى طرق ذهنها فكر احست بارتياح اليه . ذلك أنها قابلت بين ما دار بينها وبين أبيها بالأمس فى فسطاطه بحضور ابى حامد ، وبين ما ظهر منه بين يدى المعز فى هذا المساء فوجدت فرقا كبيرا . فتبادر الى اعتقادها أن أبا حامد هو الذى حرضه على الفتك بالخليفة ، وانه لو ترك لنفسه لم يرض بذلك . وتذكرت ما عرفته من ظواهر هذا الرجل فى اثناء اقامته بسجلماسة وما كان يسر اليها سالم احيانا من الأغراض السياسية التى يرمى اليهــا . فرجح لديها أن أبا حامد هو علة المفاسد ، وأنها لو انفردت بأبيها وباحثته فى أمر المعز لأقنعته بأن يرجع عن عزمه . فارتاحت لهذا الفكر . لـكنها لم تكد تشعر بالراحة حتى تصورت انها تصير عند ذلك زوجة للحسين تقيم بالمنصورية . وماذا تفعل بسالم ؟ فوقف ذهنها عند هذه النقطة فرات فى عدول أبيها عن الفتك بالمعز ما يفرق بينها وبين سالم

فأخذت تخاطب نفسها قائلة : « ما العمل اذن ؟. الرضى بقتل المعز وهو سلالة فاطمة الزهــراء وصاحب الفضل الأكبر على .

واسلم بقتل جوهر القائد العظيم ؟ وهب انی رضيت فهل تفلح هذه المكيدة ؟ الا يجوز ان تعود عاقبتها وبالا علينا ؟ بأى شيء نحارب جند الخليفة ؟ وكيف نحارب الحسين ، ذلك الشهم صاحب المروءة ونقتله ايضا ؟ ما ذنبه ؟ بل ما ذنب الخليفة وقائده ؟ انها مكيدة ملؤها الخداع والغش ، فكيف ترضين يا لمياء بهذه الرذيلة ؟. يكفى ما اراه من كرم اخلاق هذه المرأة التى تحبنى محبة الأم أأرضى ان اكون وسيلة لسقوطها ؟ كلا . كلا . انى اذن قاتلة خائنة . ولكن عدولى عن هذا الأمر يحرمنى حبيبى . فماذا افعل ؟ اأطلع الأمراء على سر الأمر ليحذروه ؟ عند ذلك اكون قد عرضت سالما للقتل وعرضت ابى للموت . هل اسمح بقتل ابى وحبيبى ؟ كلا . ويلاه ما هذه المشكلة التى لا حل لها ؟ »

وكانت جالسة على الفراش تفكر فى ذلك وعيناها شاخصتان الى نور المصباح فلما وصلت الى هذا الحد من الارتباك وثبت وقد هاجت أشجانها واخذ القلق منها . وجعلت تتمشى فى الغرفة وتعيد النظر فى المسألة طردا وعكسا ، فلا تجد لها حلا الا بارتكاب الخيانة أو القتل فضلا عن محاربة العواطف وهى أشد وطأة من كليهما

□

قضت فى التفكير ساعة أو ساعتين حتى ملت التردد واغلق عليها الامر فوقفت تجاه المرآة فرأت ما اصاب سحنتها من التغيير فقالت: « انى ارى لمياء فى هذه المرآة غيرها فى مرآة ابيها بسجلماسة . ويلاه ما كان اغنانى عن هذه القلاقل بل ما اغنى أهل القيروان عن هذه السحنة العائدة عليهم بالشؤم والخراب . هل العيب فى المرآة وهى التى غيرت لمياء ؟ . أم انها ترينى وجهى كما هو وانما العيب فى ؟ . لقد كان الأولى بى أن ابقى على رفض هذا النصيب وليتسابق هؤلاء الى القتل على غير يدى ؟ . هل اقدر على ذلك الآن ؟ وبأى لسان اقوله ؟ . وبأى وجه اقابل ام الامراء ؟ . هل ابوح لها بسرى واستشيرها فى أمرى ؟ لا اقدر . . ويلاه يا ربى ماذا أفعل ! ؟ »

وتحولت عن المرآة الى السرير واستلقت عليه وقد اظلمت الدنيا فى عينيها فلم تجد لها فرجا فى غير البكاء فأطلقت لنفسها العنان فيه وصارت تشهق وتندب نفسها حتى كاد يغمى عليها ، ثم عادت الى مناجاة ربها فقالت : « الاهى قد لذ لى الموت فخذنى اليك . ان موتى خير حل لهذه المشكلة فينجو المحسنون الى من القتل واتخلص من

التردد القبيح . ولكن هل أقتل نفسي بيدي ! .. لا . لا . الأفضل ان أفر من هذا المكان الى حيث لا يرانى احد حتى تأتى ساعتى . رباه ! أ أكون لمياء قاهرة الأعداء فى حومة الوغى وأرزح تحت هذه الأوهام ؟ سأعود فأرفض الحسين واعتذر له بانى لا اريد الزواج ! . ولكن كيف أفعل ذلك ؟ مسكين الحسين ! . انه ذو فضل ويظهر انه احبنى .. آه يا سالم يا حبيبى . كيف أموت أو افر واتركك ؟! لقد بارزت الفرسان واستقبلت النبال فى ساحة القتال فلم أجد أصعب مراسا من الحب ، انه يملك ناصية القلب . ويلاه ! . هل فى الدنيا فتاة أشقى حالا منى ؟ ! »

ثم سكتت وكأن البكاء خفف مصابها وقشع السويداء عن عينيها وتذكرت أن لديها شهرا كاملا لاعمال فكرها فقالت : « فلنصبر ان الله مع الصابرين » . وذهبت الى فراشها وقد أخذ التعب منها مأخذا عظيما



فرار سالم

خرج حمدون من قصر المعز بعد العشاء ، وقد ادهشـــه ما رآه هناك من الابهة والعظمة ، وأكبر الاقدام على تنفيذ تلك المكيدة ولا سيما بعد الذى لقيه من الاكرام والمؤانسة من الخليفة وقائده وسائر امرائه . واحس بخطر الامر الذى هو مقدم عليه . فقضى مســافة الطريق الى معسكره وهو يفكر فى ذلك ، وتحريض أبي حامد لا يزال غالبا على عقله فوصل الى خيمته يريد أن يخلو الى نفســه ليعمل فكره ويرجح احد الوجهين ، ولم يكد يستقر به الجلوس حتى جاء ابو حامد ، وما وقع نظره على حمدون حتى استطلع ضميره وكشف عما يجول فى خاطره ، وأراد أن يتحقق ذلك فقال له : « كيف لقيت أمير المؤمنين ؟ »

فأجابه حمدون وهو يحاول اخفاء ما يجول فى خاطره : « لقيته كما اعهده وكما تعهده أنت ! »

فلم يستغرب منه تلقيب المعز بأمير المؤمنين ، وتحقق صـدق فراسته فيه فقال : « اعنى هل لقيت منه أنسا ؟ »

قال : « لقد جاملنا وآنسنا وأكرم وفادتنا ، ووددت لو أنك كنت معنا »

قال : « انا أعلم اقتدار هذا الرجل وسعة صـــدره ، ولولا ذلك ما تمكن من التغلب على سائر الأمراء حتى سمى نفسه أمير المؤمنين »

قال : « صدقت ، انه واسع الصـدر كبير العقل . ورايت منـه انعطافا خاصا لأنه أصبح يعدنى من أهله . ورأيت قائده أيضا مثله »

فتنحنـح ابو حامد وقد ترجح ظنه فى تغير عزم حمـدون وقال : « اظنك أدركت الليلة خطر الأمر الذى نحن عازمون عليه ؟ »

قال : « قد أدركت ذلك من قبل ، ألم تدركه أنت أيضا ؟»

قال : « كيف لا وقد دان لهذا الرجل كل الامراء والقواد ، واصبح صاحب الكلمة النافذة ؟ . ان تنفيـذنا ما عزمنا عليه لا يخلو من الخطر »

فاستمسك حمدون بهذا التصريح ، ورأى ضعف العزيمـة فى أبى حامد فقال : « هل ترى الخطر يربو على الأمل فى النجاح ؟ »

قال : « أراه أضعاف أضعافه . ولكن ما العمل وقد رايتك عازما على استرجاع مجدك حتى فضلت الموت على التسليم ؟ » . قال هذا متعمدا جعل تدبير المكيدة لرغبة حمدون فى استرجاع ملكه

فهان على حمدون أن يتراجع بنظام فقال : « لكن ينبغى للرجل العاقل أن يقدر العواقب ويعمل بالرأى السديد ، وما لا يستطيعه اليوم قد يستطيعه غدا »

فتحقق أبو حامد ما توسمه فى صديقه من ضعف العزيمة ، فعمد الى استطلاع ما دار فى تلك الجلسة وهل قبل الخليفة ان يحضر الاحتفال بالزفاف فى معسكرهم فقال : « هل وافقت على أن تزف لمياء من معسكرنا ويكون هو حاضرا ؟ »

قال : « لم أطلب منه طلبا الا وافقنى عليه ؛ وقد وافق على هذا واكثر منه . ولذلك قلت لك : انه جاملنا واحسن وفادتنا . وهذا ما غير رأيى فيه »

فعمد أبو حامد الى المداهنة فقال : « بارك الله فيك . ان الفائدة مشتركة بيننا ، فاذا كنت قد رايت ما اراه انا أيضا من الخطر فى هذا العمل الآن واحببت أن تؤجله فانى أوافقك على تأجيله . ولكل أجل كتاب

فانطلت حيلة أبى حامد على حمدون وصدقه فقال : « يعجبنى حزمك وتعقلك ، فأنا أرى التأجيل أقرب الى الحكمة ريثما نتمكن من فرصة ابرك من هذه »

وكان أبو حامد لا يزال واقفا يتشاغل فى تدبير مكان يجلس عليه . فلما سمع قول حمدون ابتسم واظهر الارتياح وجلس الى جانبه ووضع يده على ركبته وقال : « الا ترى صعوبة فى حمل لمياء على تغيير رايها ؟ »

قال : «ان لمياء أكثر رغبة منا فى الرجوع عن قتل الخليفة،ولا سيما بعد أن تبرع بأن ينوب هو وامرأته عن الحسين فى تقديم المهر . ولا بد أن تكون أم الامراء قد اخبرت لمياء بذلك وهذا يزيدها تعلقا بها . والحق أن المعز وامرأته قد بالغا فى مجاملتنا واكرامنا . اظننى لم أخبرك بالمهر الذى عزما على تقديمه ؟ »

فقطع أبو حامد كلامه وهو يروغ كالثعلب وقال : « اظنهما وعدا بمال كثير وحلى ثمينة ؟ »

فضحك حمدون وقال : « هناك ما هو فوق المال والحلى ! . ان أم الامراء ستقدم للعروس احسن ما يرجى تقديمه لمثلها من الأثاث والحلى والثياب وستملأ بيتها بالجوارى والخدم وغير ذلك »

فقال ابو حامد وهو يظهر الاستغراب : «والخدم ايضا والجوارى؟»
فقال حمدون : « وفوق ذلك أن الخليفة نفسه سيهدى الى لمياء قصرا فى المنصورية تقيم به مع زوجها ، وسيعدها من أقرب الناس اليه »
فقال ابو حامد وهو يهز رأسه ويرفع حاجبيه استغرابا : « ان مثل هذا الرجل لا تقدم النفس على الحاق الاذى به ولكن . . »
فسبقه حمدون الى الكلام قائلا : « ولكن لمياء عالقة القلب بسالم ، واذا تم اقترانها بالحسين ربما تنغص عيشها »
فأظهر أبو حامد التألم من فكر خطر له كأنه ابن ساعته وقال : « سالم ! سالم ! دعني من سالم انه لا يليق بلمياء ، وهى لو علمت بما فعله لكرهته . حتى انا مع انه بمنزلة ابنى قد كرهته »
فاستغرب حمدون كلامه وقال : « وكيف ذلك ؟ »
قال : « أتعلم اين سالم الآن ؟ »
قال : « كلا . . أليس هو هنا ؟ »
قال : « لا أعلم مقره . ولكن يظهر انه فر من هذا المعسكر . أظنه خاف مغبة الامر الذى اقدمنا عليه فلاذ بالفرار »
قال حمدون : « لا اظنه يفر وهو رجل باسل »
فقال ابو حامد : « لا يليق بى ان اكشف عيبه ، لكننى لا ينبغى لى ان اكتمك أمرا بعد ما علمته من صداقتى واخلاصى ، وانا اغار على لمياء واجل مناقبها فلا اغشها » . وتنحنح كأنه يستنكف من التصريح بذلك الامر الفظيع
فقال حمدون : « ماذا جرى ؟ »
قال : « أتذكر خروج سالم مساء أمس فى اثر لمياء ليرافقها الى المنصورية ؟ »
قال : « نعم اذكر انه اراد أن يرافقها فتقدمت اليه الا يفعل »
قال : « ليته لم يفعل . لكنه أصر على الذهاب فعاد بالفشل والعار »
قال : « وكيف كان ذلك ؟ »
قال : « لقد عاد الى آخر الليل وقص على ما لقيه وحاول اخفاء الحقيقة لكننى قرأتها من خلال حديثه »
قال : « ماذا عمل ؟ »
قال : « ذهب فى اثر لمياء فوجدها مع رجل عرف بعد ذلك انه الحسين بن جوهر ، وكان فى انتظارها حتى يسير فى خدمتها الى مأمنها . فأنكر سالم عليه ذلك وأمرها ان تتركه وتسير معه ففعلت .

فلما اشرفوا على المنصورية خرج عليهما الحراس وكادوا يقبضون عليه ويسوقونه الى السجن لو لم يبادر الحسين الى انقاذه . فعاد والفشل يقطر من اردانه . وشفع ذلك الفشل بالكذب فاقتضب الحديث ولم يذكر فشله. ولكن أبا حامد لا تنطلي عليه هذه الألاعيب. فوبخته على جبنه فغضب وخرج من عندي ولعله فر خوفا من غضبي . ولو فتشت عنه في المعسكرين لم تقف على خبره ! » . قال ذلك مظهرا الاسف على ما جرى

فصدق حمدون كلامه وقال : «لله درك،انك تطلع على خفايا القلوب فلا أعجب من اطلاعك على سر سالم . ولكنني لم أعهد فيه شيئا من ذلك قبلا »

قال : « هذا هو الواقع ، ولعلك لو سألت لمياء عن هذا الأمر لأيدت ما قلته ،وربما آثرت ترك سالم لأنها شهدت فشله بنفسها »

قال : « غدا نبعث اليها ونستطلع رأيها »

قال : « حسنا تفعل وانا واثق بأنها توافقك على ما ذكرت . وعند ذلك تتحول مهمتنا الى ما هو أقرب لخير لمياء ونترك أمر الانتقام حتى تسنح لنا فرصة أخرى. وقد نرى من الحكمة السكوت عن هذا الامر كله اذا رأينا القوم يعرفون قدرك ولا يبخسونك حقك »

▭

ارتاح حمدون لرأي أبي حامد ، وكان على ثقة من رضا لمياء ، وقد عزم على اقناعها . فبات تلك الليلة وهو يحلم بما سيكون له من المنزلة الرفيعة بعد تلك المصاهرة ، ونسي أنفة آل مدرار وعز سلطانهم ! . والحقيقة انه لم يفطن لذلك العز لو لم يحرضه عليه أبو حامد الداهية . فقد استغل ضعفه وسرعة تقلبه فكان يسوقه الى طلب الانتقام . فلما رآه قد وافقه على السكوت والرضا بالخضوع فرح وبات تلك الليلة مطمئنا وعزم على ان يبعث في استقدام لمياء اليه ليبشرها بذلك الرأي الجديد .

وأيقظه الغلام للسحور قبل الفجر . ولم يكد يفرغ من سحوره حتى أتاه الحاجب ينبئه بقدوم رسول من صقالبة القصر فأذن في دخوله فاذا هو لمياء متنكرة ، فرحب بها وقبلها وقد توسم القلق في عينيها فعلم انها مبكرة اليه في شأن ما كان فيه أمس،فابتدرها قائلا: « أراك مبكرة يا لمياء ؟ »

قالت والدمع يترقرق في عينيها : « اني لم أذق مناما في هذا الليل »

قال : « ولماذا ؟ »
قالت : « اتسمح لى ان اقول ما فى خاطرى ؟ »
قال : « قولى . ولكنى احب ان تسمعى ما اقوله انا قبلا »
قالت : « تفضل »
قال : « قد كنت فى مثل قلقك امس ولكننى اهتديت الى حل جميل ارتاح له خاطرى »
قالت : « وما هو ؟ »
قال : « هل علمت انى تناولت طعام الافطار امس فى قصر امير المؤمنين ؟ »
فلما سمعت قوله « امير المؤمنين » استبشرت وقالت : « نعم علمت وقد سمعت ما دار بينك وبين الخليفة والقائد »
قال : « هل علمت بما عزم عليه الخليفة من اكرامك بالمهر وغيره ؟ »
قالت : « سمعت .. أمثل هذا الرجل ... »
فقطع كلامها قائلا : « دعينى اتم حديثى . ان ما لقيته من ذلك الاكرام وما آنسته من سعة صدره وطيب عنصره ، ومن حب ام الامراء لك ، قد اثر فى كثيرا »
فأبرقت اسرتها وضحكت والدموع تتدحرج على خديها من الدهشة وقالت : « هل اثر فيك ذلك ؟ هل يليق أن ؟ »
قال : « اسمعى ، انى وجدت الامر الذى كنا قد عزمنا عليه خيانة لا تليق بنا »
فلم تتمالك عن الاسراع الى يده فتناولتها واخذت تقبلها ودموع الفرح تتساقط من عينيها وقالت : « الحمد لله ، قد فرجت كربتى . صدقت يا أبتاه ان امير المؤمنين لا يستحق هذه الخيانة . ولو عرفت مقدار حب أم الامراء لى لازددت حرصا على حياتهما . بالله قل هل رجعت عن عزمك ؟ »
قال : « لقد رجعت من عند المعز وانا أحدث نفسي بذلك ، وكنت أحسب أبا حامد لا يوافقني فوجدته أشد رغبة منى فيه . لأنه راى ما رايته . وانت تعلمين ذكاء هذا الصديق وتعقله »
فتضاعف استغرابها لأنها لم تكن تتوقع هذا الفرج المزدوج ، وكانت عازمة على اقناع ابيها بما رأته ولو خالف أبا حامد . فلما رأت أبا حامد موافقاً له انبسطت نفسها وتولتها الدهشة لهذه المفاجأة فقالت : « عجبا هل وافقك ابو حامد على رأيك أيضا ؟ »
قال : « وليس ذلك فقط لكنه خلصنا من امر آخر يتعلق بسالم »

فلما سمعت اسم سالم انقبضت نفسها لتذكرها المشكلة التى لم تجد لها حلا . فقالت : « وكيف خلصنا من أمر سالم . أين هو الآن ؟ » . قالت ذلك وقد صبغ الحيـاء وجهها وعلاه قلق واضطراب

فقال : « نعم انه انقذنا من مأزق عظيم . وقد سألت عن سالم أين هو ، فاعلمي أنه ليس هنا . ولكنى قبل ان اقول شيئا اسألك سؤالا إرجو أن تصدقيني فيه »

قالت : « وما هو ؟ »

قال : « لما لحق بك سالم فى تلك الليلة ما الذى جرى له ؟ »

فتذكرت وصية الحسين بالكتمان وهى تضن بسالم أن يهان فقالت « ماذا جرى له ؟ لم يجر له شيء ! »

قال : « أصدقيني . انى قد اطلعت على فشله وجبنه فلا تنكرى شيئا »

فاستغربت تصريحه وقالت : « من قال ذلك ؟ لم يكن معنا احد سوى الحسين وهذا لم يقص عليك الخبر »

فقال : « ما ادراك أنه لم يقصه علينا ؟ »

قالت : « لأنه أمرنى بالكتمان »

قال : « لماذا اراد كتمان الواقع ان لم يكن فى ظهوره عيب يلحق بسالم ؟. قولى الصدق »

فلم تطعها نفسها على الانكار فقالت : « انه أساء التصرف مع الحسين لانه لم يكن يعرفه . ولكن من قص عليك الخبر ؟ سالم ؟ »

قال : « لا . ان سالما خجل من قول الصدق ، ولكن أبا حامد قصه على أمس . وقد استطلعه بفراسته ووبخ سالما عليه حتى أغضبه فخرج من المعسكر لا ندرى الى أين »

فصاحت رغم ارادتها : « ويلاه الى أين ذهب ؟ »

فقال حمدون : « يظهر انك لا تزالين على حسن ظنك به ، فى حين أن عمه نفسه قد رذله واحتقره ، وقد قال لى : انه ليس اهلا للمياء الشريفة الصادقة . والحق أن خطيبا يرجع من بين يدى خطيبته بمثل هذا الفشل لا يليق بها »

فقالت وصوتها مختنق : « أبو حامد قال لك ذلك ؟ »

قال : « نعم . اذا كنت لا تصدقين فانى أدعوه ليقول لك ذلك أمامك »

فغصت بريقها واطرقت وقد تولتها الحيرة وتحرك قلبها فتذكرت منزلة سالم عندها وهي تجله وتنزهه عن كل عيب ، فكيف تسمع هذا القول وتسكت فصاحت : « كلا ، ان سالما شهم لا يستحق هذه الاهانة . ان عمه قد ظلمه ! » . وشرقت بدموعها

فقال : « لله انت يا لمياء !. بل لله من الحب ما اقوى سلطانه !. ان ابا حامد هو الذي رغبنا في سالم ، ثم هو اليوم يقول : انه جبان لا يليق بك . ومع ذلك فان وصولك اليه لا يكون الا بقتل المعز وقائده فهل نعود الى عزمنا الأول ؟ »

فاجفلت وقالت : « لا . لا . ان أمير المؤمنين لا يستحق ذلك »

قال : « وهل جوهر يستحقه ؟ » . قالت : « لا »

قال : « وهل الحسين يستحقه ؟ »

فلما سمعت اسم الحسين شعرت باحساس يشبه ما شعرت به ساعة وداعه تلك الليلة ، اذ سحرها بمروءته وسعة صدره . فسكتت وتوردت وجنتاهـا وتسارعت دقات قلبهـا وغلبت على امرها . فاطرقت والدموع تتساقط من عينيها وابوهـا يراعي حركاتها ثم قال : « لا بد من قتـل الخليفة وقائده أو التخلي عن سالم الجبان »

فصاحت وقد تحيرت في أمرها : « لا هذا ولا ذاك . لا تقـل الجبان ان سالما . آه ويلاه كيف أسمع هذا القول فيه ؟! » . وعادت الى البكاء

وفيما هي في ذلك سمعت وقع خطوات مسرعة خارج الخيمة ، فالتفتت فاذا بأبي حامد قد دخل متزملا بعباءته وعلى رأسه عمامة صغيرة لاكها حول رأسه على غير نظام كأنه ناهض من الفراش

فنهضت لمياء احتراما له ، فأسرع اليها واقعدها وهو يقول : « لا تذكري سالما بغيك . انه ابن اخي ، بل هـو بمنزلة ابني ، ولكنني انكرته منذ أمس ، وهو غير اهل لك . وأنت اعلم النـاس بالسبب . ومع ذلك فهو ليس هنا . ومن كانت مثل لميـاء التي جمعت شجاعة الرجال الى لطف النساء ، فضلا عن صدق اللهجة واخلاص الطوية ، فيجب ان تتغلب على قلبها وتعمل بعقلها وكفى !» . قال ذلك وقعد بجانب حمدون

فقالت وهي تغص بريقها : « مهما يكن من الامر فاني لا اطيق ان اسمع مثل هذا القول في سالم . دعونا منه »

فقال ابوها : « وهذا ما ادعوك اليه الآن » . واظهـر الاهتمام وتطاول نحوها كأنه يريد ان يهمس في اذنها وقال : « هذا اخي

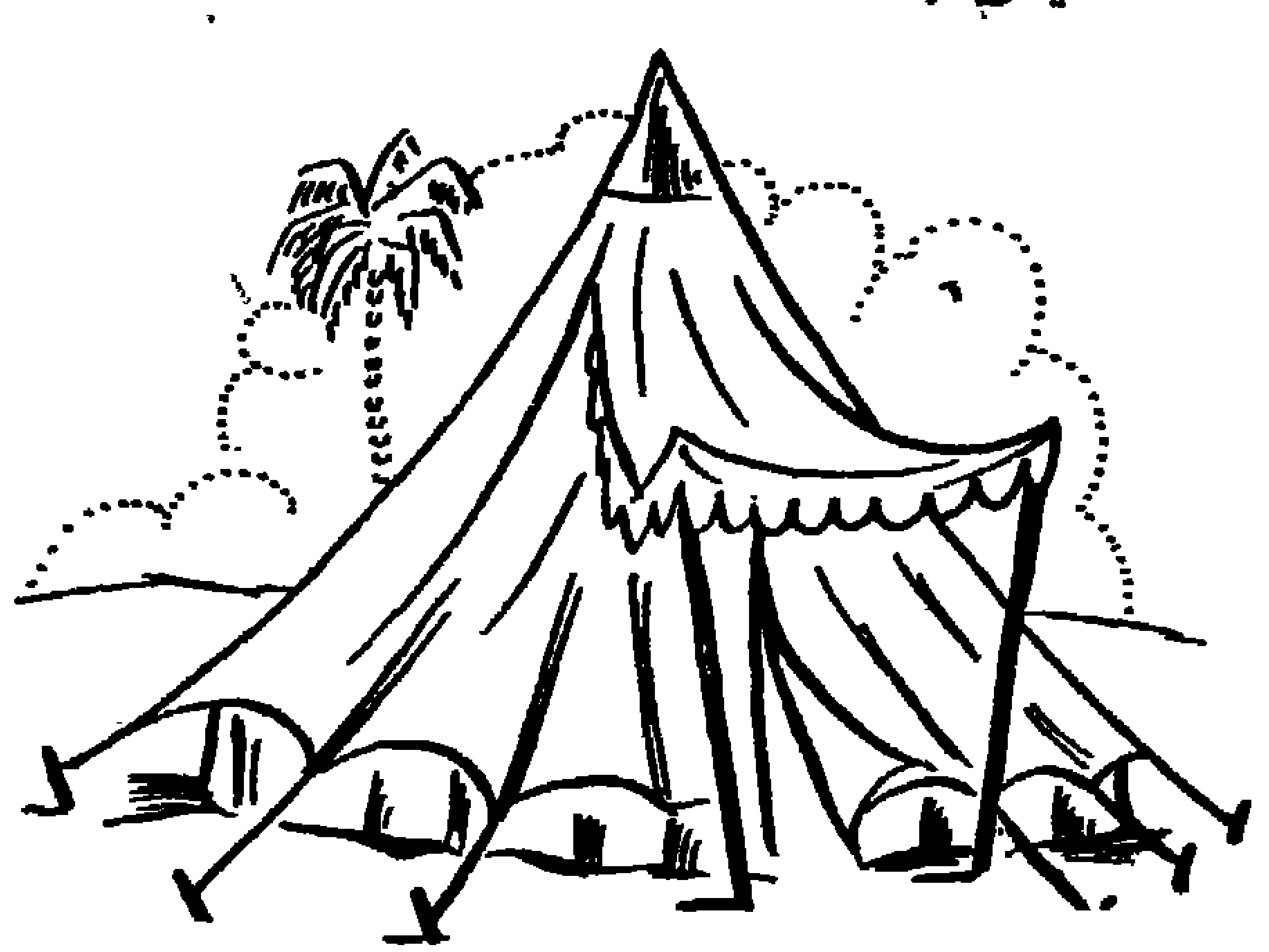
ابو حامد قد رأى مثل رأيي فى ان الأمر الذى كنا ساعين فيه لا يليق بنا تنفيذه ، فعزمت على أن ادعوك لاقص عليك ما جرى ، وكنت أعتقد أنك تتلقينه مسرورة فاذا أنت تجادليننا فى سالم . فاذا لم يعجبك رأينا الجديد عدنا الى القديم »

فخافت أن يغضب ابوها فيرجع الى سوء رأيه فقالت : « قد رضيت ، لكنني اتقدم اليكم الا تذكروا سالما بسوء . لنرى ما يأتي به القدر »

فقال ابو حامد : « نسكت عن سالم ولكننا فرحون بما اجتمع عليه رأينا ، وسنحتفل بقرانك فى هذه الساحة احتفالا لم يسمع بمثله ، ونزفك الى الحسين بن جوهر بحضور الخليفة ، واذا كان سالم اهلا لك فليأت ويأخذك بنفسه . وقد عهدنا المحبين يتفانون فى هذا السبيل ولا يفعلون ما فعله سالم من الفرار الذى تعلمينه . دعينا منه . لا احب أن أعود الى ذكره اكراما لك »

فسكتت وهي ترى الصواب فى ترك سالم بعدما رأته من تصرفه ، فضلا عن البواعث القاهرة التى ألجأتها الى قبول غيره ، لكن قلبها لم يطاوعها على الارتياح لهذا الاقتراح فجعلت قبولها مشفوعا بانتظار ما يأتي به الغد أو ما تدبره الاقدار

وانفضت الجلسة ، وعادت لمياء الى المنصورية تنتظر أمر أبيها فى القدوم اليه قبيل الزفاف . أما حمدون فاطمأن قلبه ووطن نفسه على الاكتفاء بالقربى من المعز لدين الله ولو الى حين ، وشفع قبوله أيضا بانتظار ما يأتي به الغد



فى كهف الساحرة

خرج ابو حامد من تلك الجلسة وقد تعبت نفسه لـكبته ارادته وتكلفه الظهور بغير ما يضمر . فما صدق أن عاد الى فسطاطه وخلا الى نفسه حتى تنفس الصعداء وقد هاجت ضغائنه وغلت مراجل حقده ، واخذ يزمجر كالأسد الجريح . وأمر خادمه الا يدخل عليه أحدا ، ثم جعل يخطر فى الفسطاط ذهابا وايابا مطرقا يعمل فكره ويستحث قريحته فى ابتكار حيلة ينال بها غايته . وقد عظم عليه رجوع حمدون عن قتل المعز . ولم يكن اسهل عليه من ان يقنعه بما له من التسلط على افكاره ، لكنه خاف أن يعيد الـكرة عليه على غرة فيبوح بسره فيعود ذلك وبالا عليه . فاظهر له ارتياحه الى رجوعه عن عزمه واضمر ان ينفذ غرضه بنفسه فيقتل المعز وقائده وقد يقتل حمدون وابنته وزوجها . فانه لا يبالى من يقتل فى سبيل ادراك اربه

قضى وقتا فى هذا التفكير وهو يخطر ذهابا وايابا ويناجى نفسه قائلا : « انا ابو حامد حامل سيف النقمة ، فما بالى اطمت ذلك الأمير المغرور فى الرجوع عن قتل المعز ؟ لقد اقنعته بأني اسعى فى هذا القتل اكراما له لأعيده الى سرير ملـكه فى سجلماسة ، وصدق انه من آل مدرار أصحاب هذه المملـكة العظيمة ، مع انه دعى فى نسبهم لأنهم انقرضوا منذ أعوام . ولـكنه حسبنى أقول ما أعتقد فوافقه قولي ورضي بذلك النسب وبنى عليه حقه فى امارة سجلماسة ، ووافقني أيضا على الفتك بالمعز وقائده . وأنا اعلم ضعفه وتردده وطالما خفت نكوله . فأحمد الله اذ غير رأيه قبل أن أكون قد حبكت مؤامرة القتل واطلعته عليها والا لباح بهـا لصديقه ومولاه المعـز فيذهب سعيى عبثا . أما الآن فانى أكتم تدبيرى عن كل انسـان فأقضى عليهم أجمعين .. أبا عبد الله ! سأثأر لك . نم هادئا ، سأجرى دماء أعدائك فى قناة حتى تدرك قبرك فترتوى منها كما أرتوى منها أنا هنا . فى فج الأخيار مستودع القوة ، اذا فرغت من قتـل هؤلاء الأعـداء عدت الى اتمـام مهمتى . ويل لهم من نقمتى ! »

وكان يناجى نفسه هكذا وهو يمشى ثم يقف ثم يمشى كالحيران ،

ويعبث تارة بشاربيه وطورا بلحيته ، أو يقضم أظافره بأسنانه حتى كاد يدمى انامله من عظم ما هاج فى خاطره . ولو نظر الى وجهه فى المرآة لراى سحنته مرعبة ، اذ أحمرت عيناه وانتفش شعره لكثرة عبثه به وقد أفسد نظام عمامته ولحيته وشاربيه كأنه خارج من عراك طويل

ثم تمالك وأخذ يصلح من شأنه ويتظاهر بالسكون وهدوء البال . ونادى غلامه وامره أن يسرج له الجواد ، ثم ركب والغلام فى ركابه والشمس فى الضحى . وكان قد تعود الركوب للرياضة فلم يشك فيه أحد . فلما صار خارج المعسكر أمر الغلام بالرجوع واوصاه بأن يكتم أمره وجهة سيره عن كل انسان

وساق ابو حامد جواده حتى أوغل فى الصحراء وقد حميت الشمس وانعكست أشعتها على الرمال فظهرت لامعة تتوهج . وارسل نظره الى الأفق ليتطلع الى الجبل الذى يقصد اليه فوجد السراب قد حجبه . ورغم ما تعوده من مشاهدة السراب فى البادية فى مثل تلك الساعة فقد خدع به . فكان يتوقع أن يرى فى اقصى ما يقع عليه بصره من الأفق جبلا مخروطى الشكل مميزا عما يحف به من الجبال . فأوهمه السراب أن هناك بحيرة تتراءى فى مائها صور أشجار تظهر مقلوبة وخيل اليه أنه يرى قوارب سابحة على سطح البحيرة

شغله ذلك المنظر برهة وان لم يصدقه ، وكلما اقترب من المكان انجلى له حتى وصل الى الجبل واكثره أجرد ، وفيه كثير من الكهوف والشقوق على شكل يندر بين الجبال . ثم دار بجواده فى منعطف صاعد يصعب سلوكه لضيقه حتى بلغ الى ما وراء الجبل وهو لا يسمع غير وقع حوافر جواده أو صهيله . وهناك أشرف على سهل رملى ليس فيه شيء من العمارة

وكان يتلفت الى الوراء حذرا من أن يكون أحد فى اثره حتى اقترب من مغارة عظيمة لها باب كبير منقور فى ذلك الجبل ، فتنحنح نحنحة خاصة فسمع مثلها فى قاع المغارة ، فساق جواده حتى وقف فى الداخل . فسمع مناديا يقول والصدى يردد قوله : « أدخل يا مسعود » . فترجل ودخل وهو يقود الجواد ، وكان هذا قد أحس برطوبة المكان فتوالى عليه العطاس ودوى صوت عطاسه دويا زاده اجفالا

وبعد مسير بضع دقائق انتهى الى بقعة منيرة فيها ما تقشعر له الأبدان من الحيوانات المتضادة فى طبائعها مما لا يخطر ببال كالثعابين والسحالى وأنواع الضب والطير والحمام بين سارح ومنساب وواثب .

وبينها حية مهولة قد التفت على جذع شجرة منصوب لها هناك وراسها يتلوى ذات اليمين وذات اليسار . وأخرى تنساب بين الاحجار الملقاة على الأرض . ولو لم يكن قد الف المجيء الى ذلك المكان ومشاهدة هذه المناظر ، واعتقاده أن تلك الدبابات لا تؤذيه لأنها مسحورة لاجفل وخاف . اما الجواد فلم يألف ذلك المنظر المريع ، فاضطرب وضرب الأرض بحافره وصهل وتراجع وأبو حامد ممسك بزمامه ينتظر ان يأتى من يتناوله منه . واذا بعبد طويل عريض برز من بعض اطراف تلك البقعة والقى التحية ، فرد عليه أبو حامد . ثم تقدم العبد وقبل يده وتناول زمام الجواد ومشى به الى مكان يربطه فيه

ومشى ابو حامد فى طريق تجنب فيه العثور بتلك الحيوانات والهوام حتى دخل دهليزا منقورا فى الصخر

ولو زار المكان أحد علماء الآثار اليوم لتحقق أن تلك المغارة من بقايا الأبنية القديمة فى العصور الغابرة ، وربما كانت فى الأصل قبورا او هياكل وتنوسى خبرها . حتى أصبحت مسكنا لكاهنة ساحرة كان ابو حامد قد عرفها منذ اعوام واستعان بها فى كثير من شئونه . وهى من خلفاء كهان البربر قبل الاسلام ، اتصلت اليها هذه الصناعة من أجدادها وهى تخاف الظهور فاستترت هناك

ولم يمش ابو حامد قليلا حتى دخل حجرة منقورة فى الصخر ايضا ، وفى صدرها دكة من الحجر قد تربعت عليها عجوز شمطاء بلباس غريب الشكل ، فيه من كل لون قطعة ، وشعرها ناصع البياض وقد انتفش واشتبك فأصبح منظرها مخيفا . وهى فى الأصل سمراء ولكن الشيخوخة جعلت لونها أقرب الى السواد ، وتجعد جلدها وغارت عيناها وتدلى حاجباها الغليظان فأصبحت عيناها كالمصباح يتراءى من وراء نافذة مظلمة ، وتحتهما أنف غليظ قصير فيه حلقة من العاج ادخلت فيه كالخزام منذ صباها على يد ساحرة كان لأهلها ثقة فى علمها واعتقدوا أن فى هذا الخزام اكبر اسباب مهارتها . وناهيك بما فى أذنيها من الأقراط وفى عنقها من العقود وحول زندها من الأساور وفيها الذهب والفضة والعاج . وقد جلست على جلد دب ، وألقت على كتفيها جلد نمر ، وفى حجرها ثعبان غليظ قصير تتلهى بملاعبته

فلما أطل ابو حامد عليها رحبت به بصوت جهورى وقالت : « أهلا بولدى مسعود . قد أطلت الغياب على ، أين كنت ؟ » . واشارت اليه بعصا طويلة كانت بجانبها أن يقعد على دكة بين يديها فقعد وهو يقول : « كنت فى عملى الذى تعلمينه »

فقالت : « قد آن لك الظفر يا مسعود ! » . وكان هذا هو الاسم الذي تعرفه به

فأبرقت اسرته لانه كان يؤمن بصــدق فراستها واقتدارها على كشف المخبآت ، حتى جعلها مستودع أسراره من ايام ابي عبد الله الشيعي . فقد كانا يأتيانها احيانا وكانت لها يد في جمع قبائل البربر الذين نصروه في تأييد دولة العبيديين . لذلك كان ابو حامد عظيم الثقة بها . وقد جاءها اليوم لأمر لا يخفى عليها لانها كانت مشرفة على أخباره . ليس مما ينقله هو اليها ولكن من جواسيسها المبثوثين في البلاد لمثل هذه الغاية . فلما قالت له ذلك استبشر واعتقد صدق قولهــا . فقد كانت متسلطة على افكاره مثل تسلطه على افــكار الآخرين فقال لها : « هل علمت ذلك يا خالة أم تسألينني ؟ »

فنظرت اليه شزرا وقالت : « ومتى كنت أستشيرك يا جاهل ؟ »

فضحك وجعل يعتذر لها عن جسارته . وكانت قحتها هــذه من أسباب تمكين هيبتها في نفسه . فمد يده الى جيبه وأخرج صرة فيها نقود دفعها اليها وهو يقول : « بارك الله فيك . صدقت ! لقــد دنا الفرج . اقبلي هذه الدراهم طعاما لأولادك هؤلاء » . وأشــار الى الثعبان الذي في حجرها يمازحها

فمدت يدها وتناولت الصرة وهي تهز رأسها وتقول : « لا تقل دنا الوقت بل قل : « لم يبق الا خطوة واحدة »

قال : « نعم يا سيدتي انها خطوة ولــكنني أراها شاقة ».

قالت : « اين صرت الآن ! »

قال : « سأجمع الرجلين في مكان واحــد ، وانما أود أن أعرف رأيك : هل يكون الموت بالسم ؟. أم بالخنجر ؟ »

فضحكت ضحكة دوى لها المــكان وكشرت في اثناء القهقهة فبانت نواجذها واصبح فمهــا كالمغارة المظلمة . ثم اطبقت فمها فجــأة وأطرقت ، وقد تغيرت سحنتها وأبرقت عيناها ومدت يدهــا الى علبة صغيرة بجانبها تناولت منها مسحوقا وضعت بعضه في فيها وجعلت تمتصه وتمضغه . ثم رفعت بصرها الى ابي حامد وكانت الصرة لا تزال بيدهــا فرمتها اليــه وقالت : « لا حاجة بأولادي لدراهمك »

فأدرك انها استقلت منحته ، فأخرج صرتين أخريين ودفع بهما اليها وهم بتقبيل يدها تزلفا واسترضاء وهي تدل وتترفع . لــكنها تناولت النقود وقالت : « ان طلبك لا يقدر بالمال وأنا أعينك فيــه اكراما لذلك المقتول ظلما . أنظر . سأعطيك مسحوقا تقتل الذرة الصغيرة منه فيلا كبيرا .. واذا لم تصدق جرب .. » . وضحكت

وليس ضحكها الا تكشير شفتيها . ثم أمرت الثعبان فى حجرها أن ينصرف فانساب الى وكره

فنهضت وهى تتوكأ على عكازها الغليظ وأشارت الى أبى حامد أن يمكث حتى تعود . فمكث على مثل الجمر وهو يتبع الساحرة ببصره وقلبه يختلج خوفا من ان يثب عليه الثعبان وهو يرى الموت فى نابيه رغم اعتقاده انه مسحور . وفاته ان أنياب الثعابين السامة قد نزعت . ولولا ذلك لقتلت صاحبتها لأنها لا ترعى ذماما . ثم استبطأ عودة الساحرة فقال فى سره : « اخشى أن تخوننى هذه الملعونة اذا اغراها سواى بمال كثير ؟ فيجب ان اقتلها قبل خروجى من هنا » . ولكنه يعلم ان لها اعوانا ربما كانوا مختبئين هناك فتردد ورأى ان يطمعها بالمال الكثير خوفا من غدرها

وبعد قليل عادت وفى يدها حق من الآبنوس فتحته وأرته مسحوقا ابيض وقالت : « احذر أن تمسه بيدك لأن ما يعلق منه بطرف اصبعك كاف لازهاق الروح » . ثم اغلقت الحق ودفعته اليه

فتناوله وقبل يدها وقال : « لا تظنى انى انسى فضلك ، فانى معد لك هدية ثمينة بعد الفراغ من هذا العمل »

قالت : « لا حاجة بى الى هدية . خذ هذا الحق وامض فى سبيلك »

فتناوله وخبأه فى جيبه وودعها وخرج . فرأى العبد فى انتظاره . فركب الجواد وعاد الى فسطاطه وهو يمنى نفسه بالفوز

□

وكان حمدون قد امضى النهار فى فسطاطه ، ثم ذهب عند الغروب لتناول الافطار على مائدة المعز ، وقد اخلص النية فى مصادقته . وهكذا كان يفعل كل يوم من أيام رمضان ولمياء فى قصر المعز معززة مكرمة وأم الأمراء تواليها بالاكرام والايناس

وقبل انقضاء رمضان ببضعة أيام أرتها القصر الذى أعد لها بعدالزفاف ، وقد ملأته بالرياش والاثاث والتحف والجوارى والغلمان . غير الهدايا من المجوهرات والثياب الثمينة

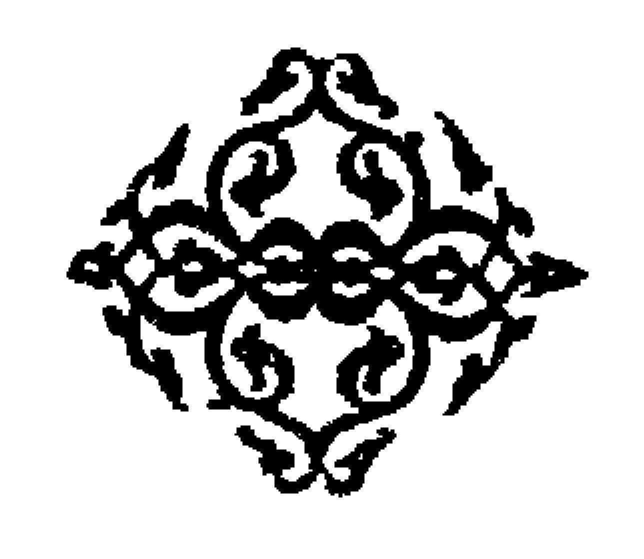
ولما دنا عيد الفطر اخذ حمدون يهيىء معدات الاحتفال فى معسكره ، عاملا برأى أبى حامد فأشار عليه هذا أن ينصب السرادقات على مرتفع فى وسط المعسكر . فنصبها على اكمات مشرفة على ساحة كبيرة ليلعب فيها الفرسان على الخيول . وفى مقدمة السرادقات سرادق كبير نصب فيه المقاعد للمعز وقائده ومن

يختار أن يكون معه من خاصته ، وسرادق للمطابخ تقام فيه الموائد وبينها مائدة خاصة بالخليفة وقائده وابنه وحمدون . وأقام على خدمتها صقلبيا من غلمانه ، كان من صقالبة قصور قرطبة ، وكان ابو حامد قد عاهده سرا على امور تطمح نفسه اليها وحمدون لايعلم . وزعم انه اختاره لهذه المائدة لمهارته فى اعداد الطعام لتعوده ذلك فى قصور المروانيين فى قرطبة . وكان هذا الصقلبى قد استسلم لابى حامد واصبح يتفانى فى تنفيذ اغراضه لا يبالى عواقبها

وكان لابى حامد سلطان عليه يشبه ما يعرف اليوم بالتنويم المغنطيسى ، ولم يكن يعرف يومئذ بهذا الاسم . فكان اذا أحب ان يستهوى هذا الغلام اختلى به وسقاه شرابا مخدرا ينعشه ويضعف ارادته ، ثم يأمره بما يريد فيصبح اطوع له من بنانه . وهو ينسب ذلك التأثير الى فعل الشراب والحقيقة انه يستهويه بقوته المغنطيسية حتى اذا امره بأن يأتى امرا ووقته له أطاع ونفذ

فلما عزم أبو حامد على ما نحن فيه استهواه قبل يوم الاحتفال ودفع اليه الحق وامره أن يضع منه شيئا فى الاقداح التى يسكبها للخليفة وقائده وحمدون والحسين بن جوهر

ونظر ابو حامد فيما يعمله اذا نفذت حيلته ، فأرسل خاصته الى مكان بعيد عن المعسكر من جهة الطريق المؤدى الى مصر اعد فيه ما يحتاج اليه من وسائل النقل ، حتى اذا نجحت مكيدته فر الى مصر حيث يلاقى فيها سالما ويتممان مهمتهما مع صاحبها بفتح القيروان وادخالها فى حوزة الخليفة العباسى اذ يصبح ذلك سهلا بعد قتل الخليفة العبيدى وقائده . لكنه ظل خائفا من لمياء أن تكون مطلعة على بعض سره ، وعلى مخابئه ومعداته فأعد لهلاكها وسيلة اخرى



موكب الخليفة

وظل ابو حامد مشتغلا باعدد مهمات الاحتفال . وقبل يوم الفطر ببضعة ايام نقلت لميساء الى فسطاط أبيها على أن تزف منه الى الحسنين فى المنصورية على العادة الجارية عندهم . وفى صباح يوم الفطر كان معسكر حمدون غاصا بالسرادقات والاعلام . وبعد الظهر خرج الخليفة بموكبه من قصره فى المنصورية وعليه لباس العبيد تحف به حاشيته من الأمراء والصقالبة . وقد امتطى فرسا من جياد الخيل ، ومشى بين يديه الامراء والقواد ، الا قائده جوهر فانه كان راكبا بجانبه

فلما اطل موكب الخليفة على المعسكر خرج حمدون لاستقباله ومشى بين يدى الجواد حتى وقف امام السرادق المعد لجلوسه . فترجل الخليفة وقائده ، وأومأ الى الحسين بن جوهر أن يصعد معهما الى دكة فى صدر السرادق مفروشة بالبسط والوسائد . وقد اوقدت مباخر الند والعود فى جوانب السرادق وغرست الاعلام ببابه

فجلس المعز فى الصدر وامر قائده ان يجلس الى جانبه والحسين بين يديه . وكان الحسين اكثرهم فرحا وقلبه يطفح سرورا لما رأى من فخامة حفلة زفافه مما لم يتيسر لسواه . كيف لا وقد خرج الخليفة المعز لدين الله من قصوره الى تلك الساحة اكراما له ، ولم يبق فى الامراء والقواد الا من حسده على هذه النعمة . وتقدم حمدون للترحاب بالخليفة عند جلوسه وأكب على يده كأنه يهم بتقبيلها اعترافا بما خصه به من الالتفات بتلك الزيارة ، وقد اخلص النية فى طاعته . ثم سأل الخليفة عمن يريد أن يجالسه فى سرادقه من الشعراء فاكتفى بابن هانى (متنبى الغرب) وكان حمدون قد أعد له ولأمثاله مقاعد فى جوانب السرادق

جلس المعز ووراء مقعده صقلبيان يحملان المذاب من ريش النعام كالمظلة فوق راسه . وهو ينظر الى ما يشرف عليه من السرادقات الاخرى . التى اعدت لجلوس خواصه ورجال حاشيته . واختص بعض أمرائه بالجلوس معه فى سرادقه . وامام هذا السرادق ساحة



« وخرج الخليفة بموكبه من قصره فى المنصورية وعليه لباس العيد »

فسيحة سويت أرضها وفرشت بالرمال للعب الخيل

ووقف حمدون بين يدى المعز وجعل يقدم له امراء سجلماسة واحدا واحدا ويسميهم بأسمائهم وبينهم ابو حامد واختصه عند التعريف بعبارات الثناء واعرب عن اخلاصه للخليفة . فأمر المعز ان يكون مع الجالسين فى السرادق . ولم يقصر ابو حامد فى تأكيد ولائه وولاء سائر امراء البربر لأبناء فاطمة الزهراء . وبالغ فى الاطراء وهو فصيح اللهجة قوى الحجة رغم ما فى سحنته من الغرابة . فأعجب المعز به واقبل عليه وأبدى ارتياحه لمجالسته

فلما استقر الجلوس بالقوم تصدى ابو حامد للترحيب بالخليفة نائبا عن صديقه حمدون فقال : « يحق لصديقى امير سجلماسة ان يفاخر سائر الامراء بما اوتيه من انعامكم . بل يحق له ان يفاخر الناس كافة اذ وطىء بساطه ابن بنت الرسول (صلعم) ولعل صديقى حمدون لفرط ما يشعر به من الغبطة لا يقوى على تأدية حق الشكر »

فأعجب المعز بحديث أبى حامد وقطع كلامه تواضعا وقال : « اننا نقدر الرجال اقدارهم ، ونحن نعلم فضل صاحب سجلماسة . ومن اخلص الصحبة لنا جعلناه واحدا منا ، وان مصاهرته لقائدنا الباسل جعلت له منزلة خاصة من نفسنا »

فتقدم حمدون عند ذلك وقال نحو ما قاله ابو حامد من عبارات الشكر وأكد للخليفة انه مخلص فى خدمته واستأنف الحديث قائلا : « الا يأمر امير المؤمنين بأن يشاهد شيئا من الالعاب »

فأحب المعز ان يزيده استئناسا به فأجابه باللغة البربرية وكان يحسنها وقال : « كثيرا ما سمعت بمهارة فرسان سجلماسة فى ركوب الخيل فهل يتيسر لنا ان نراهم يتسابقون ؟ »

فسر حمدون بهذا العطف وأسرع وهو يشير بيديه فوق رأسه اشارة الطاعة ، والتفت الى الوقوف بباب السرادق من الرجال واومأ باصبعه الى واحد منهم فهرع ولم يمض قليل حتى غصت الساحة بالخيول عليها الفرسان بالالبسة الفاخرة على زى اهل سجلماسة . واكثرهم باللثام على رؤوسهم يغطى معظم الوجه . وعلى اكتافهم البرانس الواسعة على نحو ما يلبسه أهل تلك البلاد الى اليوم . وعلى خيولهم السروج المتنوعة المصنوعة من الفضة او المنزلة بالعاج . وبينها خيول عارية لا سرج عليها وانما يزينها جمالها الطبيعى . على أن العارفين بطبائع الخيل لا يلتفتون الى ما على الافراس من الكساء وانما ينظرون الى صدورها واعناقها وأكتافها ويتفرسون فى عيونها . وكان المعز من اكثر الناس معرفة بالخيل

فاخذ يتأمل تلك الجياد ويجيل نظره فيها كما يفعل العارف الخبير
ووقف الفرسان صفا واحدا عند السرادق وجيادهم لا تكاد تستقر في مواقفها . ثم اشار حمدون اليهم فاخذوا في اللعب على ظهورها العابا مدهشة تشغل الخاطر لغرابتها . وفيها ما يبعث على الإعجاب الكثير . فكان احد الفرسان يسوق جواده باقصى سرعة حتى لاتكاد حوافره تطأ الارض ، ثم يعمد وهو في تلك السرعة الى أن يدور حوله حتى يلتصق ببطنه ثم يعود الى ظهره ، وكان آخر يركب جوادا ويسوق آخر الى جانبه وينتقل من ظهر احدهما الى ظهر الآخر وهما في أشد السرعة ، وغير ذلك . فلم يتمالك المعز عن اطراء تلك المهارة ووجه خطابه الى ابي حامد وقال : « حقا ان اهل سجلماسة من امهر قبائل البربر في الفروسية ، بل لقد قيل لي : ان بين نسائهم فارسات ماهرات يسابقن الرجال »

فتصدى القائد جوهر للجواب وقال : « نعم يا مولاي اني رايت ذلك منهن رأي العين » . والتفت الى ابنه الحسين وابتسم ابتسامة فهم الجميع منها انه يعني لمياء . فقال أبو حامد : «أظنك تعني لمياء» وهز راسه هزة الاعجاب فقال المعز له : « عرفنا لمياء عاقلة حكيمة وسمعنا ببسالتها في ساحة الوغى . فهل تحسن ركوب الخيل ايضا ؟ »

□

كان حمدون واقفا يسمع اطراء ابنته فلم يخطر له أن يعرض على الخليفة رؤيتها على الجواد . لكن ابا حامد أشار اليه أن يفعل فقال : « هل يريد مولانا أن تخرج لمياء على جوادها ؟ »

فقال المعز وهو يحك عثنونه : « لا نريد أن نزعجها اليوم لأنها فيما هو اهم من ذلك » . وضحك

فتصدى أبو حامد للجواب وقال : « انها لم تركب جوادا من زمان بعيد . ولعلها تسر اذا ركبت اليوم فقد لا يتيسر لها هذا فيما بعد »

فأشار المعز بالموافقة وقال : « نحب أن نراها ولكن لا نعلم هل الحسين يوافقنا أم لا ؟ » . والتفت الى الحسين وابتسم، فعد الحسين التفاته نعمة اخرى فأطرق خجلا

فوقف جوهر بالنيابة عن ابنه وقال : «انها أمة مولانا امير المؤمنين، وسيكون لها الشرف الاكبر في طاعته »

فأسرع حمدون الى فسطاطه ليبلغ لمياء ما جرى وهو يعلم ان خروجها في تلك الساعة من اصعب الامور لانها ساعة التبرج والتزيين. ولكنه لم يجدها بين أيدي المواشط والحواضن يزينها ويصلحن من

شأنها ، كما ظن . وذلك لأنها لما تحققت دنو الزفاف هاجت عواطفها الكامنة وعادت اليها ذكرى سالم حبيبها الأول . وكانت رغم ما ظهر من ضعفه وتردده قد بقيت ثابتة على حبه تخلص له الود . وانما كان قبولها بالحسين طارئا ظنته يمهد السبيل اثناء شهر رمضان الى حدوث ما يغير ويبدل . فلما جاء عيد الفطر ولم يطرأ شيء وانتقلت الى بيت ابيها لتزف الى الحسين اظلمت الدنيا فى عينيهـا وتحققت انها لا تلبث أن تصير زوجة لرجل ان كانت تحبه وتعجب بمناقبـه لكنها لا تزال ترى سالما أولى بقلبها منه. واعتقدت أن قبولها بالحسين يعد فى شرع المحبين خيانة . فوقعت فى حيرة بلغت اشدها فى صباح ذلك اليوم لما اتت الماشط لتزيينها، فاستمهلتهن وانزوت فى فسطاط ابيها تعمل فكرها

فلما جاء ابوها ليكلمها فى أمر الركوب أخبروه بما فعلت ، فذهب اليها فوجدها قاعدة على وسادة وجدها مطرقة والحيرة بادية فى عينيها فقال : « ما بالك يا لميـاء ، لماذا أنت هنا ؟ »

فهمت بالجواب ولكن الدموع سبقتها فسكتت

فدنا منها وأمسك بيدها فأحس ببرودتها وارتعاشها وقد بالغت فى الاطراق فلحظ الدمع فى عينيها فاستغربه . وهو لايقدر أن يتصور عواطف المحبين لأنه لم يذق طعم الحب فقال لها : « ما هذا الجنون . ما بالك ؟ لماذا تبكين ؟ »

فأفلتت منه وقالت وصوتها يختنق : « ابكى على سوء حظى .. يا لتعاستى ! »

فقال: «وأى تعاسة ؟ هل فى الدنيا فتاة اسعد حالا منك ؟ ستزفين بعد ساعات قليلة الى انبل الشـبان . وهـذا أمير المؤمنين قد جاء بنفسه ليكون زفافك على يده . أن الوفا من الأميرات يحسدنك على هذا الحظ وأنت تشكين من سوئه ؟ »

فقالت : « انى سيئة الحظ . دعنى الآن »

قال : « كيف أتركك وأنا قادم اليك فى مهمة من المعز لدين الله . فقد قيل له انك ماهرة فى ركوب الخيل فطلب أن يراك على الجواد »

فلما سمعت قوله شعرت بارتياح لأن خروجها على الجواد ينجيها من لجاجة الماشط . وكانت اذا ركبت الجواد اعتزت على صـهوته ونسيت كل مصائبها . هذا الى انها تطيع ما اراده الخليفة . فقالت : « كيف تخرج مثلى الى ساحة السباق ؟ ان هذا لم يسمع به ! »

قال : « ولـكن الخليفة أمر بذلك وامره لا يرد ، وقد أقره القـائد جوهر وابنه الحسين »

فلما سمعت اسم الحسين عادت الى هواجسها وندمت لأنهـا لم

تبت فى المسالة من اول الأمر ، يوم خاطبوها فى شأنها ، اذ كان ينبغى ان ترفض او تقبل أو تهرب ، بدلا من ان تظل تتردد شهرا كاملاحتى اذا ازفت الساعة ضاقت بها الحيلة

فلما طال سكوتها ظنها آسفة لخروجها من بيت ابيها ودخولهـــا بيت رجل غريب كما يصيب اكثرالبنات فى مثل هذه الحال. فامسكها بيدها وانهضهــا وهو يقول لهــا : « اركبى جوادك وانزعى الأوهام عنك . انك ذاهبة الى بيت اعظم من بيت أبيك وستزفين الى شاب هو اعظم شبان هذه الديار. قومى.هيا بنا . ان الخليفة فى انتظارنا»

فوقفت ورأت خروجها على الجواد خيرا من بقائها هناك ، وخطر لها انه قد يرميها فتقتل وتنجو من هذا التردد .. فأطاعته ولبست ثوبا يليق بالركوب ولفت رأسها بلثام تعودت أن تلفه به اذا ركبت . واتوها بجواد من احسن الجيــاد فركبته وساقته الى الساحة امام السرادق



فشل المكيدة

ما كادت لمياء تتوسط الساحة حتى خف اليها احد الغلمان المكلفين بالتقاط حراب المتسابقين ورماحهم ، أو مسح عرق الخيل وغسل وجوهها تنشيطا لها . وكان فى يده وعاء فيه ماء واسفنجة ، فأخذ يمسح وجه الجواد ولمياء على ظهره

ولم يكد الغلام يفرغ من عمله والخليفة يتوقع أن تبقى واقفة بجوادها تنتظر أمره ، حتى رآها أشارت اليهم اشارة الوداع كأنها راجعة الى خدرها . ثم عدا بها الجواد عدوا سريعا كأنه وخز بحربة فى جنبه ، حتى اختفت عن أعين من فى السرادق ، فظنها الخليفة والحاضرون قد فعلت ذلك عمدا على أن تعود رأسا الى فسطاطها . أما هى فأرادت أن توقف الجواد ولكنه ازداد عدوا على غير هدى كأنه اصيب بجنة . وعبثا حاولت كبح جماحه . ثم رأته يوغل بها فى الشعب والجبال وهو يلهث ويصهل ويهز راسه . فأرادت أن تحوله نحو المعسكر فلم يطعها . وبعد قليل التفتت الى ورائها فرأت انها صارت على مسافة بعيدة من المعسكر وقد توارت عنها المنصورية كلها ، والجواد ما زال يعدو بكل سرعته شرقا بجنوب

ومرت بها دقائق رهيبة ، وجالت فى ذهنها خواطر مختلفة ، فرأت أن جموح الجواد قاتلها لكنه قد ينقذها من ترددها ووخز ضميرها . وكانت الشمس قد مالت الى المغيب وأخذت الظلال تستطيل ، والجواد يوغل بها فى الوعر بعيدا عن العمران . وقد تحققت أنه أصيب بشىء كالجنون أو انه اهيج بوخز أو عقار مهيج . لأنه لم يكن يعدو فى طريق معروف ، بل كان تارة يهبط واديا،وطورا يصعد جبلا، والحجارة تتطاير تحت حوافره . ولم يقع بصرها على أحد تستنجده أو تستأنس به. فعزمت على النزول عن الجواد وهو راكض ـ وكانت قد اعتادت ذلك ولكنها لم تر أرضا رملية أو ترابية تثب اليها

وفيما هى تفكر فى ذلك اصطدم الجواد بصخرة فانتثرت هى عن ظهره بقوة الاستمرار وقذفت الى مسافة بضع أذرع . فوقعت فى حفرة هناك قليلة العمق فغابت عن رشدها

ولم تفق الا وقد أظلمت الدنيا وظهرت النجوم ، فلما ارادت

النهوض احست بألم فى جبينها ، ولكنهـــا لم تجد فيه كسرا . ثم أحست بشيء يسيل على عنقها فتلمسته فاذا هو دم بارد . فعرفت انها أصيبت بجروح ، فتجلدت وتماسكت . ثم توكأت على يديهـــا ونهضت مستندة الى جدار الحفرة. والتفتت الى ما حولها فرأت أنها فى بلقع . ولم تقو على الوقوف فسقطت . فأخذت تفكر فيما حـل بهاوجعلت تتحسس أعضاءها لتتحقق نجاتها من كسر أو صدع فوجدت انها سليمة ليس فيها شيء غير الرضوض . وشغلها اضطرابها عن خوف الحشرات المؤذية وهي كثيرة هناك

واخذت تناجي نفسها قائلة : « ألم يكن خيرا لى أن أصاب فى هذه الصدمة بكسر فى عنقى فأموت وأنجو من متاعبى وعذاب ترددى . ياربى ما العمل الآن ؟ »

ثم تزحزحت لتجرب قوتها فسمعت حفيف ثعبان ينســـاب بين الاحجار وراءها . فقف شعر رأســـها ، وهمت بالنهــوض لتخرج من ذلك المكان . ولم تكن تخاف الثعابين اذا رأتها على ضـــوء النهار لكنها خافت الغدر

وفيمـــا هي تهم بالنهوض ســـمعت وقع حوافر مسرعة فأسرع الثعبان فى الانسياب حتى توارى ، فالتفتت فرأت أشباحا كالفرسان يزيد عددهم على عشرة يسوقون أفراسهم . فحدثتها نفسهـــا أن تستغيث بهم ، ولم تكد تهم بذلك حتى سمعت صوتا يقول : « هل رأيتم أحدا ؟ لا شك أنها قتلت ! »

فأجابه الآخر : « لا شك فى ذلك لأننا رأينا الجواد مقتولا ، ولا يعقل أن تبقى هى حية ؟ »

وعرفت من صوت الأول أنه أبو حامد ، فغالطت نفســـــها حتى تتحقق الأمر ، فانزوت فى مكانهـــــا حتى اقترب القـــوم منها فقال أحدهم : « لقد تمت حيلتنا ولا يلبث ذلك الدعى أن يموت هو وقائده قبل أن يتناولا العشاء . انظروا هذا هجان قادم من طريق مصر . تربصوا له »

فأصبحت لميـــاء من عظم تأثرها تنتفض كالعصــــفور بلله القطر . وخانتها قواها اذ أدركت أن القوم أبو حامد ورجاله ، وأنه هو الذى دبر لها هذه المكيدة ، فجعل ذلك الغلام الذى غسل وجه الجواد يضع فى أنفه مادة كيمائية مثيرة ، ولم تشأ أن تظهر نفسها لهم والا قتلوها لا محالة ، وهى لا تريد أن تموت على أيديهم . فتجلدت وأخذت تنظر الى الجهة التى ظنت الهجان قادما منها . فرأت هجانا مسرعا كالبرق فاعترضه الفرسان وأوقفوه وسأله احدهم : « الى أين ؟ » . فقال : « الى المنصورية »

قال : « ومن تريد ؟ » . قال : « اريد امير المؤمنين المعز لدين الله »
قال : « وما الذى تحمله اليه ؟ » . قال : « احمل اليه رسالة من مصر »

قال : « اين هى ؟ هاتها .. اننا من رجاله »

قال : « لا ادفعها الا اليه . دعونى أمضِ فى طريقى » . قال ذلك وادار زمام هجينه فاعترضوه ومنعوه والحوا عليه ان يدفع اليهم الرسالة ، وقال له أبو حامد : « انك كاذب لست قادما من مصر ، لأن القادم منها لا يأتى وحده فى هذه الصحراء . أصدقنا والا قتلناك »

قال : « كنت قادما فى قافلة نزلت عند الغروب على ماء قريب ، واسرعت وحدى بالرسالة لانها مستعجلة لا بد من تبليغها قبل انقضاء هذا اليوم »

فقال أبو حامد : « لا شك انك كاذب بل انت لص او جاسوس . ونحن من رجال الخليفة فاذا كنت صادقا فادفع لنا الرسالة والخليفة الآن فى قصره لا تدركه وقد نام »

قال : « ان الرسالة خاصة به وقد امرت الا اعطيها لاحد سواه . وقد أوصيت ان ادفعها اليه حال وصولى واذا كان نائما ايقظته . فاذا كنتم من رجال الخليفة كما تزعمون فدعونى اذهب فى سبيلى »

فقال أبو حامد : « اعطنا الرسالة والا قتلناك »

فقال : « اقتلونى لن اسلمها الا لصاحبها »

ولم يتم كلامه حتى سمعت لمياء صوت حسام استل ، ورات احدهم ضرب الهجان بالسيف على راسه فسقط عن الجمل قتيلا . وصاح ابو حامد وهو يقهقه فى الضحك : « اوصل اليه الرسالة . او تمهل . انكما ستلتقيان فى السعير بعد قليل »

والتفت الى القاتل وقال له : « فتشه وهات الرسالة التي يحملها وادركنا فاننا مسرعون الى مكان القافلة » . قال ذلك وساق جواده وتبعه رجاله الا القاتل فانه ترجل عن جواده ووضع سيفه المسلول على الأرض بجانبه ليمسح عنه الدم بعد الفراغ من تفتيش القتيل فتحققت لمياء ان الرسالة تحمل أمرا هاما والا ما عرض الرسول نفسه للقتل ، واعجبت بأمانته وثباته . وهى كثيرة الاعجاب بالاخلاق العالية . فأسفت لموته وودت أن تنتقم له . وكانت قد تجددت قواها أو لعل حماستها نشطتها . فتحاملت على نفسها ، ونهضت متسللة من الحفرة نحو الرجل وهو مشتغل بالتفتيش . فلما دنت من السيف المطروح بجانبه تناولته باسرع من البرق واطلقته على عنق الرجل فقده وثنت عليه بضربة أخرى حتى تحققت موته ثم ازاحته ، وبحثت عن الرسالة فى ثياب الهجان القتيل حتى وجدتها ،

وهي اسطوانة من القصب الفارسي فيها الكتاب . وهمت بالجواد فامتطت صهوته وكانت قد عرفت جهة المنصورية منذ رأت الهجان متجها اليها فأدارت شكيمة الجواد نحو معسكر ابيها وقد عادت اليها قواها تحمسا في خدمة المعز لابلاغه الرسالة ، لاعتقادها انها لو لم تكن عظيمة الأهمية لم يؤمر حاملها بايقاظ الخليفة من نومه لتسليمها اليه وكانت قد تنسمت من كلام ابي حامد انهم أعدوا مكيدة لقتل المعز . فعلمت انها اذا أسرعت انقذت ذلك الخليفة الذي تحبه وتحترمه . فأحست بنشاط وفرح فهمزت جوادها نحو معسكر ابيها وهي لا تراه لكنها أدركت مما حولها انها متجهة اليه وقد نسيت حالها ولم تعد تفكر في الدم الذي يسيل على عنقها وكان قد تجمد وضمد الجرح فقد كان سطحيا

اما أهل المعسكر فكانوا عندما رأوا لمياء قد ركض بها الجواد توهموا انها عزمت على شوط تركض فيه فرسها ثم تعود الى فسطاطها

وكان ابو حامد قد دبر هذه المكيدة للمياء فجعل احد غلمانه بين الموكلين بخدمة الفرسان المتسابقين وأوصاه بأن يدس في انف جواد لمياء مادة حريفة تهيجه وتحمله على الركض بغير هدى فلا يستقر قراره حتى يصطدم ويتحطم هو وراكبه .

فلما تحقق من فعل العقار ورأى لمياء غابت عن اعينهم وسمعهم يتساءلون عن مصيرها أكد لهم انها ودعتهم ولا تلبث أن تعود الى فسطاطها ، واخذ يشغلهم بالحديث وطلب الى حمدون أن يأتيهم ببعض الالعاب الغريبة ليتسلى الخليفة برؤيتها مما لا مثيل له في القيروان . ثم احتال في الخروج من السرادق وكان قد أمر رجاله أن يهيئوا احمالهم ويخرجوا بها من المعسكر الى مكان يعرفونه بجانب الطريق المؤدي الى مصر .

فلما بعد عن المعسكر ركب هو ورجاله وأخذوا يبحثون عن لمياء ليتحققوا قتلها فلما رأوا جثة جوادها ملقاة قرب الصخرة التي اصطدم بها ، ولم يعثروا على لمياء ،تحققوا انها لا بد قد سقطت عنه حين تلك الصدمة فوقعت في حفرة وماتت

□

ولما دنا الغروب دون أن تعود لمياء ، دعا حمدون الخليفة الى العشاء الذي أعده له في سرادقه . وذهب الامراء الى موائدهم في السرادقات الاخرى ومشى الخليفة الى المائدة وقد اضيئت السرادقات بالشموع واحرق البخور في اطرافها ومدت الموائد في اواسطها وعليها انواع

الاطعمة . وذهب حمدون الى الطاهى القرطبى الذى تقدم ذكره وبالغ فى توصيته بأن يحسن الوقوف فى خدمة الخليفة

وقبل التقدم الى المائدة ازفت الصلاة ، فصلى الخليفة وصلى القوم مؤتمين به ، ثم جلس كل منهم فى مكانه . ولم يجلس على مائدة الخليفة الا هو وقائده وابن قائده ووقف حمدون يخدمهم بنفسه يساعده الطاهى المشار اليه وغلمان آخرون يحملون الأطباق من المطابخ . ووقف سائر الغلمان بأباريق الفضة والقوارير فيها الاشربة الهاضمة وقد شغل حمدون بأضيافه عن التفكير فى لمياء لاعتقاده انها عادت الى فسطاطها

وبعد أن قدمت الوان الاطعمة وهى كثيرة متقنة ، لاحظ الخليفة شدة العناية التى بذلها صاحب سجلماسة فى اكرامهم ، وظهر له الفرق بين الاطعمة التى تعود تناولها فى قصره وما تناوله تلك الليلة . فان العبيديين كانوا الى ذلك الحين لا يزالون على البساطة فى الطعام واللباس . أما حمدون فقد تعود وهو فى سجلماسة الترف والتأنق فى الأطعمة تقليدا للمروانيين فى قرطبة . وكان يبتاع أمثال آنيتهم للمائدة من الأباريق والأطباق من الفضة والذهب ، ويوصى الطهاة بمعالجة اللحوم والخضروات كما كان الخليفة الناصر يفعل فى قصر الزهراء

فلما أسر حمدون لم يعد يستطيع ذلك التأنق ، لكنه أوصى الطهاة تلك الليلة أن يبذلوا الجهد فى اصلاح الاطعمة ليدهش الخليفة ويؤكد له حفاوته واكرامه ، وذلك بأيعاز ابى حامد . وأوصى الطاهى المختص بأن يجعل فى جملة الأشربة الهاضمة الشراب الذى أمره أن يضع السم فيه

فلم يتمالك المعز لدين الله عن ابداء اعجابه بتلك الحفاوة وذكر على التخصيص لذة الاطعمة . فقال حمدون : « اننا تجرأنا على اخراج امير المؤمنين عن عادته فى الاقتصار على الأطعمة البسيطة التى اقتضاها تقشفه الى ما تعوده غيره من الملوك المنغمسين فى ملذات الدنيا »

فقال المعز : « قد علمنا ذلك ولا بأس به . ولكن كيف تأتى لك هذا وانت هنا ؟ »

فقال : « عهدت بذلك الى طاه من طهاة صاحب قرطبة وهو كثير التفنن » . واشار الى الطاهى بين الواقفين وقال : « هذا الطاهى ياسيدى أتقن من عرفت من الطهاة للأطعمة »

فالتفت المعز اليه فرآه فى انظف ما يكون من الثياب ، وقد حمل بيده ابريقا من الذهب وقدحا ، فابتسم ابتسام من عرف الحق

واغضى عنه وقال : « بمثل هذه الاطعمة اوهنت عزائم اولئك . لكن لا خوف علينا لأننا لن نعود الى مثلها بعد الآن . ما الذى تحمله بهذا الابريق ؟ لم يبق لنا طاقة على طعام »

فتقدم الطاهي وقال : « هذا ياسيدى شراب هاضم اذا تناولت منه قدحا لا تلبث التخمة أن تذهب وتشعر بالرغبة فى الطعام ثانية»

قال ذلك وصب منه فى قدح من الزجاج منقوش وناوله حمدون فأخذ هذا القدح وجعل يتفرس فيما عليه من النقوش ـ وهو من آنية ابتاعها من تاجر حملها من قرطبة ـ ثم نظر الى الخليفة وقال : « هذا الشراب الهاضم لم اذقه قبل الآن فانه من استنباط هذا الطاهى ولذلك ينبغى أن أذوقه قبل تقديمه لأمير المؤمنين » . وكانت عادتهم تذوق الطعام قبل ضيوفهم مبالغة فى الحفاوة بهم . ثم ادنى القدح من فيه وشربه واخذ يتلمظ ويبدى الاعجاب . وأمر الساقى فصب فى قدح آخر قدمه الى الخليفة ، وفى آخر قدمه الى القائد جوهر ، وثالث للحسين

وهم الخليفة بأن يتناول الشراب مجاراة لحمدون لان معدته امتلأت بالاطعمة والاشربة فأزعجه وقع حوافر جواد مسرع وقف بباب السرادق وعليه راكب ملثم ، والجواد يلهث لهثا شديدا وقد تصبب العرق منه من الجهد . وترجل فارسه وهم بالدخول بلا استئذان فمنعه الحجاب فلم يبال واخترق الصفوف ركضا وبيده اسطوانة من القاب الهندى حتى دنا من المعز . فخاف القوم أن يكون فى دنوه خطر على الخليفة . فنهض القائد جوهر والقدح بيده وامره أن يرجع، فلم يبال بل ظل مسرعا وبانت بقع الدم على لثامه فلما دنا من الخليفة دفع اليه الاسطوانة واشار باصبعه بأن يقراها حالا .- فتناولها منه وهو يتفرس فيه . وكان الحضور منذ دخل الرسول قد استأنسوا بثوبه خصوصا حمدون فانه عرف ابنته من ثوبها فصاح : « لمياء ! »

فلم تجبه فلما سمعه الخليفة يناديها انتبه وقال : « اهذا أنت يا لمياء ؟ » . قالت : « لا تعمل عملا يا سيدى قبل أن تقرأ هذه الرسالة »

فلما سمع حمدون صوت ابنته عرفها ، فأراد أن يدنو منها فخانته قدماه واحس بدوار شديد فسقط على الأرض . فاشتغل الغلمان باسعافه ونقلوه الى فسطاط قريب. والخليفة ينظر الى الكتاب وقال للمياء : « من أين هذا ؟ » . ولم يكترثوا لدوار حمدون لاعتقادهم انه اتخم من كثرة الاكل

فقالت لمياء : « هو من مكان بعيد ، وقد امر حامله ان يعطيه الخليفة حال وصوله . فاذا كان نائما يوقظه واذا كان متكئا لا يمهل

حتى يجلس قبل قراءته . وهذا ما جرانى على ازعاجكم وانتم على المائدة »

فدفع الخليفة الأسطوانة الى القائد جوهر ففضها واخرج منها لفافة عرف من شكلها أنها من مصر ، ولم يكن يعهد بينه وبين اميرها صداقة أو علاقة توجب مراسلة ، ثم دفع جوهر الرسالة الى المعز لعلمه أنه يحب أن يقرأ بنفسه . وكان القدح لا يزال فى يده فأدناه من فيه ليشربه قبل قراءة الرسالة فأسرعت لمياء وابعدت القدح عن فيه وقالت : « قد أمر حامل الرسالة ان يمنع امير المؤمنين عن كل عمل قبل قراءتها »

فاستغرب المعز ذلك واخذ يقرأ الرسالة والحضور ينظرون فى وجهه خصوصا جوهر . فراوا الخليفة قد تغيرت سحنته وبدا الغضب فى وجهه وخامره القلق . واما الحسين فكان فى اثناء ذلك لا يرفع بصره عن لمياء وقد أدهشه ما رآه من حالها والدم الذى لطخ نقابها وبعض ثوبها . ولم يجرؤ أن يخاطبها فى حضرة الخليفة ولا سيما بعد ان راى تغير وجهه . وأطال المعز نظره فى الكتاب وأعاد تلاوته وهو يستغرب ما فيه . وتطاول الحضور بأعناقهم لمعرفة ما حواه الكتاب لكنهم لم يجسروا على التماس ذلك

وبعد هنيهة أشار الخليفة الى جوهر وابنه ان يضعا قدحيهما، ودفع الكتاب الى جوهر ونظر الى لمياء وقال لها : «أين حامل هذه الرسالة؟ ادعيه الى هنا »

قالت : «أن حاملها قتل يا سيدى وكدت اقتل معه، ولكن الله اعاننى على الوصول اليكم وانا على آخر رمق »

فأشار الى من فى السرادق ان يخرجوا الا جوهر ولمياء وامر الحجاب ان يمنعوا الناس من الدخول حتى الامير حمدون نفسه ففعلوا . وكان جوهر مستغرقا فى تلاوة الكتاب لنفسه وقد أصابه من الدهشة اضعاف ما أصاب المعز . فلما خلا السرادق من الغرباء التفت الخليفة الى لمياء وقال : « اكشفى عن وجهك وقصى علينا خبرك . انى أرى عجبا وأقرأ أعجب منه »

فلم يسعها الا الطاعة فرفعت اللثام عن وجهها وقد لصق بعضه بعنقها من الدم وتغيرت ملامحها من عظم ما الم بها فى تلك الليلة وازدادت عيناها حدة وبسالة وابراقا

فقال الخليفة : « ما خبرك ؟ من أين اتيت ؟ »

فقصت عليه ما جرى لها من اوله الى آخره ، وهو يسمع ويستغرب وينظر فى اثناء الحديث الى قائده كأنه يستطلع رأيه فيما يسمعانه من الغرائب

وما اتمت لمياء حديثها ، حتى تاقت للاطلاع علـى فحوى الرسالة لكنها لم تجسر على طلب ذلك . اما الخليفة فانه كان يسمع كلامهـا ويتأمل ما يبدو فى عينيها من صدق اللهجة والبسالة . فلما وصلت الى ملاقاة ذلك الهجان وكيف قتلت قاتله وحملت الرسالة لايصـالها سريعا وهى مصابة بالجروح والرضوض لم يتمالك أن قال لها : « لله انت من فتاة باسلة وصديقة صادقة ! أتحبين أن تسمعى ما تضمنته تلك الرسالة . انى اعدك ابنة لى بل انا لا أتوقع من ابنتى أو ابنى أن يكون غيورا على مثل هذه الغيرة . اقعـدى » . وأشار الى مقعـد بجانبه فجلست وأمر جوهرا أن يقرأ الرسالة فأخذ يقرؤها وهـذا نصها :

« الى أمير المؤمنين المعز لدين الله من عبده يعقوب بن كلس

« أما بعد فانى ما برحت أذكر نعم المولى وفضله على وعلى آبائى، وأنا اترقب الفرص للقيام بما فرض على فى سـبيل نصرته لأنى وان كنت ذميا يهوديا فانى ارى وجه الحق فيما يتنازع عليه المسلمون فى امر الخلافة . وهى حق صريح لآل على ابناء عم النبى وابناء ابنته ، وانما اغتصبها غيرهم طمعا ، ثم عاد الحق الى نصابه بفضل أجدادك الكرام وسيتأيد على يد الامام المعز لدين الله . ولذلك رأيتنى لا ادخر وسعا فى نصرة الحق واترقب الفرص لكى اقوم بتأدية خدمة فىسبيل الامام وقد علمت بدسيسة أعدها المبغضون لايقاع الأذى به وبقائده اعزهما الله ــ علمت ذلك فى ليلة القدر الماضيـة . فلم انم قبـل أن كتبت هذا وبعثت به على جناح السرعة مع رسول غيور أوصيتهبأن يجد فى السير حتى يصل قبل فوات الفرصة . فارجو ان يكون قد فاز بذلك ودفع كتابى هذا الى المولى اعزه الله ونصره على أعدائه . وجلية الخبر يا سيدى انى قد علمت أن بين امرائك العائشين فىكنفك اناسا يسعون فى الكيد لك ولقائدك ، ويحرضون صاحب مصر على فتح القيروان والحاقها بخلافة العباسيين . وكنت لما سـمعت ذلك استبعدته اذ لا يعقل ان يسعى احد فى اقامة دولة بالية خربة مكان دولة جديدة زاهية. وحدثتنى نفسى ان اكتب اليكم فى هذا ،وترددت حينا حتى وقفت عرضا على امر اطار صوابى واقلقنى. وهو مابعثنى على كتابة هذا وقلبى يخفق خوفا من التأخير . علمت يا سيدى من مصدر وثيق ان صـاحب سجلماسة المقيم فى جـوارك ورجلا من خاصته اسمه ابو حامد اتفقا على الكيد لك ولقائدك الباسل على ان ينفذا الحيلة فى عيد الفطر المبارك وبعثا الى مصر شابا من رجالهمـا اسمه سالم يزعم انه ابن ابى حامد او ابن اخيه . وقد سمعت بأذنى هذا الشاب يقص خبر المكيدة على امراة يهواها فى حالة سكر بين . ولكى تتأكد صدق قولىفانا اذكر من أسماء الاشخاص الذين استعان

بهم على فعلته فتاة اظنها ابنة صاحب سجلماسة اسمها لمياء،تظاهر سالم بحبها ليستخدمها فى اتمام المكيدة لانها من المقربين فى قصر مولاى امير المؤمنين . ولا يطيعنى قلمى على التصريح بما دبر أولئك الملاعين ـ وقى الله مولانا الخليفة من كيد الكائدين . فاذا جاء كتابى هذا الى سيدى الخليفة قبل عيد الفطر فهو ناج باذن الله . والرسول رجل من المجاهدين فى الحق أنصار العلويين أيد الله ملكهم . وانا يا سيدى خادم مطيع لكم ابذل نفسى فى سبيل الحق ولا غرض لى غير ذلك والسلام »

ولم يبلغ جوهر آخر الكتاب حتى استولت الدهشة على لمياء واصابها ما يشبه الدوار مما سمعته عن سالم . وانكشفت لها مكيدته وتحققت انه كان يخادعها فاحست من تلك اللحظة بكرهه وتحول حبها الشديد الى كره أشد ، واصبحت لا تصبر على الانتقام لنفسها منه . وأطرقت كانها اصيبت بجمود وشعرت كأن الدم جمد فى عروقها واصطكت ركبتاها وتولتها الرعدة . وقد خجلت مما تلى عن دخولها تلك المكيدة . وكيف أن يهوديا يبعث بخبرها من مصر غيرة على الخليفة وهى فى قصر المعز وقد اطلعت على المكيدة منذ شهر ولم تخبره بها

مرت هذه الخواطر فى ذهنها فى لحظة سمعت فى اثنائها الخليفة يقول: « اين صديقنا صاحب سجلماسة ؟ »

فلما سمعته ينادى اباها تحققت انه سيساله عن المكيدة وخافت وقوعه فى الاذى لكنها سكتت لترى ما يكون . فاجاب احد الغلمان : « ان الامير حمدون نائم منذ نهض عن المائدة »

فقال وقد بان الغضب فى وجهه : « ايقظوه » . ثم التفت الى القائد جوهر وقال : « وابو حامد ؟ اليس هو الرجل الذى جاء به حمدون ؟ الى بالأمير حمدون لاساله عن المكيدة ، وانى لواثق ببراءته منها . ولكن لعله ينبئنا بشيء عنها »

وبعد قليل عاد الغلام الذى ذهب لاحضار حمدون وهو يجرى كمن اصيب بمس ،ثم تقدم الى المعز وقال وهو يغص بريقه :«لم يستيقظ يا سيدى » . واخذ فى البكاء . فلما رأت لمياء بكاءه أسرعت الى حيث رقد أبوها فوجدته مستلقيا على مقعد هناك وقد تغير لونه فازرقت بشرته وغارت عيناه وبانت أدلة الموت فى وجهه فصاحت : « وأبتاه ! ماذا جرى لك ؟ » . وجعلت تجس يديه ووجهه فاذا هو ميت لاحراك به . فاخذت تناديه . وسمع الخليفة بكاءها فاسرع ومعه القائد جوهر فلما رأيا حمدون تحققا موته وعجبا لما اصابه ، فامر المعز ان يؤتى بالطبيب حالا فاتى . وحالما وقع نظره عليه صاح : « مات

الأمير مسموما . ماذا شرب ؟ »

فقال المعز : « أكلنا معا من طعام واحد الا شرابا صبه الغلام لنا جميعا فشربه هو ولم نشربه نحن ولا تزال أقداحه مملوءة على المائدة ومشى الخليفة الى غرفة المائدة ودل الطبيب على الأقداح فتناول الطبيب قدحا منها وتأمل السائل الذى فيه قليلا وشمه ثم استخرج من جيبه مسحوقا وضع شيئا منه فى الشراب وجعل يتفرس فيه والجميع وقوف ينظرون . فلم تمض برهة حتى تحول ما فى القدح الى راسب أصفر وتغير لون الماء فصاح : « ان هذا الشراب سام . من صنعه ؟ »

فأمر المعز بالقبض على الطاهي الذى تولى أمر الوليمة فلم يقفوا له على أثر ، فأطرق المعز وأعمل فكره فيما رآه من الغرائب فى ذلك المساء فاتضحت له سلامة نية حمدون لأنه لو كان شريكا للمجرم وعلم أن الشراب مسموم لما تناوله ، فأسف لموته وأمر أن يجهز ويدفن . والتفت الى لمياء فاذا هى واقفة لا تحير خطابا كأنها أصيبت بجمود فقال لها : « تعالى يا بنية رحم الله أباك أنه مات مظلوما فأنت الآن ابنتنا . لا نقول ذلك تعزية لك ولكنك قمت على خدمتنا بما لا يأتيه الابن الغيور » . ومد يده وربت كتفها بحنو وعطف وقال: «هيا بنا الى قصرنا فى المنصورية وازيلوا معالم الفرح . وستجدين هناك أم الامراء وتأنسين بها »

فلم تجبه لكنها أخذت فى البكاء صامتة تناجى نفسها بأمور لا تخطر لأحد من الحاضرين فى بال . وامتلأت نفسها بغضب شديد على سالم وجاشت عواطفها ورأت فى نفسها ميلا شديدا الى الانتقام منه على خيانته ، فقد كان يظهر حبه حيلة الفتك بأعظم المحسنين اليها واليه

وأمر المعز أن تقوض الفساطيط والسرادقات ويؤجل العرس الى وقت آخر فالتفتت لمياء عند ذلك وهاجت أشجانها وقالت : « نؤجله يا سيدى حتى ننتقم من الكائدين »

فقال : « سننظر فى ذلك » . وأمر رجاله بالرجوع الى المنصورية فاشتغلوا بتقويض الخيام . وركب المعز وقائده ولمياء والحسين وسائر الحاشية الى المنصورية والغلمان يحملون المشاعل بين أيديهم

وفى صباح اليوم التالى احتفلوا بدفن حمدون وبكته لمياء بكاء مرا لسبب لا يعرفه سواها ـ لعلمها أنه ضحية سذاجته وسلامة نيته ودهاء ذلك اللعين أبى حامد

وعند وصولها الى القصر دعتها أم الامراء الى غرفتها وأخذت فى تعزيتها ، وبذلت لها الحنو والحب كالأم مع ابنتها ، فارتاحت نفسها وازدادت تعلقا بها . وأيقنت أنها كانت على هدى باخلاصها لها

بين لمياء والحسين

لم تطل ام الأمراء الحديث تلك الليلة مع لميـاء ، ولم يكن ابوها قد دفن بعد . وفي اليوم التالي بعثت اليها وأمرتها الا تفارقها وبالغت في اكرامها وتعزيتها وذكرت الحسين اثناء حديثها . فتذكرت لميـاء انها لم تشاهده ذلك اليوم ولا رأته بعد عودته معهم في المساء . وشعرت كأن بها ميلا الى رؤيته ، وودت ان تلتقي به في خلوة لتبث له أمورا تحب أن تساره بها بعد ما اصابها من موت ابيها وتغير قلبها عـلى سالم . فلما سمعت أم الامراء تذكره أحبت ان تغتنم الفرصة وتسأل عنه فغلب الحياء عليها فسكتت . ولحظت أم الامراء خجلها فقـالت : « ان الحسـين سيء الحظ يا لمياء . انظري ماذا اتفق له يوم عرسه »

فقالت وهي تغص بريقها : « بل أنا التعسة يا سيدتي لأني فقدت سندي الوحيد ابي فأصبحت يتيمة الأبوين » . ومنعها البـكاء من الكلام

فهمت بها أم الامراء وضمتها الى صدرها وقالت : « لست يتيمة يا لمياء و . . . »

فقطعت لمياء كلامها قائلة : « صـدقت يا سـيدتي ان من كان في كنفك وظل مولاي امير المؤمنين لا يكون يتيما . وكفاني حظا وشرفا أن يدعوني الخليفة حفظه الله ابنته . انها نعمة لم أكن لأحلم بها . . ولكن . . . »

فقالت أم الامراء : « لا لوم عليك اذا بكيت اباك ، انه كان ابا بارا »

فتذكرت لمياء ما كان يضمره أبوها من السوء للخليفـة وقائده فأحست بوخز الضمير فأرادت أن تصرف ذهنها عن ذلك الحديث لأنه يؤلمها فقالت : « رحمه الله . وأنا الآن لا اعرف ابا غير امير المؤمنين ولا أما سواك » . وسكتت وهي تتشاغل باصلاح شعرها وفي خاطرها شيء يمنعها الحياء من ذكره

وكأن أم الأمراء أدركت مرادها فقالت : « اني لم ار الحسين قادما معكم مساء امس ولا رأيته اليوم اين هو يا ترى ؟ »

قالت : « لا أعلم . رأيته ركب معنا من المعسكر ثم لم اره بعد »

فقالت أم الامراء : « أتظنين الخليفة أرسله في مهمة مستعجلة ؟ »

قالت : « انت اعلم منى بذلك »
قالت : « لا ريب عندى أن امير المؤمنين يحب أن يراك فهل نذهب اليه لعله يخبرنا عن الحسين » .
فسرها هذا الاقتراح واطرقت حياء . ولم تنتظر ام الأمراء جوابها فنهضت وامسكتها بيدها ومشت بها وهى تقول : « أن أمير المؤمنين وحده فى قاعته وقد أسر الى انه لا يريد ان يرى احدا من الامراء »
فقالت لمياء : « اذا كان راغبا فى الخلوة فلماذا نزعجه بحضورنا ؟ »
فابتسمت وقالت : « لا يزعجه حضورى أو حضورك ، وما اظنه اراد الخلوة للعمل . ولكنه أراد الراحة من عناء ما لاقاه بالامس ، وهو بلا شك كثير التفكير فيك . هيا بنا اليه . وانزعى حجاب الكلفة معه بعد ان دعاك ابنته ونعم الابنة »
وبعد هنيهة وصلتا الى غرفة الخليفة . فبادر الحاجب بالقاءالتحية فقالت ام الأمراء : « لعل أمير المؤمنين وحده ؟ »
قال : « كلا يا سيدتى انه فى خلوة مع القائد جوهر »
فأرادت ان ترجع واذا بالمعز يناديها من الداخل : « اذا كانت لمياء معك فادخلى »
فاجفلت لمياء عند سماع اسمها وتصاعد الدم الى وجنتيها فقالت لها ام الامراء : « الم اقل لك انه يسر برؤيتك أكثر من رؤيتى . انه لم يأذن بالدخول الا اذا كنت معى » . وضحكت . ووسع لهما الحاجب فدخلتا
وكان المعز جالسا على مقعد والقائد جوهر على وسادة بين يديه وعلى وجهيهما امارات الاهتمام . فلما دخلت أم الامراء ارادت أن تتراجع لوجود القائد فابتدرها المعز قائلا : « ان قائدنا كواحد منا ، وانت يا لمياء ابنتنا وهذا القائد ابوك ايضا » . واشار اليهما بالجلوس وكان القائد قد وقف عند دخول أم الامراء فاشار اليه الخليفة ان يجلس وقال له : « نحن فى أمر هام نحب أن نشرك القادمتين فيه . أنت تعلم تعقل أم الامراء . وهذه فتاتنا لمياء قد عرفت ذكاءها وغيرتها علينا فلا بأس من دخولهما فى الحديث »
فجلست لمياء مطرقة حياء لهذا الاطراء ، فقال لها الخليفة : « لاينبغى التهيب يا بنية بين يدينا وقد اصبحت ذات شأن فى امورنا لما عرفناه من تعقلك وصدق محبتك ، وقد شق علينا ما أصاب اباك ، ولكن ذلك أمر الله لا سبيل الى دفعه . طيبى نفسا سناخذ بثأره »
فلما سمعت ذكر الثأر تغير وجهها وبان الاهتمام فى عينيها ونظرت الى الخليفة وابتسمت شاكرة ، وقالت : « اشكر لك يا مولاى انعطافك

نحوى ، ولكنى أرى الواجب الاول ان ننتقم لأمير المؤمنين ، من ذلك الخائن الذى اراد به سوءا ، فوقاه الله منه »

فابتسم وقطع حديثها قائلا : « ان الفضل لك يا لمياء فى ذلك ، فهل يكثر علينا أن نثأر لابيك ؟ »

فاطرقت وسكتت ثم رفعت بصرها اليه وقالت : « لكننى أرجو من امير المؤمنين ان يدخلنى فى هذا الانتقام فانى موتورة » . قالت ذلك وقد قطبت حاجبيها وبان الغضب فى عينيها

فقال : « لم نكن لنكلفك شيئا من هذا يا لمياء . كفاك ما أصابك » والتفت الى القائد جوهر وقال : « انى لم أر الحسين اليوم اين هو ؟ »

قال : « ذهب فى مهمة مستعجلة من قبيل ما نحن فيه »

قال : « الى أين ؟ »

قال : « انفذته الى الجهة التى قالت لمياء انها شاهدت الخائن فيها . وبعثت معه بكوكبة من الفرسان لعله يدرك القوم قبل رحيلهم فيأتينا بذلك الغادر ويكفينا مؤونة البحث عنه »

فقال المعز : «بارك الله فى همتك وتيقظك ». والتفت الى ام الامراء وابتسم وهو يقول : « كيف نلام على تقديم هذا القائد وهو لا يغفل عما فيه راحتنا »

واطرقت لمياء وبان الارتباك فى وجهها فلحظ الخليفة ذلك فقال : « ما بالك ساكتة يا لمياء ؟ هل شق عليك ذهاب الحسين .. ولماذا؟ »

قالت : « كيف يشق على ذهابه فى خدمة هذه الدولة وصيانة أمير المؤمنين ان أرواحنا فداه »

قال : « انى ارى فى وجهك قلقا »

قالت : « أهمنى ذهابه لما أعلمه من كيد أولئك الخائنين ومكرهم »

فقطع القائد جوهر كلامها قائلا : « لا خوف على الحسين من غدرهم ، ولا يلبث ان يأتى ظافرا باذن الله . وعند ذلك يحق له أن يكون زوجا لك »

فخجلت وتوردت وجنتاها واحبت ان تصرح بما فى خاطرها فقالت: « هل يأذن مولاى امير المؤمنين بكلمة اقولها ؟ » . قال : « قولى »

قالت : « اما وقد سمعت من القائد الأكبر ما قاله ، فاتقدم الى مولاى ان .. » . واسكتها الحياء والتفتت الى ام الامراء كأنها تستنجدها ولم تكن ام الامراء تعلم مرادها فنظرت اليها تستفهمها فاسرت اليها انها تحب تأجيل عقد الزواج »

فقال المعز : « سمعت ذلك منها بالأمس .. اننا نؤجله قياما بواجب الحداد »

فقالت لمياء : « كلا يا سيدى انما اعنى انه لا ينبغى ان يتم شيء قبل الانتقام من الخونة » . وتشاغلت برفع كمها عن أناملها وظهر عليها انها لم تتم حديثها

فقال جوهر : « لا يمضي زمن طويل على هؤلاء الخونة حتى يصبحوا فى قبضتنا فهل تعنين غيرهم ؟ »

قالت : « نعم ، انهم كثيرون ولا يتيسر الوصول الى بعضهم الا بعد اشهر لانهم بعيدون . يجب أن يقوم صاحب مصر بتحمل عواقب هذه الخيانة » . واشرق وجهها بما بدا فيه من الحماسة

فادرك الخليفة انها تشير الى فتح مصر انتقاما من صاحبها فالتفت الى القائد جوهر وابتسم لانه كان يحادثه فى شيء من هذا قبل مجيء لمياء

فنظر القائد الى الخليفة وابتسم ابتسامة الظافر لانه كان يرى ان يعزم الخليفة على فتحها والخليفة يتخوف ويتردد فسره أن تقترح لمياء مثل اقتراحه

وادركت لمياء ذلك فقالت : « لا ينبغى لنا أن نتردد فى تحميل صاحب مصر عواقب هذه الخيانة فانه شريك فيها . ولا خوف منه فانه عبد ذميم (كافور) واحوال مصر مختلة معتلة »

فراى المعز الا يطول الحديث فى هذا الموضوع حتى يفكر فى الأمر ، وهو لا يقول قولا ان لم يكن مصمما على تنفيذه ، فقال : «ان أمير مصر لا يزال بعيدا ، وربما فكرنا فيه فى فرصة أخرى . ونحن نحب الآن أن نعجل بالعقد عليك للحسين »

قالت : « لا اظن راى الحسين مخالفا لرأيى ، لأنه ليس أقل غيرة على خدمة امير المؤمنين منى . أرجو من مولاى أن يجعل أمر مصر مقدما على كل شيء وأنا اضمن الظفر باذن الله »

فأعجب بتلك الحمية وقال : « ليس ضمان ذلك بالأمر السهل يا بنية . انه يحتاج الى المال والرجال »

فنظرت الى الخليفة وقد تغيرت سحنتها وبانت البسالة فى جبينها وقالت : « ان الرجال موجودون يا سيدى ومن كان فى قواده مثل القائد جوهر لا يخشى بأسا فقد فتح المغرب على اهون سبيل . وهل يظن امير المؤمنين فتح مصر اعظم مشقة ؟ »

فاستحسن المعز اطراءها قائده وقال : « هذا مسلم به ، ولكن ما قولك فى المال ، فلا بد منه لهذا الأمر ؟ »

قالت : « والمال موجود ايضا »

فبغت الجميع وتوجهوا نحوها بأبصارهم وقال الخليفة : « من اين

لنا المال الكافى ونحن لم نفرغ من الحروب الا بالأمس »

قالت : « قلت لمولاى أن المال موجود وسأبين له ذلك متى شاء . فاذا فعلت هل يبقى لديه مانع ؟ »

قال : « يبقى أن نستطلع حال المصريين ونتعرف شؤونهم . لأننا لم نعلم عنهم الا ما نتلقفه من افواه الناس »

قالت : « أما وقد اشركني أمير المؤمنين فى هذا الحديث ، فاستأذنه فى ان أقول انى اضمن له أيضا كشف ما يريد أن يعرفه من الأحوال »

فرأى الخليفة من لمياء فوق ما كان يتوقعه ولم يصدقه بحذافيره ، وانما حمله على محمل الغيرة كما يفعل الراغب فى أمر فيراه سهلا لرغبته فى الحصول عليه . وهم بأن يستزيدها بيانا فاذا بالحاجب دخل وقال : « ان مولاى الحسين بالباب »

فأمر بادخاله . أما لمياء فلما سمعت اسم الحسين خفق قلبها ولم تعد تخاف خفقانه للحسين . لكنها تماسكت والتفتت فرأت الحسين داخلا وعلى وجهه غبار السفر ، فعلمت أنه عائد من تلك المهمة

اما هو فحيى متأدبا ، فأمره الخليفة بالجلوس فجلس ووقع بصره على لمياء فخاطبت عيناه عينيها فتجاذب قلباهما . ونظر الى الخليفة فقال له المعز : « ما وراءك ؟ علمت من قائدنا انك تعقبت أولئك الخائنين ، فعسى أن تكون قد ظفرت بهم وحملتهم الينا »

قال : « حملت اليكم اناسا وجدتهم قرب المكان الذى كان الخائنون فيه ولكنهم ليسوا منهم »

فقال جوهر : « وكيف ذلك يا بنى ؟ »

قال : « قضيت ليلة أمس باحثا فى الأماكن التى ينزل فيها الناس أو القوافل فى طريق مصر حتى بعدت كثيرا عن القيروان فلم أجد أحدا »

فقطع ابوه كلامه قائلا : « اخشى أن تكون قد اخطأت الطريق »

قال : « بل هى الطريق ذاتها ، والدليل على ذلك انى رأيت جثة ذلك الرسول وبجانبها جثة قاتله كما قصت خبرهما لمياء . وأمعنت فى تلك الجهات وبثثت رجالى فى كل جهة فأخبرنى بعضهم فى هذا الصباح أنه رأى آثار معسكر . فسرت اليه فرأيت بقايا قوم كانوا هناك ورحلوا من عهد قريب ولعله معسكر أولئك الخونة ومع ذلك لم اقنع بما رأيت فواصلت السير الى عين ماء تنزل عندها القوافل فرأيت قافلة قادمة من مصر اتيت بأصحابها معى لعلنا نستفيد منهم ، اذ توسمت من زخرف فساطيطهم وخيولهم وسائر احوالهم ما لم اعهده فى سواهم من أصحاب القوافل »

فقال الخليفة : « أين هم ؟ » . قال : « أتيت برئيسهم معى وهو بالباب اذا شاء مولاى أمر بادخاله »

▭

صفق المعز مناديا الحاجب فلما جاء قال له : « ادخل الرجل الواقف خارجا » . وأشار الى ام الامراء ولمياء الى مجلس تقعدان فيه بحيث تريان وتسمعان ولا يراهما أحد

ثم عاد الحاجب ومعه صاحب القافلة وهو كهل عليه لباس المصريين من العمامة والجبة ، وقد اخذ الاضطراب منه مأخذا عظيما لهول ذلك الموقف . فقال له الخليفة : « لا تخف يا رجل واصدقنا القول . من انت ؟ » . قال : « انا يا مولاى من أهل مصر »

قال : « ما صناعتك ؟ » . قال : « تاجر رقيق »

قال : « ما الذى جاء بك الى هذا البلد ؟ » . قال : « جئت لابتاع رقيقا احله الى مصر . وهى عادتى فى كل عام أو بضعة أعوام ، آتى القيروان لهذه الغاية فابتاع المولدات الحسان وانصرف »

قال:«ولكن رسولنا يقول : ان حالكم تدل على غنى وترف لا يعهده فى تجار الرقيق الذين يفدون على القيروان »

فبانت البغتة فى وجه الرجل وأجاب : «نحن يا مولاى تجار رقيق كما قلت ، ولا اكذب »

قال : « هذا لا يكفى قل لنا كيف تجيئون فى الفساطيط الفاخرة وعلى الخيول المطهمة كأنما انتم من رجال الدولة او الأمراء ؟! »

قال : « اننا نبتاع الجوارى ، وننفق عن سعة لحساب من ارسلنا »

فقال الخليفة : « لمن تبتاعون الجوارى ؟ . ومن هو مرسلكم ، اصدقنى حتى تنجو من القتل »

فخاف الرجل واصطكت ركبتاه وارتعدت فرائصه وقال : « اننا نبتاع الجوارى لمولاتنا ابنة الاخشيد صاحب مصر »

فضحك الخليفة والتفت الى جوهر وقال : « الا ترى التلون فى كلامه ؟ يقول انه يبتاع الجوارى الحسان لابنة الاخشيد ولو قال انه يبتاعها للأخشيد نفسه لصدقناه » . والتفت الى الرجل وقال : «قل الصدق . لماذا لم تقل انك تبتاع الجوارى للأخشيد أو غيره من الأمراء ، هل خفت أن يكون عليك من ذلك بأس ؟ »

قال : « كلا يا مولاى بل انا اقول الصدق . لقد مضى على اعوام غير قليلة وهى تبعثنى الى القيروان لابتاع لها الجوارى الحسان بالأثمان الباهظة »

قال : « ماذا تفعل بهن ؟ »

فتوقف الرجـل عن الجواب وبان الارتبـاك فى وجهه لكنه خاف السكوت فقال : « لتستمتع بهن »

فدهشـوا جميعا واخذوا ينظر بعضـهم الى بعض فقال القائد : « تشترى الجوارى لابنة الاخشيد لتستمتع بهن هى ؟ »

قال : « نعم يا سيدي . وهذا مشهور يعرفه اهل مصر لانها كثيرا ما تنزل سوق الرقيق فى الفسـطاط على حمار فتسـاوم صاحب الرقيق على الجارية اذا اعجبتها وتشتريها لنفسها . فاذا لم تجد هناك ما يعجبها من الجوارى الحسان تبعث بى فى قافلة لهذه الغاية وتنفق فى سبيل ذلك الاموال الطائلة »

فلما سمع المعز كلامه استغرب واشار اليه ان ينصرف . فلما خرج التفت المعز الى قائده وقال : « كنت منذ قليل اتردد فى فتح مصر واخاف جندها . واما الآن فهان على امرها لان بلدا بلغ الترف من اهله حتى صارت المراة من بنات ملوكهم تخرج لتشـترى جارية تتمتع بها لا يخشى بأسهم لضـعف نفوس رجالهم وذهاب غـيرتهم وحميتهم انما ينقصنا المال » . والتفت الى لمياء

فتقدمت أم الأمراء واجابت عنها قائلة : « ان لمياء قصت على خبر المال الذى اشارت اليه وهو مضمون وانما يحتاج الى نظر خاص »

قال المعز مخاطبا لمياء : « انبئينا خبره يا لمياء »

فتقدمت ووقفت بين يديه وقالت : « ان المال يا سيدى مخبأ فى مكان بعيد . وكان عدوك قد خزنه هناك ليحاربك به . فجعله الله لك لتحارب به اعداءك وانت ظافر باذن الله »

استغرب الجميع قول لمياء ، وتطاولوا بأعناقهم لسماع حديثها فقالت : « ساقول لكم ما اعرفه . ولكن ارجـو من امير المؤمنين ان يجيبنى الى ما طلبته »

فادرك انها تشير الى تأجيـل الزواج فقال : « انا اوافقك ولـكن الشأن فى هذا للحسـين » . والتفت اليه فوقف الحسـين متأدبا . فقال له المعز : « ان لمياء الشجاعة الباسلة تطلب تأجيل العقـد الى ما بعد فتح مصر والتنكيل بالخائنين فماذا تقول ؟ »

قال : « هذا ما كنت اتمناه ولم اجسر على طلبه ، اما وقد طلبتـه هى فانا اوافق عليه واشترط ان اكون فى مقدمة المجاهدين »

فقالت لمياء : « كلنا سنكون فى مقدمة المحاربين . ولا أعنى استلال

الحسام او الهجوم على صفوف الاعداء فقط فان هناك اعمالا تسبق امتشاق الحسام سنأتى على ذكرها »

ثم وجهت خطابها الى الخليفة وقد أبرقت عيناها وبانت الحماسة فى طلعتها وقالت : « هل اقول يا سيدى ؟ »

قال : « قولى بارك الله فيك . والله ان كلامك ليبث الحماسة فى قلوب الرجال . فقد سهلت على اقتحام الاهوال فى سبيل الفتح . قولى »

قالت : « سمعت مولاى يقول اننا لا بد لنا قبل الاقدام على فتح مصر من شيئين هامين : الاول المال ، والثانى استطلاع احوال القوم. اما المال. فأقص عليكم ما عرفته عنه ولذلك حديث سمعته عرضا من ذلك الخائن القاتل ولم أكن افهم مغزاه الى أن ظهرت خيانته ـ علمت منه أن فى جبل ايكجان من بلاد كتامة مكانا يقال له فج الاخيار كان فيه بلدة تسمى دار الهجرة بناها ابو عبد الله الشيعى وخزن الاموال فيها »

فلما سمع الخليفة اسم المكان تغير وجهه اذ تذكر بلاء ابى عبد الله فى نصرتهم وكيف قتلوه . ولحظت لمياء ذلك فتجاهلت واتمت حديثها قائلة : « ولما قام ابو عبد الله بدعوة جدك المهدى وجمع كلمة القبائل على نصرته وتمكن من التغلب على أعدائكم اتى هذه البلدة فنزلها واقطعها كتامة ونادى بالامام المهدى خليفة وحمل اليه الأموال التى كانت مخزونة فى جبل ايكجان . وقد يكون اصر الخروج من الطاعة فضرب نقودا جديدة لم يذكر فيها اسم الامام المهدي وانما اكتفى بأن ضرب على أحد وجهى الدينار (بلغت حجة الله) وعلى الآخر (تفرق اعداء الله) وضرب على السلاح (عدة فى سبيل الله) ووسم الخيل سمة (الملك لله) وما زال حتى أتم الفتح واتى المهدى فى سجلماسة وسلم الأمر اليه . ويلوح انه ندم على عمله فبعث الاموال الى ايكجان سرا واختزنها هناك حتى يعود فيقلب ظهر المجن ويطلب الأمر لنفسه. فعلم الامام بذلك وما زال حتى قتله كما تعلمون ، وخفى عليه امر هذه الأموال فبقيت مطمورة هناك . ولعله أسر امرها الى ابى حامد اللعين فقام يسعى سرا فى اخراج الملك من ايديكم على ان يفسد قلوب القبائل عليكم ويستعين بذلك المال عند الحاجة . وقد فشلت مكيدته بعد أن أردت أبى وفر اللعين . والأموال لا تزال فى فج الاخيار . فاذا بعث المولى من يأتى بها اعانته فى نصرة الحق . هذا ما اعرف عن أمر الاموال »

ولم تتم كلامها حتى كلل العرق جبينها وبان الاهتمام فى محياها ،

والخليفة ينظر اليها ويتفهم كلامها . وقد أعجب بما كشفته من أمر هذا السر العظيم فقال : «بورك فيك يا لمياء اننا سنبعث فى طلب المال . ولكننى افكر فى مكيدة هذا الرجل وكيف انطلت علينا وعلى أبيك كل هذه الاعوام . ان فضلك فى كشف هذا السر يفوق فضلك و انقاذنا من القتل ، فقد اطلعتنا على مؤامرات خطيرة لو لم نعرفها لظلت الدولة فى خطر . أما الآن فسنتعقب الخائنين حتى نفنيهم ونأخذ أموالهم »

فاطرقت لمياء حياء لسماع الثناء ، وتصدى الحسين للكلام فقال : « هل يأذن مولاى فى أن أذهب فى طلب هذا المال ؟ »

قال : « لك ذلك ، ولكن هل تعلم ما يعتور هذا العمل من المشاق ؟ ان جبل ايكجان فى أواسط بلاد كتامة فى البادية والذهاب اليه عسير »

قال : « كل صعب يهون فى خدمة أمير المؤمنين »

فضحك الخليفة مستحسنا ، فقالت لمياء : « هذا عن المال ، اما عن استطلاع دخائل القوم بمصر فأنا أقوم به »

فدهش الخليفة لهذا الاقتراح وقال : « كيف ؟ . أليس هذا شاقا عليك ؟ »

قالت : « انه هين ، واستأذن مولاى فى الا يسألنى كيف أصنع ، وانما له على العهد لآتينه بالخبر اليقين »

فاستغرب القوم رغبتها فى كتمان سعيها ، ولكنها لم تدع لهم بابا للاستفهام فسكتوا فقال الخليفة : « لم يمر بى يوم اطلعت فيه على امور هامة مثل هذا اليوم . والفضل لك يا لمياء . بارك الله فيك وقواك فى نصرة الحق »

وتزحزح الخليفة فنهض القائد وانصرف ومعه الحسين ،وانصرفت أم الامراء ولمياء من جهة أخرى . وأدركت أم الامراء أن لمياء تحب الاجتماع بالحسين بعد ما حدث من الأمور الغريبة ، وأن الحياء يمنعها من طلب ذلك . فلما وصلت الى غرفتها بعثت أحد الصقالبة يدعو الحسين اليها وامرت لمياء بالجلوس . وأخذت تكلمها عما دار من الحديث فى تلك الجلسة وهى تريد استبقاءها حتى يأتى الحسين

وبعد قليل جاء الصقلبى وقال : « ان القائد حسينا أتى » . فما كادت لمياء تسمع ذلك حتى همت بأن تنهض وتنصرف . ولكن أم الأمراء أجلستها وقالت : « الى أين ؟ »

فقعدت وهى ترتجف ،واحست أم الامراء بذلك فقالت : « ما بالك ترتعشين لسماع اسم الحسين ؟ الا تزالين تفكرين فى سواه ؟ . ماذا جرى لمناظره القديم واين هو ؟ »

فامتقع وجه لمياء واخذها الغضب لتذكرها خيانة سالم . فاكتفت بالتنهد ولم تجب . فقالت ام الأمراء : « لم تذكرى لى اسمه بعد . فهل كان فى جملة اولئك الخائنين ؟ . أرجو ذلك فنكون قد خلصنا منه »

فلم تزد لمياء عن الاطراق وقد ترقرقت الدموع فى عينيها ، وتذكرت ان الحسين عرف سالما فى تلك الليلة . اما أم الأمراء فقالت: « لقد أبطأنا فى الاذن للحسين فى الدخول » . والتفتت الى الصقلبى وقالت : « يدخل »

ودخل الحسين وهو لا يزال بثياب الركوب كما كان ساعة وصوله، ولم يكن يتوقع أن يرى لمياء هناك وانما ظن ام الأمراء طلبته لبعض شئونها . فلما وقع بصره على لمياء اجفل كما اجفلت هى ، ووقف فألقى التحية على أم الأمراء ، ثم حيى لمياء عن بعد. فقالت أم الأمراء: « لا أرى أن تقفا بعيدين ، وأنا قد بذلت الجهد فى جمعكما فأنت ابن قائدنا وهذه لمياء ابنتى »

فتلعثم لسان الحسين عن الجواب وظهر الشكر والسرور فى ملامحه

وتقدم الى لمياء وقال : « ان لمياء ذات فضل كبير على لأنها انقذت ابى من القتل فلا أدرى بماذا اكافئها »

فقالت لمياء : « انى لم أفعل شيئا يستحق الذكر . ولم افعل ما فعلت الا خدمة لمولاى أمير المؤمنين الذى نفديه بأرواحنا . واراك لا تقل تفانيا فى خدمته »

فأشارت أم الامراء الى الحسين أن يقعد على وسادة امام الوسادة التى كانت لمياء جالسة عليها ، واظهرت انها ذاهبة فى أمر ذى شأن خطر لها فجأة

▭

جلس الحسين ينظر الى لمياء وهى مطرقة حياء،وقد مر فى خاطرها تاريخ حياتها منذ عرفت سالما ، وكيف علقت به حتى ابت أن تجيب طلب سواه . وتذكرت الليلة التى لقيت فيها حسينا لاول مرة وما ابداه من الشهامة فى سلوكه،وكيف انتهت ليلتهم بفشل سالم وخطر فى خاطرها ما قاله الحسين عند وداعها من كتمان أمر سالم وانه عرفه وعفا عنه . وكيف انها رضيت بالحسين طوعا لأمر سالم ، اصبح هذا اعدى أعدائها . فاحست بانعطاف الى الحسين سببـ .عجاب بشهامته ومروءته

مر ذلك كله فى خاطرها سريعا والحسين جالس بين يديها يهم بأن

يخاطبها ولا يعرف كيف يبدأ . ثم خطر له أن يعزيها فى فقد ابيهــا ويشجعها فقال : « لقد ساءني يا لمياء ما أصاب أباك الأمير رحمه الله ، ولكننا سنثأر له من ذلك الخائن . واعلمى انى غير راجع عنــه حتى اذيقه حتفه »

فرفعت بصرها اليه وقد ذبلت عيناها وقالت : «لقد عرفت شهامة الحسين من قبل . عرفتها عفوا ، ولا أنسى تلك الاريحة التى قيدنى بها . لا أنسى قولك وقد ادركنا ذلك الرجل الملثم واوشك ان يقع فريسة فانقذته وكتمت أمره ! »

فقطع كلامها قائلا : « لا ازال اريد كتمان امره دعينا منه . انما احب أن اعلم هــل للحسين مكان عندك ؟ » . قال ذلــك وعيناه تبرقان . فرآها ساكتة ولحظ دمعتين انحدرتا على خديها خلســة فأحس بنار اتقدت فى بدنه وهب جســمه كأنك صببت عليه ماء ساخنا . فندم على سؤاله مخافة أن يكون فى غير أوانه وهى فى حزنها على أبيها فابتدرها قائلا : « أظنني تسرعت وأنت لا تزالين فى شاغل بالحزن على أبيك فاصفحى عن جسارتى »

فمسحت عينيها بمنديل أخرجته من جيبها وقالت : « ان حزنى على ابى شديد ، لــكن كلامك تعزيةكبيرة لقلبى الكسير ! » . وتنهدت والتفتت نحو الباب كأنها تحاذر أن يدخل احد عليهما

فقال الحسين : « هل فى الدنيا أرق عاطفة واطيب قلبا من هذه الملــكة ؟. انى لا اظنها تركتنا وحدنا عرضا . فلا ينبغى أن نضيع هذه الفرصة . هل أعددت للحسين مكانا فى قلبك ؟ »

فتنهدت ورفعت بصرها اليه وهى تهم بالــكلام فلم تســتطعه ، فاطرقت وتشاغلت بمنديلها تطويه بين أناملها وقد تصاعد الدم الى وجنتيها . فلحظ ارتباكها فأراد مداعبتها فقال : « لم يكن عهدى بلمياء الفارسة الشجاعة ترتبك فى حديث مثل هذا . وانى اقــرأ الجواب فى عينيك . لم يغب عنى نظرك الى من قبل ونظرك الى اليوم. كنت أشـــعر انك تساقين الى حبى ، ربمــا لانشغال قلبك بسواى لا ادرى . اما الآن فانى أقرأ شيئا آخر فى عينيك . انما اطلب اليك ان تقولى كلمة واحدة فيما بيننا احملها ذكرى وعهدا فى غيابى وقد يطول . هل تقبلين الزواج بى ؟ »

فتنهدت ثانية وتجلدت وقالت : « انك تتكلم عنى وبلسانى . ان لمياء الفارسة الشجاعة كما تقول انما تكون كذلك فى حومة الوغى ، وأما فى هذا الموقف فانى اسيرة مسكينة . سألتنى سؤالا لا أجيبك عنه الا بعد أن تجيبنى عن سؤالى »

فاستبشر وقال : « سمعا وطاعة انى رهين اشارتك » . قال ذلك

وقد اخذ منه الهيام مأخذا عظيما

قالت : « انى اسألك هل تعاهدنى على التفانى فى نصرة المعز لدين الله حتى ننتقم له او نموت ؟ »

فاعجب بتفانيها فى حب المعز وكيف انها آثرت نصرته على كل شيء فقال : « نعم لله العهـد لاكونن طوع أمرك فى كل شيء . انى احبك يا لمياء واعجب بخلالك ومروءتك . كنت أحسبنى مؤديا ما يجب على فى خدمة امير المؤمنين فلما رأيت ما انت فيه من الغيرة عليه رأيتنى مقصرا عاجزا . ها قد اجبتك عن سؤالك فأجيبينى عن سؤالى »

قالت : « وما هو ؟ »

قال : « هل تعاهديننى على الحب حتى نلتقى ؟ »

قالت : « نعم انى أحبك وهذا يكفى . واما الثبات فى الحب حتى نلتقى فانه رهن بما نحن آخذون به من نصرة أمير المؤمنين . ونصرته هى واسطة عقدنا . وقد تعاهدنا على ذلك ويسرنى انك أخذت على نفسك الذهاب الى جبل ايكجان لاحضار الاموال المدفونة هناك . ولـكن ... » . وسكتت وقد ظهر التفكير فى عينيها

فقال : « ما بالك ؟ . ما الذى خطر لك حتى سكت ؟ . اظنك خفت على ما يعتور هذه المهمة من المشاق ؟ » . قال ذلك ونظر فى عينيها ففهم منهـا انها تعنى ذلك حقـا . فقـال : « لا تخافى على يا لميـاء انى لا اهاب الموت ولا سيما بعد أن زودتنى بتلك الكلمة الحلوة .. انها ستكون تعزيتى ومشجعتى »

فتنهدت وقالت : « آه من الحب ما أحلاه وامره !. ان الأحباء يبذلون كل غال ومرتخص ليجتمعوا اما نحن فنتعاهد على الفراق . ولـكن خدمة أمير المؤمنين واجبـة . انى اشـعر بفضله وعلى أن انصره و .. » . وسكتت وقد خطر لها أنها تطلب شيئا آخر غير نصرة امير المؤمنين . تطلب الانتقـام من ذلك الخـائن ، فلم يدرك الحسين مرادها ، وانصرف ذهنـه الى مهمتها فقال : « علمت أن مهمتى الى فج الاخيار لحمل ما فيه من المـال لـكننى لم افهم مهمتك »

فتحركت واعتدلت فى مجلسها وقالت : « قلت لأمير المؤمنين انى سأسعى فى استطلاع دخيلة المصريين واحوالهم . واما كيف افعـل فسر لا تغضب يا حبيبى اذا لم افشه لك »

فلما سمعها تناديه « حبيبى » اختلج قلبه فى صدره ونسى ما كان يبحث عنه ولم يشأ أن يستزيدها بل تهيب من الالحاح عليها . وكان

شعر بسلطان لها عليه فلم يجسر على تكرار السؤال فقال : « افعلى ما بدا لك وكفانى اللفظ الحبيب الذى سمعته من فيك فهو تذكار سأحفظه وقد لا يتاح لنا الاجتماع مرة اخرى قبل سفرى . ليت هذه الساعة لا تنقضى . ما الطف أم الامراء وما أكثر فضلها ! »

قالت : « سنذكر هذه الساعة المباركة ما حيينا . وعسى أن يكون اجتماعنا القادم فى مصر فى ظل أمير المؤمنين »

فأعجب بتعبيرها وكبر نفسها وشدة رغبتها فى فتح مصر واستهانتها بفتحها وقال : « أرجو أن نوفق الى ذلك يا حبيبتى .انها أمنية نتمناها جميعا ،ولا سيما أن اجتماعنا هناك لا نخاف بعده فراقا اذ تكون لمياء لى وأنا لها »

فقالت وهى تبتسم:«ألا تشعر بارتياح عندتفكيرك فى هذا النصر؟. الا يلذ لك أن تتصور راية المعز تخفق على ضفاف النيل وقد امتد سلطانه الى هناك ؟ . أما انا فأكاد أسكر اذ أتخيل جيش أمير المؤمنين داخلا الفسطاط وأسمع اهله يؤذنون بحى على خير العمل ويصلون على النبى وآله وسائر الائمة الطاهرين . ولا بد ان ينصر الله ابناء فاطمة الزهراء فانها بنت الرسول وهم أصحاب الحق فى الخلافة ، ولا بد أن يملكوا الدنيا كلها » . قالت ذلك وقد اشرق جبينها وابرقت عيناها كأنها فازت بنعمة لم تكن تتوقعها

فازداد اعجابا بروعتها وغيرتها وود لو كانت أم الأمراء حاضرة لتسمع فقال : « أنى احسبنى أخاطب ملاكا هبط من السماء وأعد قولك وحيا لا بد من اتمامه بأذن الله »

وفيما هما فى ذلك سمعا خفق نعال ام الامراء . وسمعاهاتخاطب أحد الغلمان فى شأن من شؤون القصر ، ايذانا بدخولها عليهما ، ثم دخلت وهى تهش لهما وبادرت الى الاعتذار عن عدم البقاء معهما . فقال الحسين : « كم كنت أحب أن تكوني هنا لتسمعى ما قالته لمياء. انت تعلمين تعلقى بمولاى أمير المؤمنين،فأنا صنيعته وعبده وابن‌عبده، لكننى رأيت من تعلق لمياء أضعاف ما اعرف فى أحد من الناس »

فضحكت أم الامراء وقالت : « تعنى تعلقها بك ؟ »

قال : « كلا انما أعنى تعلقها بأمير المؤمنين وتفانيها فى خدمته ، حتى كان أول ما اشترطت على أن نتعاهد على التفانى فى نصرته »

فقالت : « ألم اقل انك لا تجد مثلها فى القيروان ولا فى المغرب كله ؟ »

فأجاب على الفور : « ولا فى مصر أو بغداد »

فظلت لمياء ساكتة من الحياء ، فنهض الحسين وودع أم الامراء ،

ثم تقدم الى لمياء وقال : « استودعك الله الى أن نلتقى » . ومد يده لمصافحتها

فمدت يدها ونظرت اليه وصافحته وهى تقول : « فى مصر ان شاء الله »

فوقع قولها وقعا جميلا فى اذنى أم الأمراء ، وفهمت منه ما يكفى . فأكبت عليها وضمتها وقبلتهـــا وقالت : « بارك الله فيك يا ابنتى وحبيبتى ، لله انت من فتاة نادرة المثال ! »

ثم تحول الحســين وهو يقول : « ما احسبنا نجتمع ثانية قبــل سفرى الى فج الاخيار ، فاذا عدت فأين أراك ؟ »

قالت : « فى الفسطاط ، فى قصر مولاى المعز لدين الله على ضفاف النيل ان شاء الله ! »

فكان لقولها تأثير فى قلب أم الامراء لما ينطوى عليه من التفـــاؤل والاخلاص . والتفتت اليها ثم نظرت الى الحسين وابتسمت وقالت : « المراد أن تجتمعا وتسعدا معا وذلك غاية ما يرجوه أمير المؤمنين »

ثم اومأت الى الحسين مودعة فودعها وهم بالخروج وهو ينظر الى لمياء نظرة المحب الولهان ، ولم تكن هى أقل تأثرا منه لكنهـــا هاجت فيها عواطف الغيرة والنقمة فقالت له : « الى أين يا حسين ؟ »

فرجع اليها وقال : « الى فج الأخيار »

قالت : « وهل أنت على بينة من مكانه وحاله ؟ »

فبغت من هذا السؤال وأطرق خجلا لأنه كان عازما ان يسألها عنه فشغل بذلك الحديث ثم رفع راسه وقال : « أعرف قليلا وسأبحث واسأل . فهل تخبرينني عنه شيئا وهل تعرفينه ؟ »

قالت : « لا أعرفه لأنى لم أصل الى ذلك المكان ، لكننى أسمع أنه فى بلد بعيد فى أواسط الصحراء من بلاد كتامة . وان أصحـــابه قد احتاطوا لاخفاء الاموال وصيانتها »

فقطع كلامها قائلا : « لا تبالى يا لمياء شيئا من ذلك . فأن ما رايته من حماستك وغيرتك ومروءتك يصغر كل كبير ويهون كل صـــعب . كونى مطمئنة » . ومد يده لمصافحتها وهو يقول : « أعود فأودعك ثانية واطلب اليك ان تفكرى فى احيانا . وهذا يكفينى لنجاح مسعاى » .

ثم ودعها وخرج وهى تقول : « سر فى حراسة المولى فانه آخذ بيدك فى نصرة الحق وكبت الظالمين »

▭

ارادت بعد خروجه أن تودع أم الأمراء فأمسكتها هذه واقعدتهـــا ، فقعدت وهى تنظر اليها كأنها تستفهمها عما تريد . فقالت أم الامراء :

« هذا الحسين قد عرفنا وجهته وخطته اما انت ف . . »

فقطعت لمياء حديثها وقالت : « استأذنك يا سيدتى فى الا تسالينى عن ذلك »

قالت : « ولماذا هذا التستر ؟ »

قالت : « أرى فيه فالا حسنا . وماذا يهمك اذا عرفت خطتى أو وجهتى ؟. وانما يهمك أن آتى مولاى أمير المؤمنين بأخبار تلك الدولة»

قالت : « ولكن أمرك يهمنى لئلا تلقى بنفسك فى تهلكة لما فى مهمتك هذه من الأخطار »

قالت « لا تخافى يا سيدتى ، لأن نصير أمير المؤمنين سلالة بنت الرسول لا بد من أن ينجيه الله وينصره على اعدائه . غير أنى اتقدم اليك بأمر »

قالت : « قولى ماذا تريدين »

قالت : « أن يعقوب بن كلس اليهودى المقيم بمصر ارسل تلك الرسالة المستعجلة الى سيدى المعز لدين الله فهو صاحب فضل كبير . اليس كذلك ؟ »

فحنت أم الامراء راسها موافقة وقالت : « نعم انه صاحب الفضل الأكبر ولولاه لنفذت حيلة ذلك الشرير »

فقالت : « الا ترين أن يكتب أمير المؤمنين كتابا يشكره حتى يبقى على خدمته ؟ »

قالت : « صدقت واظنه يفعل »

قالت : « مع من يرسل الكتاب ؟ »

فانتبهت أم الأمراء لغرض لمياء من هذا السؤال فقالت : «لا أدرى، واظنه يرسله مع أحد غلمانه فى قافلة أو بطريق آخر . وهل يهمك هذا الأمر ؟ »

فقالت وهى تحك وراء اذنها : « لا . . لكن . . » . واطرقت

فقالت أم الامراء : « قولى يا لمياء ما يجول بذهنك . لا تخفى على شيئا »

قالت : « اريد أن اسر اليك أمرا يهمنى أن يظل مكتوما ، هل افعل ؟ »

قالت : « افعلى ولا تخافى بعد أن ارتفع حجاب الكلفة من بيننا وانت بمنزلة ابنتى . بل لا أرى ابنة أو ابنا يؤثر والديه بما تؤثريننا به يا لمياء » . قالت ذلك وبان الاهتمام فى جبينها

فابتسمت لمياء وابرقت عيناها عند سماع ذلك الاطـراء وقالت : « ان سرى يا سيدتى هو فى الطريق المؤدى الى خدمة أمير المؤمنين »
قالت : « قولى يا عزيزتى »
قالت : « أحب أن أكون أنا رسول أمير المؤمنين الى يعقوب هذا . ولا أريد أن يطلع سيدى الخليفة على ذلك »

فاستغربت أم الامراء هذا الطلب وقالت : « وما هـو غرضك من هذا التكتم ولماذا ؟ »

قالت : « لعلمى أن السر اذا جاوز الاثنين شاع ، ولولا حاجتى الى عونك فى نيل الكتاب لكتمت هذا عنك . ولذلك أتقدم اليك بالحـاح ان تكتمى خبرى . وقد قلت لأمير المؤمنين انى سأسعى فى استطلاع حال مصر بأسلوب لا أحب أن يعرفه أحد . وكنت اود أن افعل ذلك من غير أن أكاشفك بأمر الكتاب. فلا تسأليني يا سيدتى عن الأسلوب الذى سأتخذه فى البحث . انما اتقدم اليك أن تستحثى سيدى أمير المؤمنين على كتابة الكتاب ، واجعلى أنك سترسلينه مع أحد الغلمان او أوصى الرسول اذا أخذ الكتاب أن يأتى به اليك او كما تشـائين . فالغرض أن تعطينى الكتاب وتطلقى سبيلى ولا يعلم أحد بسفرى »

فضحكت أم الامراء وقالت : « انى لا أحتاج فيما اطلبـه من المعز لدين الله الى حيلة أو وسـيلة وسأفعل ذلك من أجلك . ولكننى سأشتاق الى رؤيتك فقد تعودت جوارك و .. » . ودمعت عيناها

فأثر ذلك المنظر فى لمياء وأحست بشيء يجذبها الى هذه المرأة ، فلم تتمالك عن الترامى على كتفها وقد سبقتها دموع الامتنان . فضمتها أم الامراء الى صدرها وقبلتها وقالت لها : « عسى أن تعودى سالمـة ظافرة ويعود الحسـين أيضا فائزا فتزفان فى هـذا القصر وننسى ما قاسيته من الشقاء »

فتجلدت لمياء واعتدلت وقد بانت الحماسـة فى عينيها وقالت : « انما يكون ذلك فى الفسطاط باذن الله »

فأعجبت أم الامراء بغيرتها ، وضحكت وضمتها ثانية وودعتهاعلى أن تهيىء أمر الكتاب

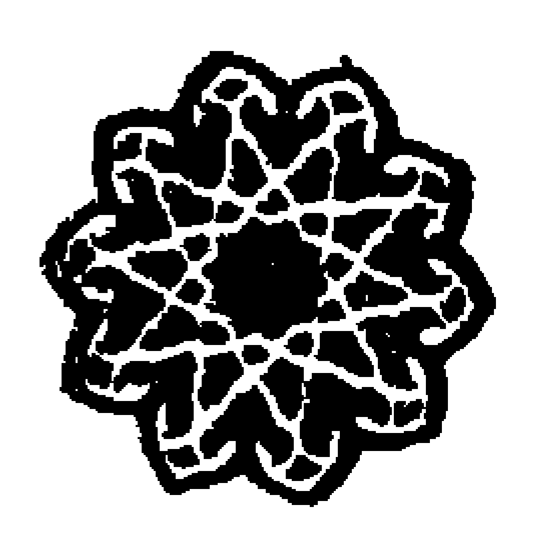
وانصرفت لمياء الى غرفتها واخذت تفكر فيما هى مقدمة عليـه من الامر العظيم ــ سـفر وخطر وبعد وشوق ــ لكنهـا تجلدت واستحثت شجاعتها وقالت فى نفسها : « لا بد لى من الصـبر حتى أنتقم لأبى،وأثأر لنفسى من ذلك الخائن الذى خدعنى وأراد أن يجعلنى ضحية مطامعه »

وسكتت وأطرقت وهى واقفة أمام المرآة تنزع ثيابها . وتصورت

ما كان لسالم من المنزلة عندها فخفق قلبها وسبق الى ذهنها حسن الظن به فقالت : « قد يكون ابن كلس منافقا او مخطئا . هل يكون سالم خائنا الى هذا الحد ويخدعني بضع سنين ؟ . لا . لا . اذن كيف افسر عمله ؟ ولو كان صادقا فى حبه لما وافق على الفتك بأبى . ولكن سأتحقق ذلك بمصر قريبا »

وكانت قد فرغت من نزع ثيابها فاستلقت على الفراش للراحة والتأمل ، واجلت الحكم فى كل شيء الى ما بعد وصولها الى مصر

وبعد بضعة أيام اتتها أم الامراء بكتاب المعز لدين الله الى يعقوب ابن كلس . فتناولته وودعتها سرا وكان وداعا مؤثرا . وكانت لمياء قد أعدت كل ما يلزم للسفر من الخدم والأولاد ، لأن الطريق من القيروان الى مصر بعيدة الشقة لا تقطعها الا القوافل . وقد أعدت شبه بريد مؤلف من أربعة جياد مع ما يلزم من الخدم والحراس ، وجعلت أن ذلك البريد يحمل غلام أمير المؤمنين الى مصر . ولما اتاها الكتاب تنكرت بثوب غلام صقلبى وركبت ولا يشك من رآها فى انها غلام الخليفة يحمل رسالة فى مهمة . وسار الركب قاصدا الى مصر



فى الفسطاط

كانت الفسطاط عاصمة الديارالمصرية ومقر الامارة منذ بناهاعمرو ابن العاص . فلما تولى احمد بن طولون جعل مقره فى القطائع . ثم ذهبت الدولة الطولونية وافضت الامارة الى محمد الأخشيد فجعل مقره الفسطاط ، فعادت الى رونقها وزادت عمارتها وتزاحمت الأقدام فيها حتى فاقت البصرة والكوفة فى كثير من الوجوه وبلغ طولها على ضفة النيل ثلاثة أميال . وذكر مؤرخو العرب عما بلغته عمارتها انه كان فيها ستة آلاف مسجد وثمانية آلاف شارع مسلوك والف ومائة وسبعون حماما . وقد يستبعد ذلك ولكن ايراده يدل فى كل حال على العظمة والعمران . ومما نظمه الشعراء فى مدحها قول الشريف العقيلى :

أحن الى الفسطاط شوقا واننى ... لأدعو لها الا يحل بها القطر
وهل فى الحيا من حاجة لجنابها ... وفى كل قطر من جوانبها قطر
تبدت عروسا والمقطم تاجها ... ومن نيلها عقد كما انتظم الدر

وبلغ من تزاحم الناس فى الفسطاط ان جعلوا المنازل طبقات عديدة بلغ بعضها خمس طبقات الى سبع . وربما سكن فى البيت الواحد مائتان من الناس . وبلغت نفقة بناء بعضها سبعمائة الف دينار وهى دار الحرم لخمارويه

وكان بين تلك الابنية دار ضرب المثل بعظمتها وغنى اهلها تسمى « دار عبد العزيز » . كانت مطلة على النيل ، وبلغ من سعتها وكثرة ساكنيها أنهم كانوا يصبون فيها اربعمائة راوية ماء كل يوم . ونقل بعضهم أن الأسطال التى كانت بالطاقة المطلة على النيل بلغت ستة عشر الف سطل مؤيدة ببكر وأطناب لها ترخى وتملأ . وذكر رجل دخلها فى أواخر القرن الثالث للهجرة فى زمن خمارويه بن احمد بن طولون قال : « طلبت بها صانعا يخدمنى فلم أجد فيها صانعا متفرغا لخدمتى ، وقيل لى ان كل صانع معه اثنان يستخدمهما أو ثلاثة . فسألت كم فيها من صانع ؟ فأخبرت ان بها سبعين صانعا قل بينهم من معه دون ثلاثة مساعدين ، سوى من قضى حاجته وخرج »

وفى ذلك دليل على غنى اهل الفسطاط وترفهم ، ومن هذا القبيل

استكثارهم من الفرش . فقد يقتنى احدهم الف فرشــة أو عشرة آلاف فرشة . وذكروا ان رجلا من أهل الفســـطاط عنده ثلاثمائة فرشة . كل فرشة لحظية . وكذلك كانوا يفعلون بالثياب ونحـوها وقد تكون اثمانها فاحشـة فلا يبالون لغناهم . قال القضـاعي : « ان قطر الندى ابنة خمارويه كان فى جهـــازها الف تكة ، ثمن كل واحدة عشرة دنانير فبلغ ثمنها كلها عشرة آلاف دينار . فاذا كان ذلك شــأن الفسطاط فى زمن آل طولون ودار الامارة بالقطائع . فكيف بعد أن عادت دار الامارة اليها فى عهد الدولة الاخشيدية ؟

▭

اشرفت لمياء على مدينة الفسطاط من جهة الشـــمال الغربى فى صباح يوم صفا جوه ، فوقع بصرها على المدينة عن بعد فلفت اعجابها جامع عمرو فى وسطها وحوله الأبنية الكبيرة بينها المآذن العديدة . ووراءها النيل قد رست فيه السفن فى ميناء الفسطاط من جهـــة الغرب . وبانت سواريها مصطفة كالرماح اذا تقلدها صف من الفرسان وقف بنظام . وبين الفسطاط والمقطم البساتين والغياض وفيهـــا الاشجار الغضة وانواع الرياحين والأزهار . اجلها بين المقطم والخليج بستان الاخشيد او البستان الكافورى (فى محل الأزهر والســـكة الجديدة من ابنية القاهرة اليوم) والى جنوبى الخليج ناحيـــة المقس ومناخ المهرانى وأرض الطبالة (وهى الأماكن التى عمرت فيها بعـــد ذلك الفجالة والظاهر والتوفيقية والأزبكية وغيرها) ، فأخذت لمياء تسأل دليل الركب عما يقع بصرها عليه من البساتين وهو يقص عليها . ثم استوقف بصرها بستان واسع فيه بقعة كالميدان قد نصبت فيها الخيام فقالت للدليل : « ما هذا البستان ؟ »

قال : « هو بستان الاخشيد يا سيدتى » .

قالت : « أراه جميلا . فلنعرج اليه للراحة ثم نواصل السير »

قال : « لا نستطيع الآن ولو جئنا فى غير هذا اليوم لأمكن دخوله »

قالت : « ولماذا ؟ » . قال : « ألم تر يا سيدى الخيام المنصوبة فى وسطه وعليها الأعلام ؟ »

قالت : « بلى وما هى ؟ »

قال : « هذه سرادقات نصبوها للامير كافور الأخشيدى صاحب مصر الآن لأنه مريض واشار عليه طبيبه أن يقيم بها للاستشفاء »

قالت : « أكافور أمير مصر الآن ؟ »

قال : « نعم هو أميرها منذ عامين ، ونعم الامير »

فسكتت وتحولت الى مرتفع بجانب المقطم يطل على ما تحته الى النيل فأعجبها ما راته من العمارة التى لا تعهــدها فى القيروان ولا فى غيرها من البلدان التى مرت بها . ولفت انتباهها لمعان سطح النيــل وراء الفسطاط . ووراء النيل بساتين الروضـــة والجيزة ووراءها الأهرام تناطح السـحاب . وقد اكتنفت النيل على ضفتيه بساتين النخيل الباسقة تختلط رؤوسها برؤوس الســـوارى البارزة عن السفن السابحة فى مياه الفسطاط تحمل اليها الغلات والسلع وضروب الأنسجة من كل صقع وبلد . فزادت رغبتها فى ان تصير هذه البلاد الى المعز لدين الله . وتصورت الخليفة قد دخلها فاتحا ورفع أعلامه فوقها فاختلج قلبها فرحا

□

عادت لمياء الى التفكير فى المهمة التي قطعت الصحراء من اجلهــا ، فكان أول همها أن تبحث عن منزل يعقوب بن كلس ، فأمرت صاحب الركب أن يسوق الأفراس الى فندق أو خان ، فأخذهم الى فنــدق قديم يعرف بفندق ابن حرمة بأول سوق العدسـيين . وكانوا وهم يمرون فى الأسواق لا يلفتون الأنظار لكثرة من يدخل الفسطاط يومئذ من القوافل القادمة من الشام والعراق والمغرب والســودان وغيرها تحمل البضــائع والغلال والريش والصمغ والجوارى والغلمان على البغال أو الافراس أو الجمال ــ غير ما ينقل بحرا عن طريق النيل

وما زالوا حتى أتوا الفندق فأمرت لمياء صاحب الركب أن يهتم بالأفراس وهو لا يشك فى أنها غلام . وبعد الاستراحة قليلا توجه همها الى السؤال عن بيت يعقوب بن كلس فطلبت صاحب الخان الى غرفتها فجاء فرحبت به ، وكانت قد بالغت فى اكرامه وأعطته اضعاف ما طلبه من الاجور فأصبح طوع ارادتها ، فلما دعته اليها وقف بين يديها وقــد أدهشه جمال ذلك الغلام الصقلبى وما فى عينيه من الذكاء

وكان الخــاناتي (صاحب الفندق) شيخا لطيف المحضر ، عركه الدهر وشهد تقلب الدول على مصر من أواخر دولة آل طولون . وكان من الذين شاهدوا الفتك بالطولونيين وخرائب القطائع . وعاصر الأخشيد لما جاء حاكما ونزل الفسطاط . وكثيرا ما مر به النزلاء من سائر الطوائف والعناصر من الاتراك والأرمن والشوام والمغاربة والفرس والشراكسة والسودانيين وغيرهم

واصحاب الفنادق والخانات والمقاهى ونحوها من الاماكن العامة اقرب الى اللطف ودماثة الخلق من سائر طبقات العامة . لأنهم يتعودون الصبر على الضيم وسعة الصدر باضطرارهم الى مسايرة الناس على اختلاف أهوائهم وطبائعهم . فيأتيهم السكران والمعربد والثقيل والبارد والمتكبر والمختال ، وهم مضطرون بحكم الارتزاق أن يرضوهم كما يرضون سواهم . فاذا لم يكن فيهم استعداد للقيام بذلك هجروا المهنة الى سواها . واذا ظلوا فيها فلا تزال الحوادث تعركهم والتجارب تحنكهم حتى تصير أخلاقهم كالعجين لينا ودماثة

وكان صاحبنا الخاناتى من هذا النوع فلما راى لمياء وهو يعتقد أنها غلام صقلبي (وأكثر ما كان ياتي الصقالبة يومئذ من جهات المغرب) عرف أنها قادمة من بلاد المغرب فضلا عن ملابس رفقائها وكلامهم . فقالت له : « يظهر أنك قديم فى هذا البلد يا عماه ؟ »

قال : « أنا يا سيدى قديم جدا »

قالت : « وقد مر بك ألوف من الزائرين من جميع الملل أليس كذلك ؟ »

قال وهو يمشط لحيته بأنامله : « نعم يا سيدى انى أعرف من احوال الناس أكثر من شعر هذه اللحية » . وضحك

فارتاحت لمجونه على شيخوخته وبدأت بالسؤال عما يعنيها فقالت : « أتعرف رجلا اسمه يعقوب بن كلس »

فهز رأسه متعجبا وقال : « كيف لا اعرفه وهو من كبار رجال الدولة وقد رايته بالامس مارا على بغلته . ويندر ان يؤذن لليهود فى ركوب البغال »

فقالت : وكيف أذن له فى ذلك ؟ »

قال : « لأن كافورا اميرنا فتن بذكائه ومهارته فجعله من خاصته ، وعظمت منزلته عنده حتى اصبح لا يمضى أمرا الا بتوقيعه »

فاستغربت ذلك وقالت : « أين يقيم الآن ؟ »

قال : « يقيم فى منزل فخم بجانب زقاق اليهود على مقربة من هذا المكان »

قالت : « هل ترسل معى من يرشدنى الى منزله ؟ »

فنهض الشيخ وقال : « أنا أسير فى خدمتك الى منزله »

فقالت : « لا حاجة الى اتعابك يكفى أن تدلنى عليه من هنا »

فمشى وهو يظن أنه يكرمها وقال : « لا . لا . بل امشى فى خدمتك يا سيدى . . ولهذا المنزل طريقان : احدهما قصير لكنه ضيق

مظلم والآخر طويل منير جميل . يجدر بنا أن نسير فى الطريق الطويل » . قال ذلك ومشى وهو يتوكأ على عكازه

فأطاعته لمياء ومشت فى أثره وهى بلباسها الخاص بغلمان الصقالبة . وانما اختارت ذلك اللباس لأن أصحابه أقرب بوجوههم وأصواتهم الى النساء فلا يستغشبها من يتوهم فى صوتها غنة النساء . فمشيا فى زقاق ينتهى الى رحبة واسعة رأت لمياء فيها الجماهير يتزاحمون ويتراكضون فسألته عن ذلك فقال : « هذا جامع عمرو بن العاص يا سيدى »

قالت : « سمعت به كثيرا وكنت أود أن أصلى فيه لكننى سأفعل ذلك فى فرصة أخرى »

فقال : « تعال يا سيدى لأريك الجامع ثم نسير فى طريقنا » . ومشى أمامها مسرعا وهو ممسك بطرف ثوبها كأنه يجرها الى هناك

ولم يكد يصل بها الى الباب حتى سمعت صوتا أدهشها ورأت شيخا واقفا بالباب ينادى : « معاوية خالى » فيرد عليه شيخ آخر فى الجانب الآخر بمثل قوله ــ وهم يفعلون ذلك نكاية فى الشيعة لأنها تحتقر معاوية . فأحست لمياء عند سماع ذلك بغضب لأنها تجل الشيعة اكراما للمعز وأم الأمراء . وحدثتها نفسها أن تصيح بالشيخين وتسكتهما فتذكرت أنها غريبة وليس هذا وقت خصام . وهى تعلم تعصب حكومة مصر وأهل مصر يومئذ ضد الشيعة . لكنها كانت تسمع ذلك عن بعد فلما رأته رأى العين استغربته . فتحولت عن باب الجامع والخاناتى يتبعها ويقول : « ما بالك يا سيدى لم تدخل الجامع ؟ »

فقالت : « سأرجع للصلاة فى فرصة أخرى . ولكن ما بال هذين الشيخين يناديان هذا النداء ؟ »

قال : « يناديان بذلك اغاظة للشيعة »

قالت : « لعلك شيعى ؟ »

فصاح : « أستغفر الله ، لماذا تقول لى ذلك يا مولاى كأنك تريد أن توقعنى فى مصيبة ؟ »

قالت : « ولماذا ؟ هل الشيعى كافر ؟ » .

فأشار بسبابته على شفته السفلى كأنه يطلب سكوتها أو يستمهلها فى الجواب الى فرصة أخرى . فسكتت حتى اذا دخلا فى زقاق منفرد قال الشيخ : « احذر يا سيدى أن تجاهر بأمر الشيعة ، لعلك منهم ؟ »

فقالت : « نعم أنا منهم وهل من بأس على ؟ »

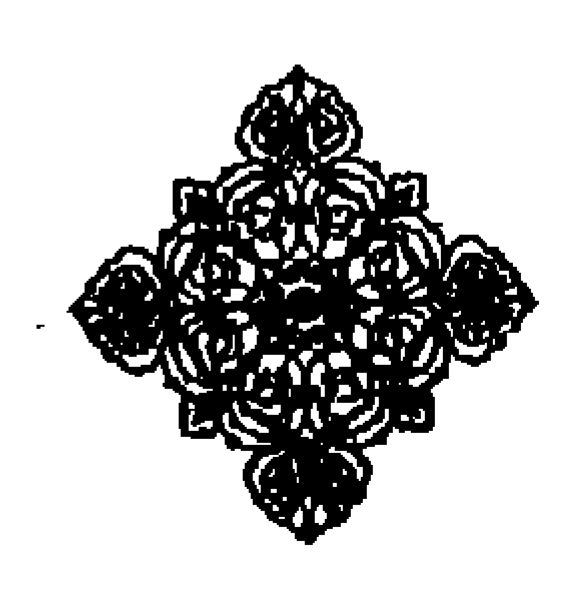
قال : « كلا ، وربما هابوا لباسك وقيافتك . وأما اذا كان الشيعى فقيرا فانهم يضربونه ويهينونه . وقد يضربون الكبار ويسجنونهم ويهينونهم بلا شفقة »

فلما سمعت ذلك الكلام لم تتمالك أن صاحت : « ويل لهم الا يخافون الله ؟ »

فتقدم الشيخ وقال بصوت ضعيف : « أنصح لك يا سيدى أن تغض النظر عما تراه ولا تعرض نفسك للاهانة »

فقالت : « أليس فى هذا البلد احد من أهل الشيعة ذو مقام ؟ »

قال : « بلى يا سيدى. هنا رجل شريف من سلالة الحسين اسمه مسلم بن عبيد الله الشيعى . فان الناس يهابونه ولا يتعرض له أحد بسوء . لكن ما لنا ولهذا فقد دنونا الآن من زقاق اليهود وهذا منزل يعقوب بن كلس »



يعقوب اليهودى

تقدم الشيخ الى الباب ودقه بحلقة من الحديد فى وسطه . فرد عليه البواب وفتح خوخة الباب وأخرج راسه منها وهو يقول : « من هذا ؟ » . فقال الخاناتى : « ضيف يسأل عن المعلم يعقوب »

فأجال البواب نظره فى الطريق فراى لمياء واقفة بثوب الرجال فأعجبه هندامها فقال : « ادخل يا سيدى ، ان المعلم فى المنزل » . قال ذلك وفتح الخوخة على مداها وتنحى حتى دخلت لمياء بعد ان اشارت الى الخاناتى اشارة الوداع وابتسمت . فمضى الخاناتى معجبا بلطف ذلك النزيل الكريم

اما لمياء فأشار اليها البواب ان تقعد على مقعد فى منظرة عند الباب وذهب لينادى يعقوب . وبعد قليل سمعت صوت يعقوب يقول لبوابه : « اين الضيف ؟ » . وسمعت هذا يجيبه بقوله : « فى المنظرة »

ثم اقبل يعقوب فوقفت له لمياء ، فحياها بلطف وقال : « مرحبا بالضيف الكريم . اجلس » . وجلس على كرسى بين يديها وهو ينظر الى نظافة ثوبها وهى تنظر الى سحنته وتتبين ملامحه فرأته على ابواب الكهولة وقد لبس الجبة والعمامة الصغيرة وأرخى سالفيه امام اذنيه . وبان من شكل انفه وحاجبيه انه يهودى ولكن الشرر يكاد يتطاير من عينيه لفرط ذكائه وحدة ذهنه

فتبادر الى ذهنها ان تطلب الاختلاء به لكنه سبقها الى الكلام فقال : « من اين الضيف ؟ »

قالت : « من بلدة بعيدة . هل تأذن فى خلوة ؟ »

قال : « نحن فى خلوة »

قالت : « بل اريد خلوة ابعد عن ابصار الناس ومسامعهم »

فعرف من لهجتها انها من المغرب ، وحدثته نفسه لأول وهلة ان لمجيء هذا الصقلبى علاقة بكتابه الى المعز . وكان ينتظر ورود الجواب عليه كل يوم . فنهض ومشى امامها فى حديقة كبيرة الى مصطبة صعد عليها الى بيت دخلا غرفة منه وامر الا يقرب أحد

من بابه . وفى الغرفة بساط من السجاد ومساند ومقاعد . فأشار يعقوب الى ضيفه أن يقعد على الوسادة . وجلس هو بين يديه وعيناه شائعتان ليرى ما وراء هذه الخلوة فقالت لمياء : « انى رسول اليك من الامام المعز لدين الله »

فلما سمع يعقوب اسم الخليفة تأدب فى مقعده مبالغة فى الاحترام وقال : « مرحبا بك يا سيدى ، كيف امير المؤمنين ، وكيف صحته ؟ »

قالت : « ان مولاى أمير المؤمنين بعثنى اليك لأحمل شكره لك على رسالتك التى انفذتها اليه »

قال : « أرجو أن تكون قد حسنت عاقبتها . فانى فى قلق لأن رسولى لم يعد »

فقالت : « ولن يعود لانه قتل »

فأجفل وقال : « وكيف وصلت الرسالة الى الخليفة ؟ »

قالت : « وصلت بالاتفاق الغريب .. انا أوصلتها الى امير المؤمنين وكان على وشك الوقوع فى الفخ » . وتنهدت اذ تذكرت مقتل أبيها ثم استأنفت كلامها فقالت : « وكان فى وصول الرسالة نجاة له ولحاشيته من الموت »

فابرقت أسرة يعقوب لنجاح مهمته لما يتوقعه من التقدم فى دولة الفاطميين وقال : « وكيف حدث ذلك . الا تقص على الخبر .. قل بالله قل »

قالت : « أحب قبل كل شىء أن أكاشفك بسر آخر »

قال : « قل يا سيدى »

قالت : « أنت تخاطب فتاة لا رجلا »

قال : « أصحيح هذا ؟ فانى توسمت فى هذا الصوت لطف النساء لكننى رأيت فى هاتين العينين قوة الرجال . اما وقد اطلعتنى على سرك ، فهل تتممين جميلك وتفصحين لى عن حديث رسولى وكيف وصلت الرسالة اليك ؟ »

قالت : « لذلك حديث طويل ساوجزه ، وفيه اشياء كثيرة لاتهمك ولكننى سأقولها لك وثوقا بذمتك واعتمادا على غيرتك وشرفك لأستعين بك فى بعض الأمور التى تهمنى »

قال : « قولى يا سيدتى وثقى بأنى خزانة أسرار وانى ابذل كل ما فى وسعى للأخذ بيدك فى كل ما تريدينه »

فأخذت تقص عليه خبرها مع سالم مختصرا الى ان غلب ابوها على بلده وصار فى حوزة المعز وكيف خطبها لابن جوهر وما ظهر من

كيد ابي حامد . وكيف قتل رسوله وقتلت هي قاتله . وانها قادمة لاستطلاع الاحوال وللانتقام لنفسها الى آخر الحديث . وهو منصرف بكليته الى سماع حديثها. فلما فرغت قال : «انت اذن لمياء المسكينة؟»

قالت : « نعم انا لميـاء ولكنني لست مسـكينة لأني سأنتقم من ذلك الخائن الغادر » . قالت ذلك وحرقت اسنانها وبان الغضب في عينيها وأدرك يعقوب انها فتاة ليست كسائر الفتيات فقال لها : « ثقي بأني ابذل وسعي في سبيل رضاك . ان أمة في نسائها فتاة مثلك لا بد ان يتسع سلطانها . وستقيمين هنا وتعرفين كل شيء في مدة قصيرة »

قالت : « علمت ان في هذا البلد رجلا من الشيعة اسمه مسلم بن عبيد الله هل تعرفه ؟ »

قال : « انه صديق عزيز ، وهو الذي حبب الى الأخـذ بناصر الشيعة ، ومع اني اسرائيلي فقد صرت أعتقد أن الحق للامام علي »

فهزت راسها وقالت : « الحق يعلو ولا يعلى عليه ، وسوف يظهر اصحاب الحق ابناء بنت الرسول » . قالت ذلك ومدت يدهـا الى جيبها واخرجت لفافة من الحرير اخرجت منها رقا ملفوفا وقدمته اليه وقالت : « هذا كتاب من أمير المؤمنين إليك » . ثم أخرجت حجرا من الماس كبير الحجم كان قد وقـع للمعز في بعض غزواته يساوي بضعة آلاف دينار وقالت : « وهذا هدية من مولاي الخليفة اليك »

فتناوله وقبله وفض الـكتاب وقرأه فاذا فيه :

« من المعز لدين الله امير المؤمنين الى يعقوب بن كلس

« لقد تأكدنا اخلاصك الصحيح من رسالتك التي وصلت الينا في ابان الحاجة اليها فوجب علينـا شكرك وبعثنا به اليك شفاها مع رسولنا حامل هذا الـكتاب . وسنذكر لك هذه الأريحية والغيرة الحميدة في وقت يكون لك منه نفع صحيح . واذا زدتنا من مودتك وصدق اخلاصك تضاعفت يدك لدينا والله يتولاك بنعمته »

□

اتم يعقوب قراءة الـكتاب ، ثم قبله ووضعه على راسه ، واعاده الى اللفافة وخبأه في جيبه . فنهضت لمياء فأحس يعقوب بأنها تريد الذهاب للتعرف بمسلم بن عبيد الله الشيعي فنهض ومشى بين يديها فقالت : « هل منزل الشريف بعيد من هنا ؟ »



وقدمت اليه رقا ملفوفا وقالت له : « هذا كتاب من أمير المؤمنين اليك »

قال : « هو جارنا لا نحتاج فى زيارته الا الى خطوات قليلة بعـد خروجنا من هذا الزقاق » . فاغتنمت فرصة وجودها معه فى الطريق وقالت : « لم أحادثك فى شأن سالم بعد »

فقال : « لا حاجة الى زيادة الايضاح يا سيدتى كونى مطمئنة »

ولم يسيرا طويلا حتى وصلا الى بيت مسلم ، فتقدم يعقوب فطرق الباب وخاطب البواب . فلما عرفه فتح له ورحب به . ودخلت لمياء معه ومشى فى الحديقة امامها حتى بلغ خبر قدومه الى مسلم فناداه من الداخل : « ادخل يا معلم »

فأسرع يعقوب اسراع المحتفى بمخاطبه وقال : « لست وحـدى يا سيدى . أن معى ضيفا تسر بمشاهدته »

فقال : « أدخل ومن معك »

وكانت لميـــاء قد صارت على مقربة من باب الغرفة التى فيهـا مسلم ، فحالما وقع بصره عليها تزحزح من مكانه كأنه يهم بالنهوض فأسرع يعقوب اليه واقعده وهو يقول : « لا تقم يا سيدى »

فقال : « أهلا وسهلا بالقادم .. من معك ؟ »

قال : « رسول ابن عمك صاحب القيروان »

فقال : « من امير المؤمنين المعز لدين الله ؟ » . قال ذلك ووقف وهو يقول : « فلماذا منعتنى الوقوف ؟ ان كنت لا اقف لرسـول صاحب الحق فلمن أقف ؟ » . وترقرقت الدموع فى عينيه فرحا

فأكبت لمياء على يده فقبلتها وهى تقول : « العفو يا سيدى ، هذا اكرام لا استحقه »

فقال : « بل يجب على الوقوف اكراما لابن عمنا صاحب القيروان . طالما تمنيت أن أحظى بهذه اللقيا . كيف فارقت أمير المؤمنين ؟ » . وقعد وهو يشير اليها بالجلوس فجلست متأدبة وقالت : « فارقته فى خير وسلامة . ان قلبى يطفح سرورا بهذا اللقاء فى هـذا البلد البعيد »

واشار مسلم الى يعقوب فقعد وهو يقول : « وازيدك علما يا سيدى ان هذ الرسول فتاة تتفانى فى نصرة أمير المؤمنين . وقد كانت السبب فى حفظ حياته من كيد الـكائدين »

فقال : « وكيف ذلك يا يعقوب ؟ »

قال : « الا تذكر يا سيدى ما قصصته عليك عن المكيدة التى كادها بعض الخونة للفتك بابن عمك حفظه الله ؟ »

قال : « بلى وعلمت أنك بعثت رسولا ينذره بذلك »

قال : « نعم ولكن الرسول قتل قبل وصوله الى القيروان فأتيح لهذه الناسخة أن تتناول الرسالة وتوصلها الى صاحبها . ولو تأخرت لحظة لنفذت حيلة اولئك الكائدين » . وقص عليه الخبر باختصار

فلما [illegible] كنه جوارح لمياء من الغيرة على الشيعة وعن غرضها من القدوم الى مصر قال « بارك الله فيك يا بنية ، كيف فارقت [illegible] ؟ »

[illegible] وما ترجوه من تغلبه وفوزه . فأبرق [illegible] . قال : « الحمد لله الذى نصر قومه ونتوسل اليه [illegible] من القوم الظالمين ... ألم يعزم الامام على القدوم [illegible] ؟ »

قالت [illegible] بأذن الله وانما جئت لأستطلع الأحوال وارى حال الشيعة [illegible]

[illegible] عميقة وقال [illegible] ان شيعتنا فى ضنك شديد . ان هؤلاء الظالمين [illegible] العذاب من الاهانة والضرب والحبس بسبب وبلا سبب »

قالت : « لقد بعض [illegible] شاهدته من ذلك فى هـذا الصباح وأنا قادمة الى منزل المعلم يعقوب . رأيت شيخين جالسين بباب المسجد يصيحان معاوية خالى . يقولان ذلك بقحة »

فقال « لم ترى شيئا بعد يا بنية . ان شيعتنا مغلوبون على أمرهم يذوقون العذاب [illegible] الحبس والقتل »

فقلت : « الحبس والقتل ؟ ولماذا ؟ »

قال : « [illegible] انهم يسومون شيعتنا ذلك لأنها تجل أبناء الرسول . لو قصصت عليك بعض الخبر لبكيت على حالنا »

قالت : « أحب أن أعرف شيئا انقله الى مولاى أمير المؤمنين لعله يعجل خطواته فى انقاذهم »

قال : « اذكر لك مثالا صغيرا من مظالمهم . كان فى الفسطاط منذ سنوات رجل من الشيعة اسمه ابن ابى الليث الملطى ، بلغ خبره صاحب مصر فبعث فى طلبه ، فحملوه اليه فأمر بضربه مئتى سوط ووضعوا فى عنقه غلا ثقيلا وحبسوه وجعلوا يبصقون فى وجهه وهو فى السجن حتى مات رحمه الله » . قال ذلك وغص بريقه فلم تتمالك لمياء من البكاء

فاستأنف مسلم الحديث وقال : « لم يكتفوا بموته .. فبعد أن دفنوه [illegible] جماعة ممن لا خلاق لهـم وهموا بنبش قبره أيضـا . هل سمعت بأفظع من ذلك . هذا مثال صغير مما قاساه الشيعة فى

هذا البلد . وناهيك بما نسمعه باذاننا من الاهانات والنكايات . فانهم يتعرضون للمارة فيطلبون من أحدهم أن يقول : (معاوية خالى) أو (معاوية خال على) . فاذا لم يفعل أهانوه أو قتلوه »

وكانت لمياء تسمع وبدنها يقشعر وعيناها تذرفان الدموع ومسلم يفض بريقه من فرط التأثر ويعقوب يظهر التألم مما يسمعه . ثم تصدت للكلام وقد أدركت حماسها فقالت : « لا تحزن يا سيدي قد دنا الوقت لانقاذ هذه النسبة المظلومة ان الله مع الصابرين »

فتنهد الشريف مسلم وقال : « لقد طال صبرنا يا بنية ولا نظننا نصل الى ثأرنا . كأنه قد كتب علينا الاضطهاد وكتب على الخلافة ان تبقى في غير أهلها وكأنه لا نفعها »

فقالت لمياء : « المستقبل للخلافة التي في بيت الرسول بالقيروان . انها ستبقى فيهم مدى الزمان . قد كتب لهم النصر ولا يمضي كثير حتى ترى أعلامهم تخفق على سائر البلدان باذن الله »

وكانت لمياء تسمع وبدنها يقشعر وعيناها تذرفان الدموع ومسلم الشريف يعجب بما يبدو من حماستها وقال : « ان وجود مثلك بين انصارنا يبشرني بفوز عظيم »

قالت : « أنا مسكينة حقيرة . انما الانصار هم القواد والأمراء ، وفيهم جوهر الصقلي الذي دوخ المغرب بسيف العبيديين . ان الفتح سيكون على يده وأيدي الامراء من كتامة وصنهاجة وغيرهم من البربر الذين باعوا أنفسهم في سبيل الحق » . ثم اعترضت مجاري افكارها صورة أبي حامد وسالم وما كان من تيقظهم حتى قتل أبوها فانقبضت نفسها وسكتت وراحت تفكر في سالم وانها تحب أن تطلع على حقيقة حاله وتود ان تسمع حديثه باذنها . ثم رأت أنه لا يستحق ذكره بين يدي الشريف فرأت أن تستأذن في الانصراف حتى تخلو الى يعقوب وتطلب منه ذلك . فتزحزحت تتأهب للذهاب فاستوقفها الشريف قائلا : « الى أين يا ابنتي ؟ انك ستقيمين عندنا بين أهلنا »

فقطعت كلامه قائلة : « ذلك حظ كبير لي ولكنني لا أقدر على الاقامة هنا . وأتوسل اليك بجدك سبط الرسول أن تكتم أمري عن كل انسان حتى عن أهلك فهل تعدني بذلك ؟ »

قال : « نعم كوني مطمئنة . والآن الى أين تذهبين ؟ »

قالت : « اني سائرة مع المعلم يعقوب وسأذهب الى الخان أو غيره كما يتفق ، ولا غنى عنك في كل حال »

فقال : « مهما يخطر لك من أمر فانك تجدينني ملبيا مطيعا »

ثم قبلت لمياء يده وخرجت وخرج يعقوب معها

كافور الأخشيدى

ادرك يعقوب أن لمياء تعنى خـبرها مع سـالم . وكان يعقوب قد أخلص النية للمياء اذ وقعت من نفسه موقعا عظيما واعجب بما رآه من صدق غيرتها ومروءتها وهو شريكها فى غرضها السياسى . فقد كان يرى تغيير الدولة الاخشيدية بالفاطمية ليس حبا للشـيعة أو انتصارا للحق ، لكنه كان ذا مقـام عند كافور وكان يتوقع انقلاب الأحوال ولا سيمابعد مرض كافور وقد أسر اليه الطبيب أن كافورا سـيموت قريبا . وهـو يعلم تغير قلوب الاخشيدية واضطـراب احوالهم . فرأى ان يصادق الفاطميين فيمسك الحبل من الطرفين . وكان يخاف مطامع الاخشيديين فى ماله وهو يرى قرب زوال دولتهم . فلم ير بأسا فى ان يكون وسيلة لنقل هذه الدولة الى دولة جـديدة فتية فاذا جرى ذلك على يده أتته المنافع متعددة

وكان عدوه اللدود فى ذلك الحين ابن الفرات الوزير . وكان يعقوب يخافه ولا يأمن جانبه اذا مات كافور فقد كان يحسده على منزلته عند كافور وينافسـه على النفوذ . أما كافور فكان يقرب يعقـوب ويكرمه وقد جعله موضع ثقته . فلما أشارت لمياء الى أمر سـالم ورغبتها فى استطلاع حقيقته رأى أن يسهل عليها ذلك وان يطلعها على الاوضاع السياسية والاحزاب فقال : « أظنك تعنين أمر ذلك الخائن»

ففهمت أنه يعنى سالما فأجفلت ولم تطق أن تسمع وصفه بالخائن مع أنها حكمت عليه بالخيانة من تلقاء نفسها . لكن ما رسخ فى قلبها من حبه لا يزال له صدى فى خاطرها حتى تتحقق الامر فقالت : «انى لم أتحقق خيانته بعد »

فقال : «أما أنا فقد تحققته كما ذكرت فى كتابى الى المعز لدين الله»

قالت : « أليس من سبيل الى تحقيق ذلك بنفسى ؟ »

وكانا قد خرجا من الزقاق واقتربا من منزله وسـمعا المؤذن فى جامع عمرو يؤذن صلاة الظهر . فقال يعقوب : « هذا وقت الغـداء فلندخل الى منزلنا لنتغدى ثم ننظر فى هذا الأمر »

ودخل منزله وهى فى أثره فأمر غلامه أن يهيىء المائدة فى المنظـرة،

ولم يحضر معهما أحد من أهل يعقوب ــ اجابة لما ارادته لمياء . وبعد الغداء جلسا وكل منهما يفكر فى أمره . وفيما هما فى ذلك طرق الباب واتى الخادم يقول : « الطبيب شالوم بالباب »

فلما سمع اسمه ابرقت أسرته كأنه جاءه الفرج بعد الضيق وقال للخادم : « أدخله الى ردهة الاستقبال ريثما آتى »

وبعد خروج الخادم قال يعقوب للمياء : « تعبت وانا افكر كيف اثبت لك خيانة الرجل فاتى الطبيب ففتح باب الفرج »

قالت : « من هو ؟ »

قال : « طبيب الامير كافور يتردد عليه كثيرا ولا سيما فى هذه الايام لانحراف صحته . ولكافور ثقة فى علمه وطبه وكانا صديقين قبل ان صار هذا العبد اميرا »

قالت : « أى عبد تعنى ؟ »

قال : « اعنى كافورا . الا تعلمين انه عبد ! فلا بد اذن من ان أقص عليك خبره ليتيسر لك تفهم أحواله . اعلمى يا بنية أن كافور هذا كان فى شبابه عبدا لبعض أهل مصر ، ثم اشتراه محمد بن طغج الأخشيد مؤسس هذهالدولة هنا منذ حوالى اربعين سنة وترقى فى خدمته حتى صار (اتابك) ولديه أى مربيا لهما . وصار يعرف بالاستاذ كافور . وتمكنت قدم الاخشيد بمصر واستقل بها فى كنف الدولة العباسية كما هى حالنا الآن . وتوفى محمد الاخشيد سنة ٣٣٤ هـ فخلفه ابنه الاكبر انوجور ومعناه بالعربية (محمود) فزاد نفوذ كافور فى الدولة لأنه كان مربيا لانوجور فصار وزيرا له فقام بتدبير دولته أحسن قيام . ولما توفى انوجور سنة ٣٤٩ هـ تولى بعده أخوه على بن الاخشيد ، فاستمر كافور فى وزارته أو نيابته حتى توفى على هذا منذ سنتين (٣٥٥ هـ) فلم ير كافور بين الاخشيديين من يليق بالحكم »

ثم خفض صوته وقال : « ولعله طمع فى الاستقلال فاحتال فى اظهار خلعة قال انها جاءته من العراق . وهى شارة الولاية عندهم يرسلها الخليفة العباسى لكل وال جديد فيلبسها باحتفال شائق . وزعم أنه لقب بأبى المسك فاستبد بأمور الدولة واستوزر رجلا شديدا اسمه أبو الفضل جعفر ابن الفرات هو وزيره الآن . ولولا ابن الفرات هذا لكان كافور من أحسن الأمراء »

فاعجبها ما سمعته عن أصل هذه الدولة وعن كافور لكنها ما زالت تحب أن تستزيد من خبره فقالت : « قلت ان كافورا كان عبدا فهل تعنى انه اسود اللون ؟ أم هو مملوك ابيض ! »

فقال : « هو اسود شديد السواد . لكن سواده لم يمنع من خضوع

القوم له وان لم يخضعوا جميعا . وقد طال بنا الكلام والطبيب شالوم فى انتظارنا » . قال ذلك ونهض فنهضت لمياء معه فأتم حديثه وهما واقفان فقال : « اعلمى يا لميساء أن أمراء هذه المملكة وحدها الآن قسمان: قسم مع كافور ينصرونه ويأخذون بيده ويقال لهم الكافورية. وقسم مع آل الاخشيد ويعدون كافورا مختلسا ويقال لهم الاخشيدية وهم كثيرون . هذا وكافور الآن مريض ولا ندرى أفى خطر هو أم لا. فاذا انتهى هذا المرض بالموت فان أحوال مصر تضطرب وتتضعضع اذ لا يوجد من يستحق الامارة بعده الا غلام فى الحادية عشرة من عمره . وسنعرف حال كافور فى الصحة من الطبيب شالوم ، هيا بنا اليه »

قال ذلك ومشى فمشت لمياء معه وهى تتأمل فيما سمعته عن اضطراب احوال هذه الدولة وقد استبشرت بنجاح مهمتها

وأطلا على الطبيب شالوم فى ردهة الاستقبال ، فتقدم يعقوب مسرعا نحوه ولمياء وراءه تمشى الهوينى لتبقى بعيدة حتى يدعوها. لكنها جعلت تتفرس فى الطبيب عن بعد فاذا هو كهل والذكاء يتدفق من عينيه وعليه زى الأطباء فى ذلك العصر ، والبسته ثمينة لتقربه من امير البلاد وحظوته عنده ، وحول خصره منطقة مذهبة فيها دواة من عاج ، وقد التحف رداء كالعباءة من حرير عنابى اللون ، وعلى راسه كساء كالقبعة عليها طراز مزركش ، وقد أرسل لحيته وسالفيه بلا هندام كما كان يفعل كبراء اليهود.

وكان شالوم جالسا على وسادة فى صدر القاعة وفى يده كتاب يطالع فيه باهتمام . فلما سمع خطوات يعقوب نهض وحياه وابتسم له والاهتمام باد فى عينيه ، فدعاه يعقوب للجلوس وهو يقول : « مالى ارى حبيبنا شالوم فى شاغل ؟ ما هذا الكتاب ؟ »

وقبل أن يجيبه لمح لمياء بلباس الغلمان فى الحديقة واقفة تتلهى بقطف الزهور وهو يعرف غلمان يعقوب فاستغربها . وأدرك يعقوب استغرابه فابتدره قائلا : « هذا غلام صقلبى جاءنى برسالة فى هذا الصباح »

قال : « من اين ؟ يظهر لى من زيه انه من المغرب . فهل أتاك برسالة من صاحبك المعز ؟ »

فعض يعقوب على شفته السفلى اشارة التكتم وقال : « صاحبى؟! وهل تعتقد ذلك فى وأنا فى خدمة الامير كافور ؟ . ما لنا ولهذا ؟ . قل لى . رأيتك تقرأ فى هذا الكتاب باهتمام . . اقعد . . قل ماسبب اهتمامك ؟ كيف صحة مولانا ؟ »

فقعد وقعد يعقوب بين يديه فقال الطبيب : « ان الامير فى خطر

وقد أعيتني الحيل فى تطبيبه . وهذا كتاب جاءنى بالامس الفه طبيب من اشهر أطباء العراق »

فقطع يعقوب كلامه قائلا : « اظنك تعنى الرازى فهل هـذا كتابه الحاوى ؟ »

قال : « هذا جزء منه يبحث فى العلة التى يشكو الامير منها »

قال : « هل وجدت شيئا جديدا ؟ »

فأوما برأسه أن « لا »

فقال يعقوب : « فانت اذن يائس من شفاء الأمير ؟ » . فهز رأسه موافقا

فاطرق يعقوب وبان الانقباض فى جبينه وعرف الطبيب سبب ذلك فقال له : « لعلك تفكر فيما سيؤول اليه امرك اذا مات هذا الرجل . كم نصحت لك بأن تساير الوزير ابن الفرات وتداجيه فانه شديد الوطأة حسود وله مطمع لا يخفى عليك »

فتنهد وقال : « انه لا يداجى . ولا فائدة من مداجاته لأن الحسد يعمى ويصم ! » . واطرق وهو يعمل فكرته ثم قال : « لا أبالى أن الامر لا يطول فى يده ، بل انا لا أرى مصر يطول أمرها فى قبضة هذه الدولة و . . » . وتوقف عن الكلام بغتة

فلم يفت الطبيب ما جال فى خاطره فقال : « لماذا تخفى أمرك على يا يعقوب ؟ . ان مصلحتنا فى الامر مشتركة ، ولا يليق بنا أن يداجى أحدنا الآخر . وهؤلاء القوم وان قدمونا وأكرمونا فانهم يكرهوننا ولولا حاجة هذا الأمير الأسود الى طبى لما هش لى ولا كلمنى . وانت مع طول عشرتك له منذ توليت عمارة داره وأنت شاب حتى صرت ملازما لبابه ثم اجلسك فى ديوانه الخاص وصرت تخدمه وتتولى اعمال الحسابات وتدخل بين يديه فى كل شىء فانه لا يحبك وانما هو فى حاجة الى عقلك وتدبيرك . هل غرك انك كيفما دخلت او خرجت وقف لك الحجاب والاشراف ؟ انه انما فعل ذلك لانك خدمته باخلاص وغيرة ولم تطلب منه مالا . وانا أعلم الناس بالمال الذى رددته عليه ولم تأخذ منه الا القوت . فانت الآن موضع ثقته لا يمضى دينار ولا درهم الا بتوقيعك . ومع ذلك هـل تظنه يحبك ؟ انه لا يقدر ان يحبك ولا أن يحبنى . لا أقول ذلك لانك لا تعلمه بل انا على يقين انك اعلم به منى ولكنى قلته لأسهل عليك التصريح لى بما تحاول كتمانه عنى وانا أتوسمه فيك »

وكان يعقوب يسمع كلامه ويعتقد صحة كل كلمة منه ، ويعلم ان ميله الى الفاطميين لم يخف على صديقه الطبيب . وهو لم يفعل ذلك

ليقدر بمولاه كافور ولـكنه توقع قرب سقوط هذه الدولة وكان يعلم ان ابن الفرات يكرهه ، وانه اذا مات كافور يصبح فى خطر على ماله وحياته . لذلك أحب ان يصل حبله بحبل الفاطميين مع البقاء على ولاء كافور . ولـكنه كان يشق عليه أن يصرح بذلك لأحد . فلمـا سمع تصريح الطبيب شالوم هـان عليه الدخول فى الموضوع فقال : « أراك يا صاحبى سىء الظن فى هذا الرجل كثيرا »

قال : « كلا انا لا اسىء الظن به ، لـكننى لا أرى شيئا يجمعنى به غير المصلحة ، وارى أسباب التفريق كثيرة . فنحن الآن لا ينبغى لنا ان نخون هذا الامير أو نقصر فى خدمته لـكننى أخاف على حياتنـا بعده . اليس كذلك يا معلم ؟. قل لا تخف ، انى اسر اليك أشياء كثيرة ومع ذلك لا يهمنى صرحت أم لم تصرح . فانت صديق المعـز لدين الله الفاطمى وهذا الغلام رسوله اليك . فى شأن يمس الدولة . اصدقنى لعلى أستطيع خدمتك »

فلم ير يعقوب بدا من الـكلام وهو يثق بصديقه فقال : « لا تظن توقفى عن التصريح من ضعف ثقتى بك ، فانت تعلم ما بيننا من الأسرار القديمة والحديثة . ولـكنى مضطرب الراى فى الامر . ان هـذا الغلام رسول من المعز . نعم . ولـكن كن على يقين انى لم اصاحب المعز لاخـون كافور . فانى خادمه مقيم على ولائه ما دام حيا . وأما اذا مات فانى اخاف خلفاءه كبيرهم وصغيرهم . بل اخافهم على مصر واهلها . انهم لا يصلحون للحكومة لما تعلمه من انقسامهم واضطراب احوالهم . فلا بد من خروج هذه البـلاد من ايديهم . واذا لم يكن بد من خروجها فمن تراه أولى بها . ان القوم فى بغداد مشغولون بأنفسهم . ان بغداد مسقط راسى واحبها كثيرا لـكننى اراها بعيدة عن مصلحة مصر . وهـؤلاء الفاطميون دولة جديدة رشيدة كثيرا ما سمعت عن تعقـل خلفائها وعدلهم . فاذا تولوها كان ذلك من اسباب سعادتها »

ثم تدارك ما قاله بلهفة قائلا : « اما اذا اتفق الاخشيديون وولوا من يصلح للولاية ولم يؤذونا فى أموالنا وارواحنا فمن ضعف الرأى ان نستبدل بهم غيرهم . الا توافقنى على ذلك ؟ »

فأبرقت أسرة الطبيب شالوم من سماع ذلك الـكلام لأنه لسان حاله ، فابتسم وقال : « بارك الله فيك يا معلم لقد نطقت بلسـانى وعبرت عن جنانى . نحن متفقان و . . »

فقطـع كلامه قائلا : « لم اشـاهد الامير كافور منذ امس ، لانى شـغلت عن الذهاب اليـه بسبب سأقصـه عليك . كيف هـو اليوم ؟ » .

قال وهو يرفع حاجبيه : « انه ليس على ما يرام . كانت الحمى شديدة عليه فى هذا الصباح ، وكنت اتوقع هبوطها فلم تهبط رغم ما اتخذته من الوسائل ولما أعيتنى الحيلة رجعت الى كتاب الرازى واخذت اطالع فيه . وخطر لى ما نتوقعه من تبدل الأحوال فرأيت أن آتى اليك فحملت الكتاب معى ولم أكلف غلامى حمله فى جملة ما يحمله من الادوات والعقاقير.»

فلما ذكر الطبيب غلامه انتبه يعقوب لأمر لمياء فالتفت نحوها فرآها تتمشى فى الحديقة كأنها تتشاغل بمشاهدة الرياحين والمياه الجارية فى الأقنية وبينها الحصى مرصوصة صفوفا ، وهناك طوائف من الطيور الأهلية بألوانها الزاهية بين سارح وحبيس ، ولم تكن لمياء ترى ما بين يديها كما يراه المتفرج لاشتغال خاطرها بسالم والطريقة المؤدية الى مشاهدته

ثم التفت يعقوب الى الطبيب وقال له : « لقد اذكرتنى امرا اتوسل اليك فى قضائه . اترى هذا الغلام ؟. »

قال : « نعم اراه ، اليس هذا الرسول الذى نتكلم عنه ؟ »

قال : « بلى . واحب ان اكلفك امرا يتعلق به »

قال : « حبا وكرامة . ما هو ؟ »

فقال يعقوب : « أتعرف ذلك البربرى الذى يتردد على مجلس الامير ؟ »

قال : « اظنك تعنى الرجل الغريب الاطوار ذا العينين البراقتين الغائرتين والأنف الأعقف والشاربين المسترسلين ؟ »

قال : « نعم اعنيه ، واعنى شابا يرافقه فى أكثر الأوقات »

قال : « هو سالم ابنه أو ابن اخيه على ما اظن . نعم اعرفهما يترددان على الأمير كثيرا ، وأنا استغرب أمرهما ولا أعلم لهما محلا سوى .. »

فقطع يعقوب كلامه قائلا : « أنا اعلم انهما يحرضان اميرنا على فتح القيروان ! »

فدهش الطبيب وقال : « اين نحن والقيروان ؟! الا يكفينا ما يشغلنا . وما الذى تريده منى ؟ »

قال : « ان هذا الغلام يطلب أن يحضر مجلس كافور ويسمع ما يدور فيه خصوصا عند وجود سالم وعمه . ولكيلا أخفى عليك شيئا . اخبرك أن هذا الرسول ليس غلاما وانما هو فتاة بلباس الغلمان . فاحفظ ذلك سرا ، لأن لها شأنا خاصا مع سالم هذا . وقد بلغها عنه اقوال قالها لكافور لم تصدقها فأحبت أن تسمعها

باذنيها . فالذى أراه أن تأخذها معك عوضا عن غلامك الذى يحمل لك الأدوات والعقاقير ، وتدخلها دار الأمير لتكون بمشهد ومسمع »

فاستغرب شالوم كونها فتاة وقال : « لا بد لهذه الفتـاة من حديث هام وقد تاقت نفسى لرؤيتها . ادعها لاعرفها »

فحول يعقوب بصره نحوها فانتبهت لمياء فأشار اليها فأسرعت وقد توردت وجنتاها فظهرت الانوثة فيها . ولـكن القوة كانت بادية فى وجهها وسائر حركاتها . فأعجب الطبيب بهيبتها وجمالها وبريق عينيها . فلما دخلت قال يعقوب : « هذا الطبيب شالوم طبيب مولانا الامير كافور وهو صديق حميم أثق به كثيرا وقد أطلعته على مرامك واتفقنا على أن تحضرى مجلس كافور وتشاهدين كل ما تريدينـه هناك » . وضحك

فادركت من مخاطبته اياها بالتأنيث أن الطبيب مطلع على حقيقة أمرها ، فبانت البغتة فى عينيها واطرقت . فابتدرها يعقوب قائلا : « لا تخجلى يا بنية من اطلاع الطبيب على حقيقتك ، فانه على رأيي فى كل شيء . وسيأتي اليك بثياب تتنكرين بها فلا يظن من يراك الا انك غلام الطبيب شالوم وتمكثين هنا حتى يأتى هو فتذهبين معـه اصيل اليوم واكون انا قد سبقتكما الى هناك . ولابد لى من الذهاب حالا لأنى اطلت الغياب عن المجلس . وانما شغلنى عنه القيام بأمرك . فامكثى هنا ريثما تأتى الثياب وتلبسينها وسأوصى قيمة المنزل بك خيرا وكل ما تطلبينه يقضى »

فسكتت وقد شغل خاطرها بهذه المهمة وما فيها من التجسس التى تأنف منه . ولـكنها تحملت ذلك بغية كشف حقيقة الرجل الذى خانها فى عواطفها

ثم نهض الطبيب وودعهما وانصرف على أن يبعث بالثوب والأدوات والعقاقير ، ثم ودعها يعقوب بعد أن لبس الثوب الذى يلقى به الأمير ومضى اليه

وبعد قليل أتت أدوات الطبيب ، فلبست لمياء ثوب غلامه كمـا كانت العادة يومئذ ، وعلقت جرابا من الديباج بعنقها وفيـه ادوات الجراحة وبعض العقاقير الضرورية . فأصبح من يراها لا يشك فى انها غلام الطبيب شالوم . ثم مكثت فى انتظاره

فى سرادق كافور

جاء الطبيب على بغلته الى دار يعقوب فى أصيل ذلك اليوم ، وأومأ الى لمياء أن تتبعه على بغلة ساقها اليها . فركبت وعلقت الجراب فى عنقها . ولم يمض كثير حتى أشرفا على البستان الاخشيدى وفيه السرادقات والاعلام وقد وقف الحجاب ببابه والجند حول السرادقات بين ماش وواقف . ولم يدن الطبيب من باب البستان حتى تصدى له كبير الحجاب وقال : « أن الامير فى انتظارك على أحر من الجمر »

فقال : « كيف حاله الآن ؟ »

فهز الحاجب كتفيه وقال : « يقولون انه أحسن »

فترجل واشار الى لمياء أن تترجل وتتبعه ففعلت ومشت وهى تراقب كل شىء . فرأت الوجوه متغيرة والقوم هناك يجتمعون ويتفرقون زرافات كأنهم يتساءلون عما سيكون اذا مات كافور . فمرت بين السرادقات فى طريق مستقيم يؤدى الى سرادق كبير مبطن بالحرير الأحمر وقد أرخيت عليه الأستار المزركشة ونصب العلم فى قمته . ووقف ببابه حاجبان بلباس خاص وفى يد كل منهما رمح قناته مكسوة بالديباج

فلما دنا الطبيب من باب السرادق وسع له الحاجبان،فدخل واشار الى لمياء أن تدخل معه ، فلما دخلت كان أول شىء استلفت انتباهها سعة ذلك السرادق واحرار باطنه ، وقد فرشت أرضه بالبسط الجميلة واقيمت فى جوانبه منائر من الفضة غرست فيها الشموع، ومواقف عليها المباخر يتصاعد البخور من بعضها . وقد علقت على أعمدته الاسلحة من السيوف والحراب والاقواس . وفى وسط السرادق دكة فوقها قبة قائمة على أربعة أعمدة كالمظلة وقد استرسلت الستائر من جوانبها الثلاثة وترك صدرها مكشوفا ليظهر سرير الامير للداخل من باب السرادق . والسرير مصنوع من الآبنوس المنزل بالعاج مكسو بالفرش الوثير وأصله من أسرة بنى طولون

وكان كافور مستلقيا على السرير ، ولكن لمياء لم تره لانه كان غارقا فى الفراش المصنوع من ريش النعام . ورأت الى جانبى القبة جماعة واقفين باحترام واهتمام علمت انهم خاصته وأحباؤه ، غير الغلمان

والاعوان . فاجالت نظرها فيهم لعلها تجد سالما بينهم فلم تجـــده وادركت اهتمام القوم من وقوفهم على الأقدام مع وجود المقـــاعد والأرائك والوسائد لجلوسهم

أما الطبيب فظل ماشيا نحو السرير وقبل ان يدنو منه برز له من جانب القبة رجل عرفت لمياء لنه يعقوب بن كلس قد لبس ثوبابليق بذلك الموقف . وتقدم يعقوب لملاقاة الطبيب بلهفـة كانه لم يره من قبل وقال له : « لقد أبطات علينا ايها الطبيب »

فقال : « فارقت مولانا الامير وانا ارجو تقدمه الى الصحة ، فهـل طرأ عليه طارىء ؟ »

فقال يعقوب : « لا بأس عليه انه اليوم احسن من ذى قبل » . قال ذلك بصوت عال ليسمعه كافور على عادتهم فى طمانة المريض وتخفيف جزعه . لكنه اشار اليه همسا ان الحال تدعو الى القلق

فتقدم شالوم حتى دنا من السرير واشار الى غلامه أن يتبعه ليكون قريبا منه اذا احتاج الى عقار . فدنت لميـاء من ذلك السرير المغشى بالاغطية المزركشة بالالوان الزاهية تكسوه كله الا بقعة صغيرة عنـد الراس شديدة السواد هى وجه كافور ، قد ازيح عنه الغطاء ، وكان سواده قبل ذلك يلمع ولكن شدة الضعف اذهبت لمعانه اذ خالطـه الاصفرار . وكان قد أغلق عينيه كانه نائم وقد برز فكاه من الضعف فافترقت شفتاه وبرزت اسنانه البيضاء من بينهما

فلما احس كافور باقتراب الطبيب منه فتح عينيه واجال بصره حتى وقع نظره على الطبيب فبان الاهتمام فى تينك العينين الحمراوين . وكانه اراد أن يبتسم فلم يزدد منظره الا تكشيرا فاسرع الطبيب الى يده وجس نبضها وهو يظهر الرضا من حال النبض . والتفت الى كافور وقال : « ان مولاى احسن حالا اليوم منه أمس بحمد الله » . والتفت الى احد الغلمان الوقوف فى خدمة كافور وقال : «اين قارورة الماء ؟ » . يعنى زجاجة البول

فاتوه بزجاجة فيها السائل فتامله وتفحصـه ثم عاد الى السرير وهو يبتسم ويظهر الرضا وقال : « كيف ترى نفسك يا سيدى ؟ »

فقال : « انى أشعر بضعف ودوار »

قال : « هذا امر بسيط . الى يا غلام » . واشار الى لمياء

فتقدمت وفتحت الجراب فاخرج منه قارورة صغيرة فتحهـا وادناها من انف كافور ، فلما استنشقها احس براحة وانتعاش وبان ذلك فى عينيه وجبينه ، فتحرك فى فراشه كانه يريد الجلوس فاعانه الطبيب على ذلك وساعدهما يعقوب واسنداه بوسـادة من الوراء . فجلس وتناول مذبة كانت بجانبه ليطرد بها الذباب وهو كثير فى تلك

الساعة . ولم يشأ أن يتولى ذلك عنه أحد. فتقدم يعقوب وهو يبدى الاهتمام وقال : « ان الذباب كثير فى هذه الساعة وسـيدي الامير منحرف المزاج ، الا تأذن لى أن آخذ المذبة عنك أو تأمر أن يقوم هذا الغلام باسـتعمالها » . واشار الى لمياء . والتفت الى الطبيب كأنه يستشيره

فتقدم الطبيب وقال : « ان الامير فى حاجة الى الراحة » . ومد يده وتناول المذبة من يده ودفعها الى لمياء وأشار اليها أن تقف وراء السرير تطرد الذباب عن وجه كافور بدون أن تزعجه . وتكون قريبة منهم . وأدار كافور عينيـه فى جوانب السرادق كأنهما سراجان موقدان . ثم نظر الى شالوم وقال : « بارك الله فيك أيها الطبيب أنى اشعر براحة الآن »

فقال الطبيب : « وستشعر براحة أكثر بعد قليل . ومد يده الى الجراب فاخرج منه قارورة فيها سائل صب منه قليلا فى قدح ودفع القدح الى كافور فشربه فازداد انتعاشا والتفت الى يعقوب وقال : « اننا لا ننسى فضل طبيبنا هذا ، بارك الله فيه انه صديق محب »

فقال يعقوب : « كلنا عبيد مولانا نفديه بأرواحنا ، فالحمد لله على سلامته ولا ارانا الله مكروها فيه »

قال : « لله أنت يا يعقوب ! . انك موضع ثقتنا ، وسوف نكافئك على مودتك وصدق خدمتك »

فقال : « انما نطلب أن يعافى الأمير وهذا خير مكافأة »

فقال الطبيب : « ان مولانا بحمد الله فى عافية ولا يلبث أن يخـرج على جواده فى البساتين او يركب حراقته صعودا فى النيل »

فهز كافور رأسـه وقال : « ان شاء الله .. ان شاء الله » . ويبدا الشك فى صوته . واشار الى الوقوف بالخروج ولم يبق الا الطبيب ويعقوب ولمياء واقفة عند رأسه

فلما خلا لهم المكان التفت كافور الى يعقوب وقال : « ان الطبيب حفظـه الله طمأنني وخفف عنى وقد صدقتـه لكننى ضعيف وأخاف . . . » . واختنق صوته

فابتدره الطبيـب قائلا : « لا ينبغى لمولانا أن يشـك فى قولى ، أو يفكر فى امر لا يسره . انى لا اعول فيما أقوله على فعل العقاقير فقط ولكنى استبشرت ايضا من دلالة النجوم فقد تفقدت الطالع مسـاء امس فوافق ما أتوقعه. أنت يا مولاى فى صحة والتوفيق خادم لك»

قال : « هذا ما أرجوه ولكن كيف اطمئن لحالي وأنا أرى ما أراه من الضعف ؟ » . ثم وجه كلامه الى يعقـوب وقال : « بل كيف يرتاح خاطرى وانا ارى أحوال هذه الدولة ؟ . أنت تعلم يا يعقـوب ما فى

قلبى واحب أن أشرك طبيبنا فى الامر لوثوقى به ، وقد سلمت اليه روحى أفلا ابوح له بسرى ؟ . إنا لا أثق بأحد من هؤلاء الذين ترونهم حولى . انهم لا يلبثون اذا لفظت نفسى الأخير أن ينقلبوا على ، ولا ابالى هذا ، ولكنى أخاف على هذه الدولة ، اذا مت ، فان الامارة تفضى الى غلام فى الحادية عشرة من عمره هو صاحب الحق فيها . أو يتنازعها اعمامه والقواد فتفسد الأمور و ... » . وتنحنح وكأنه ندم على ما قاله فصمت وقال : « ولكن لا . انى سأعيش ريثما أدبر شؤونها . اليس كذلك أيها الطبيب ؟ »

فأسرع الى الجواب وقال : « بلى يا سيدى هذا هو اعتقادى »

فتزحزح كافور فى فراشه فنهض الطبيب وقال : « يحب مولاى أن ينام ؟ »

قال : « لا . لا ارى بى ميلا الى الرقاد لكنى أحببت أن أغير وضعى . هل رأيت وزيرنا أبا الفضل (ابن الفرات) اليوم يا يعقوب ؟ »

قال : « كلا ياسيدى لم أره .. هل تريد أن ابلغه أمرا ؟ أم تحب أن ندعوه اليك الى هنا . ؟ »

قال : « لا لكننى استبطأته . ولعله لم يشأ أن يأتينى بما يشغل ذهنى بأمور الدولة وآثر لى الراحة . »

وهم يعقوب بأن يجيبه فرأى الحاجب دخل ووقف فى المكان الذى يقف فيه اذا كان آتيا بخبر فقال له كافور : « ما وراءك ؟ »

قال : « أن أبا حامد بالباب يا سيدى »

فلما سمعت لمياء اسمه أجفلت وتسارعت دقات قلبها حتى كاد ذلك يظهر عليها ، ولحظ يعقوب اضطرابها فأومأ اليها أن تتجلد . فانزوت وراء عمود القبة والمذبة بيدها بحيث لا يظهر وجهها ولا ينتبه لها أحد . وكان كافور يستأنس بالطبيب لما فى كلامه من الذكاء وما ينسطه بين يديه من الآمال فقال له : « هل تدخل هذا الرجل علينا الآن . هل ترى بأسا من ذلك ؟ انه طلى الحديث حاد الذهن ولا يختار من الاحاديث الا الطلى ، وكلما زدناه اهتماما بسماع حديثه زادنا مغالاة فى غرائبه . انه لطيف المعشر »

فقال الطبيب : «انك يا مولاى فى حاجة الى من يؤانسك بالأحاديث الطلية المفرحة ، فاذا كنت تجد فى حديثه شيئا من ذلك فادعه .. »

ونظر كافور الى يعقوب كأنه يستشيره فقال : « اذا شاء مولاى أن ندخله فليشترط عليه أن يقص علينا شيئا كالذى قصه مرة من الأخبار المفرحة »

قال : « لكنه قصها علينا سرا »

فتصدى الطبيب للكلام قائلا : « اذا كان وجودي مانعا من سماع الاخبار المفرحة فاني منصرف » . وتحفز للانصراف

فأشار اليه كافور بكلتا يديه أن يبقي وقال : « اذا استغنيت عن رجال الدولة جميعا لا استغني عنك . ولا أرى بعد ما رأيته من صدق مودتك وجميل صنيعك أن أخفي عليك سرا كهذا . فليدخل الرجل ويقص ما يقصه وأنت حاضر ولنفرح معا اذا كان فيه ما يفرح » . وأشار الى الغلام أن يدخل أبا حامد

فقال الغلام : « هل يدخل وحده أم يدخل معه رفيقه ؟ »

قال : « ليدخل الاثنان »

فادركت لمياء أن رفيقه هو سالم بعينه فأخذت تتجلد . وكانت الشمس قد مالت الى الغروب وأخذ الفراشون ينيرون الشموع فاصبحت لمياء تخفيها ظلال الستائر بحيث لا ينتبه لها احد وهي ترى كل حركة وتسمع كل صوت . ولم تبق حاجة الى المذبة بعد الغروب وقد خفت وطأة الذباب . ونسي كافور وجودها عند راسه فوقفت لا تتحرك . وبعد قليل دخل ابو حامد وقد تزيى بغير زيه المعهود ، ودخل سالم في أثره وقد تغير شكله وهندامه حتى كادت تنكره لكنها ما لبثت أن سمعته يلقي التحية حتى تحققت انه هو بعينه . فخفق قلبها وارتعدت فرائصها وهي تتجلد وتتمالك لترى ما يكون . على أنها لم يكد يقع بصرها عليه حتى تذكرت تاريخ معرفتها به وكيف كانت تتفانى في حبه ، وودت في تلك الساعة أن يخرج بريئا من تلك التهم ، واستعاذت بالله ان يكون كما قيل لها عنه ، وندمت على مجيئها الى ذلك المكان لتسمع أقواله بأذنها . وخافت اذا سمعت شيئا يثير غضبها الا تقوى على امساك عواطفها فيفتضح امرها لكنها استجمعت قواها وتجلدت

□

اشار كافور الى أبي حامد وسالم بالجلوس على كرسيين بين يديه، فجلسا متأدبين . وتصدى أبو حامد للكلام فقال : « كنا في قلق عظيم على صحة مولانا الامير اعزه الله ، ونرجو أن يكون قد عوفي » . فتصدى الطبيب شالوم للجواب نيابة عن كافور تخفيفا عنه وقال : « ان سيدي الامير في عافية ، وهو أحسن اليوم من ذي قبل ولايلبث ان ينهض من الفراش »

فقال كلاهما معا : « الحمد لله . الحمد لله على ذلك . ان اعتلال

الامير تعتل به الأمة كلها ولا سيما الآن وقد دنا الوقت الذى يظهر به نجمه ويتسع سلطانه »

فقال الطبيب : « ان مولانا الأمير فى حاجة الى التسلية بما يفرحه، وهو العلاج الذى يفيده حقيقة ، فهل عندك شيء من هذا القبيل ؟ »

وهنا قال يعقوب : « لا أنسى حديثا سمعته منكما فى حضرةالامير . ورأيت مولاى انبسطت نفسه منه »

فقال ابو حامد : « اظنك تعني حديث . . » . والتفت نحوالطبيب ولسان حاله يقول : « ان هذا الحديث لا يتلى جهارا »

وكان كافور يسمع ويرى فلما راى اشارة ابىحامد قال:«لاتحتشم من وجود طبيبنا انه موضع ثقتنا »

فوقف الطبيب واظهر انه مستعد للخروج . فاشار اليه كافوران يجلس فجلس والتفت الى يعقوب كأنه يستشيره فقال : « تفضل يا سيدى قل »

فاعتدل ابو حامد فى مجلسه وقال : « لا يحلو تكرار حديثنا ان لم يكن مشفوعا ببشائر النجاح . وقد جئنا الليلة نحمل بشارة يفرح لها كل مسلم يريد ان يستقر الحق فى نصابه »

فقال يعقوب : « وما ذلك ؟ »

قال : «قصصت عليكم فى المرةالماضية ما دبرناه فىسبيل نصرةالحق بانقاذ الدولة الاسلامية من ادعياء الخلافة فى المغرب . اعنى القوم الذين انتحلوا لانفسهم نسبا كاذبا فى القيروان وزعموا انهم من نسل فاطمة الزهراء . ان زعيمهم الذى سمى نفسه المعز لدين الله قد أصبح الآن فى عالم الاموات . ولا بد من اضطراب دولته وقيام امراء كتامة وصنهاجة عليه ، وانما نحتاج الى جند يبعث به الأمير اعزه الله الى اولئك الامراء حتى يلتفوا حوله ويسلموا الأمر اليه . فيدعى له على منبر القيروان كما يدعى له الآن على منابر مصر والشام والحجاز وحلب وانطاكية وطرسوس . فيستقيم له الأمر وحده ولا يبقى لمنافسيه هنا مطمع فى شيء لأن الباقين من آل الاخشيد غلمان ونساء لا يستطيعون عملا »

وكان كافور جالسا ينظر الى ابىحامد وقد سرى عنه وبان السرور عليه ، فلما سمع قوله ازداد سرورا وتنهد وقال : « انى لا البث ان أعمل بذلك حالما أنهض من الفراش باذن الله » . والتفت الى الطبيب كأنه يستشيره فى ذلك

فقال الطبيب : « قريبا ان شاء الله » . والتفت الطبيب الى ابى حامد وقال : « يلوح لى انك واثق من نجاح هذه المهمة ؟ »

فقال : « انى لا اقول غير الحق ، وانا منذ أعوام أعد المعدات وأهيىء

الاحزاب واجمع الاموال . انى على ثقة من انضمام قبائل البربر كلهـا لنصرة الامير أبى المسك اعزه الله . وانما كان ينقصنا أن نتخلص مـن رجلين هناك خدمهما الحظ حينا فغلب عليهما الغرور وقد ماتا الآن»

قال يعقوب : « من تعنى ؟ »

قال : « أعنى المعز وجوهر قائده. انهما ماتا الآن ولا يمضى الا بضعة ايام حتى تاتينا كتب الأمراء بذلك »

فاحب يعقوب أن يسمع لمياء كلام سالم عن نفسـه فوجه اليـه الخطاب قائلا: «ان الفضل فى هذا النجاح ليس للأميرابى حامد فقط وانما هو لك ايضا . وان حيلتك التى قصصتها فى المرة الماضية غريبـة فى بابها » . وضحك تحريضا له على التصريح

فقال سالم : « ان الفضل الاكبر لهذا الأمير ، وهو صاحب الراى الاعلى ، وعنده الرجال والأموال . واما انا فعملى مقصور على اغراء فتـاة جاهلة توهمت انى أحبها فاتخذناها وسـيلة لخدمة صاحب مصر ايده الله ! »

ولا تسل عن لمياء وما أصابها عند سماع هذا الكلام . ورغم تجلدها احست أنهـا مدفوعة لتكذيبه ، وحدثتهـا نفسها ان تتقدم فى تلك اللحظة وتكشف الحقيقة . وكان يعقوب يلاحظ حركاتها ويشير اليها خلسة أن تتجلد

وفيما هم فى ذلك راوا كافورا يتحرك فى سريره حركة غير مالوفة وقد تغيرت سحنته فانتبه له الطبيب ونهض اليه فرآه قد أصيـب بنوبة سعال شـديدة . فأومأ الى القوم بالانصراف حالا فنهض ابو حامد وسالم وخرجا ، واشتغل الطبيب بمعالجـة كافور ، فاشار الى لمياء ان تاتى بالجراب فأسرعت وفتحت الجـراب ويداها ترتعدان من التاثر وقد احمرت عيناها من الـكظم،فتناول الطبيب قارورة وقربها من انف كافور واعانه يعقوب على ذلك ، وكافور لا يزداد الا سـعالا حتى كاد يغمى عليه

وشغلت لمياء بهذا المنظر عما جال فى خاطرها ، وقضوا ساعة وهم يسعفون الامير بالعلاج حتى سكن السعال ومال الى الرقاد

ثم جس الطبيب نبضه وقال : « انه مرتاح الآن فينبغى ان نتركه نائمـا »

فقال يعقوب : « نذهب نحن اذن ؟ »

قال : « نعم . اما انا فلا اتركه اذ أخشى أن تعاوده النوبة »

فقال يعقوب : « أنا ذاهب مع غلامك هذا وسأترك عندك احـد غلمان الأمير يقدم لك الجراب اذا مست الحاجة »

ففهم الطبيب مراده فوافقه فدفعت لمياء الجراب اليه وخرجت مع يعقوب وركبتاها ترتعدان من هول ما سمعته ورأته وعيناهاشائعتان خارج المعسكر تبحث عن ابي حامد وسالم فلم تر لهما أثرا

ولحظ يعقوب قلقها وأدرك ما يجول في خاطرها ، فأشار اليها أن تتبعه . فوقفت وهي تكاد تسقط من شـدة الاضطراب والغضب وقالت : « لا أستطيع المشي يا سـيدي .. بالله ماذا رأيت ؟ . ويل لك يا خائن ! »

فالتفت يعقوب اليها فرأى وجهها قد امتقع وتغيرت سـحنتها ومشت وهي تتساند وتخاف السقوط . فأشار الى السـائس أن يقدم لها الدابة فأسرع الى تقديها وأعانها حتى ركبت وركب هو دابة أخرى في أثرها ، ولحظ في أثناء الطريق أن لميـاء منزعجة فأحس أنه مسئول عن سبب انزعاجها لانه هو الذي جمعها بذلك الخـائن ، واذا أصابها سوء فمن شدة تأثرها مما سمعته ورأته

وبعد قليل وصلا الى منزل المعلم يعقوب فترجل والتفت الى لمياء فاذا هي لا تزال على بغلتها لا تتحرك ولم يعهـد بها ذلك التواني . فتقدم نحوها ومد يده ليعينها على النزول . فلما لمس يدها أحس بسـخونتها وجفافها فاقشعر بدنه فنـاداها أن تنزل فنزلت وهي لا تستطيع حراكا فنادى بعض الخدم فأعانوه على حملهـا الى دار النساء وهي غائبة عن رشدها كالمائتة

فتأسف يعقوب لما أصابها ، ونادى قهرمانة منزله وأشار اليها أن تسعف الفتاة ريثما يأتي الطبيب . وبعث رجلا يدعو الطبيب شالوم اذ لا يريد أن يطلع احد غيره على وجودها عنده

□

ظلت لمياء غائبـة رغم ما استخدموه في ايقاظهـا من المنعشات والمنبهات ، وأبطأ الطبيب في الحضور لاشتغاله بالأمير كافور ، فاشتد القلق بيعقوب وأصبح لا يدري ماذا يعمـل ، فخطر له أن يبعث الى الشريف مسلم لانه ذو شأن في الامر ، فبعث اليه فجاء ولمياء لا تزال في تلك الحال ، فسأله عن أمرها فقص عليه حقيقة خبرها . فجس نبضها فاذا هو يسرع كثيرا فعلم أنها مصابة بحمى شديدة وان الاولى أن ينقلهـا الى منزله ليخدمها أهله ريثمـا يأتي الطبيب . وكان قد استلطف الفتاة قبل أن يطلع على حقيقة أمرها مع الحسين بن جوهر وغيرتها على المعز وخبرها مع سالم ، فلما اطلع على الحقيقـة أحس بانعطاف شديد نحوها

وامر بمحفة حملوها عليها الى منزله واخذ على عاتقه ان يعالجها طبيبه .

قضت لمياء فى تلك الغيبوبة اياما لا تأكل ولا تشرب غير ما يسقونها رغم ارادتها . ثم افاقت وقد شحب لونها وبان الضعف فى عينيها وحالما افاقت التفتت الى ما حولها وقد استغربت كل شيء ، لكن الناظر فى عينيها يرى انها لا تزال تائهة رغم حركتها والتفاتها . وكان فى الغرفة ساعتئذ الشريف مسلم نفسه وامرأة من أهله فتقدمت المرأة نحوها وقالت : « ماذا تريدين يا حبيبتى ؟ »

فلم تجبها لكنها عادت الى استغراقها . وكانوا قد أعدوا لها لبنا تشربه فلم تستطع ذلك لأنها عادت الى الرقاد، فأمر الطبيب أن تسقى اللبن كرها . وكانت الحمى قد انخفضت ولم يطل مكث الغيبوبة هذه المرة . ففي صباح اليوم التالى سمعوها تئن أنينا شديدا كأنها تشكو ضيقا . فأسرع مسلم اليها فسمعها تقول بأعلى صوتها : « حسين ! حسين ! تبا لهم قبضوا عليك .. دعوه قبحكم الله .. اما كفاكم ما فعلتموه بأبى ؟ .. آه آه .. » . وسكتت ثم فتحت عينيها فجأة والتفتت الى مسلم وهو واقف الى جانبها وتفرست فيه وقد عاد اليها رشدها فعرفته فقالت : « العفو يا سيدى . أنت هنا . أين انا ؟ ماذا جرى لى . اين الحسين ؟ قد قبضوا عليه ؟ .. ويل لهم .. » . وشرقت بدموعها

ثم تراجعت وكأنها انتبهت الى نفسها وادركت ان الحسين ليس هناك ، فبان الخجل فى وجهها . فتقدم الشريف نحوها بلطف وقال لها : « ما بالك يا بنية ؟ انك تهذين أو تحلمين ، لا تخافى انك فى منزلى وانت اعز من ولدى ! »

فأخذت تفرك عينيها بكلتا يديها وهى تنظر الى ما حولها وقالت : « لست خائفة يا سيدى . لست خائفة . ولكن الحسين بن جوهر . رأيتهم اخرجوه مغلولا فى فج الأخيار .. واولئك اللصوص حوله كالزبانية .. رأيتهم رأى العين ! »

فقال : « انت يا لمياء فى الفسطاط . وبيننا وبين فج الأخيار مسيرة أيام .. خففى عنك . وعودى الى رشدك .. لا بأس عليك . وبعد هنيهة يأتى الطبيب ويشير بما يجب أن تفعلى »

قالت : « الطبيب ! واى طبيب ؟ انى لا اشكو مرضا ولكننى اشكو ظلما وخيانة . قالت ذلك وغصت بريقها واغرقت فى البكاء حتى ملأ نحيبها الدار . فبعث الشريف يتعجل الطبيب فأتى والفتاة مستغرقة فى البكاء فجس نبضها ثم أشار عليهم الا يخاطبوها ولا يقصوا عليها خبرا بل يكتفوا بالغذاء الخفيف . ووصف لهم ما ينبغى عمله والح

عليهم ان يبركوها هادئة ساكنة ما استطاعوا :

ظلت لمياء في الفراش أسابيع لا يخاطبها احد الا فيما لا بد منه ، وهي تصحو تارة وتغيب أخرى ، والطبيب يتردد عليها ويصف الادوية والاغذية حسب الحاجة . ويعقوب يأتي كل يوم للسؤال عنها ويأسف أشد الاسف لما أصابها على يده — رغم اشتغاله في تلك الفترة بأمور ذات شأن أهمها موت كافور وانتقال الامارة الى احمد بن علي بن الأخشيد وهو غلام لم يتجاوز الحادية عشرة . وتحول النفوذ الى جعفر بن الفرات وزير كافور . ولم يكن ابن الفرات يستطيع عملا في حياة كافور ؛ فلما صارت الامارة الى ذلك الغلام استبد هو بالامر وأخذ في مطاردة رجال الدولة ومصادرة الأغنياء . وكان يعقوب من حملة المهددين وخاف أن يصل الدور اليه فاستتر . وكان يقضي أكثر أوقاته عند الشريف مسلم بن عبيد الله بحجة السؤال عن لمياء ، ويتحادثان في شؤون الدولة ويرون قرب سقوطها ، لكنهما لايتحدثان في شيء من ذلك أمام لمياء عملا باشارة الطبيب

وبعد مدة تقدمت لمياء نحو الصحة واصبحت في شوق الى استطلاع الأحوال ، والطبيب يشير بالتزام الصمت ، وبعد مدة أخرى اذن لهم أن يخاطبوها في الشؤون التي تريدها . وكانت لا تزال تتردد الى الفراش وتنزل الى الحديقة أو تمشي في الدار . ورأت وجهها في المرآة فانزعجت مما صارت اليه من الضعف فبكت وعاد اليها رشدها فتذكرت ما انتابها في تلك المدينة وكيف خلفت اهل القيروان على مثل الجمر في انتظار أخبارها من مصر . وتذكرت انها رأت الحسين خطيبها مغلولا أو رأتهم يوثقونه ويضربونه كأنها رأت ذلك في يقظة

كانت هذه الخواطر تمر بذهنها في أواخر أيام النقه ولا تجسر على التصريح لأحد بها . فلما اذن لها الطبيب في الكلام طلبت يعقوب وسألته عما جرى في اثناء مرضها،فقص عليها ما كان من موت كافور وتنصيب احمد بن علي

فقالت : « ألم تبعثوا بذلك الى القيروان ؟ »

فابتسم ونظر الى مسلم فابتسم أيضا وفي وجهيهما علامات البشر فقالت : « ما الخبر ؟ »

قال يعقوب : « الخبر خير يا لمياء . ان أهل القيروان علموا بكل ما جرى هنا وقد جاءوا الينا بخيلهم ورجلهم »

فصاحت : «أتوا الى هنا ؟ القائد جوهر أتى ؟ المعز اتى ؟ اين هم ؟»

فقال : « المعز لم يأت ولكن القائد جوهر جاء بجند كثيف ونزل الاسكندرية ووقع الرعب في قلوب المصريين . ولا ندري ما يكون »

فاطرقت لمياء وقد بان البشر في محياها . وأحست بنشاطها الأول كأنها كانت في رقاد وأفاقت . وتذكرت مهمتها التي جاءت من أجلها وانها لم تستطع عملا تخدم به المعز لأن المرض عاقهـا . ثم تذكرت ما رأته من سالم فاقشعر بدنها فقالت : « وماذا جرى لذلك الخسائن وعمه ؟ »

قال : « لا أدري لأني لم أرهما من يوم الجلسة ، واظنهما يشتغلان في دس الدسائس في قصر السيدة زينب بنت الأخشيـد بعد موت كافور وضياع أملهما ! »

فلما سـمعت اسم بنت الأخشـيد تذكرت اشياء أخرى هاجت اشجانها ، فأطرقت ومسلم ويعقوب يلاحظانهـا ولا يتكلمان . ثم انتبهت فجأة . وقالت : « ماذا جرى لأمتعتي وجوادي ؟ »

قال يعقوب : « اي أمتعة تعنين ؟ »

قالت : «اعني ما حملته معي من الثياب والأمتعة من القيروان وتركته في الفندق مع الجواد والخادم والدليل »

قال يعقوب : « أيّ فندق ؟ ان الفنادق كثيرة هنا . . »
فقالت : « في الفندق الذي هداني صاحبه الى منزلك »

قال : « لم انتبه له »

قالت : « لقد آن لي أن أخرج من البيت ولا خوف علي . أخـرج بالثوب الذي يعرفني صاحب الفندق به فالاقيـه وادفع له أجرته وآتي بالأمتعة . . والحق يقـال اني احس بقصوري في خدمة أمـير المؤمنين وقد شغلت عن خدمته بخدمة نفسي ثم شغلني المرض »

قالت ذلك ووقفت وقد عاد اليها نشاطها والتفتت الى مسـلم وعيناها تنطقان بالشكر على ما ابداه من الغيرة . فأجابها على الفور : « انك ستعودين الينا وتنزلين في دارنا . بل الأفضل أن تمكثي هنـا فنرسل من يأتي اليك بالأمتعة والجواد »

قالت : « افضل الذهاب بنفسي وسأعود الليلة أو صباح الغد ان شاء الله »

فقال مسلم : « بل تأتين الليلة »

فأشارت مطيعة ، واختلت في غرفة لبست فيها ثوب الصقالبـة الذي دخلت به الفسـطاط ، واستأذنت في الانصراف وخرجت ، وتذكرت الطريق التي جاءت بها وتوهمت أنها مرت فيها منذ بضعة ايام لا منذ بضعة أشهر . فلما وصلت الى الفندق استقبلها صاحبه بالترحاب وأبدى الاستغراب لما رآها فيه من التحـول وسألها عن

سبب غيابها ، وذكر انه شغل عليها كثيرا حتى خاف أن تكون قد ماتت ، قال ذلك بين الجد والهزل

فاستلطفت مجونه وقالت : « الحمد لله انى لا ازال حيا (لأنه يعرفها غلاما صقلبيا) وماذا كنت تفعل بالجواد لو كنت مت ؟ »

قال : « اى جواد ياسيدى »

قالت : « الجواد الذى جئت عليه »

قال : « ان الجواد أخذه رفيقاك ومضيا » . يعنى الدليل والخادم

قالت : « وكيف أذنت لهما فى ذلك ؟ »

قال : « لما استبطا قدومك استأذنا فى الانصراف » . وضحك لهذا التعبير

فقالت : « وماذا فعلتم بثيابى وامتعتى ؟ »

قال : «هى باقية فى الغرفة التى كنت نازلا فيها فى صندوق مقفل ، وقد جاء بعض المسافرين واستأجروا الغرفة منى فأبقيت الصندوق فى بعض جوانبها على ما أظن »

قالت : « أعطنى الأمتعة أين هى ؟ »

قال : « هى هنا ادخل يا سيدى » . ومشى الى الغرفة التى باتت فيها ليلة وصولها الى الفسطاط ، وهو يتثاقل فى مشيته وهى تتبعه . فلما دنا من الغرفة عالج بابها فوجده مغلقا فقال : « لا ادرى لماذا يغلقون الغرف كأنهم يخافون أن أسرق ثيابهم ؟ »

قالت : « ألا تستطيع أن تأتينى بالامتعة الآن ؟ »

قال : « كلا . أخاف أن أفتح الباب فى غيابهم فيتهمونى بالسرقة . ليس كل الزبائن كرماء الأخلاق والوجوه مثلك يا سيدى . وهم لا يلبثون أن يأتوا . فهيا ننتظر فى غرفتى ، لأنك تبدو تعبا على اثر المرض »

فمشت فى أثره الى غرفة بجانب تلك ، وفتح الباب وأشار اليها أن تدخل وقال : « ان هذه الغرفة لى وحدى أضعها تحت امرك »

وكانت قد تعبت من المشى لأول مرة بعد المرض ، فدخلت واستلقت على مقعد هناك واغلقت الباب خوفا من انكشاف امرها واستلذت الخلوة فأخذت تفكر فيما أصابها بالفسطاط . وطرق ذهنها الحلم الذى رأته فى مرضها اذ رأت الحسين مغلولا وفى ضيق شديد . وعبثا حاولت أن تبعده عن ذهنها

وتذكرت تلك الجلسة فى بيت كافور وما تحققته من خيانة سالم فاقشعر بدنها ، ولم تكد تتصوره حتى سمعت صوتا مثل صوته يرن فى أذنها فذعرت وأصغت فاذا هى تسمع صوته فعلا ، فجلست

واصاخت بسمعها وهي تحسب ذلك حلما آخر . فاذا هي تسمع وقع اقدام بباب الغرفة فنهضت وتهيأت للوثوب واستعدت للمقاومة فاذا بالخطى تتجه نحو الغرفة الأخرى التي كانت لها وسمعت صوتا مثل صوت أبي حامد ، فتسارعت دقات قلبها وأسرعت الى باب غرفتها فأوصدته وجعلت انها نائمة ووجهت انتباهها لتحقق هل هي في يقظة . فسمعت أبا حامد يقول : « أوصد الباب يا بني وتعال »

وسمعته يوصده ثم سمعت قائلا يقول : « أوصدته . هات ما عندك ؟ » . وهو صوت سالم . فتأكدت انهما نازلان في تلك الغرفة ففرحت للفرصة السانحة ، لكن تأثرها كاد يذهب بنفسها لسرعة دقات قلبها . فتجلدت وتذكرت ما كان من بسالتها ورباطة جأشها ومواقفها في ساحة القتال فتماسكت واصغت . فسمعت أبا حامد يقول : « ذهب الأسود ولم ننل منه وطرا . وهذا من سوء حظه »

فقال سالم : « وسوء حظنا ايضا يا عماه »

قال : « ما أضعف عزمك يا سالم ! . اتحسب قدوم ذلك المملوك الصقلي (جوهر) يغير عزمي ؟ انه لا يلبث ان يعود على أعقابه ! »

قال : « كيف يعود ؟ وقد اتى بجيش جرار ، وقد رايت القوم هنا خائفين منه »

فقهقه أبو حامد ، فتصورت لمياء ما يرافق قهقهته من التكشير عن سنيه البارزتين ثم سمعته يقول : « لا يلبث خوفهم أن يذهب متى وصل ذلك الغلام مغلولا »

قال : « واي غلام ؟ »

قال : « اي غلام ؟ ! . . الم تعلم بعد بالقبض على الحسين ؟ »

فلما سمعت لمياء ذكر الحسين اختلج قلبها واضطربت ، ثم سمعت سالما يقول : « اقبضوا على الحسين ؟ . لم اعلم بذلك بعد . اين قبضوا عليه ؟ »

قال : « في فخ الأخيار ، لأن لمياء اللعينة افشت السر واخبرت المعز عن المال هناك فتطوع هو بالذهاب ليأتي به اليهم . وجاءني بالأمس ان رجالنا هناك قبضوا عليه وأوثقوه وسألوني ماذا يفعلون به ، فأجبتهم بأن يحملوه الى هنا . فاذا جاء حبسناه وجعلناه رهنا . ما قولك ؟ »

فقال : « لم اكن اعلم ذلك . بارك الله فيك . كيف لم تخبرني به حتى الآن ؟ »

قال : « لانى لا أثق بأحد ، ولو لم أر خوفك لما أخبرتك ، ولكننى لا أعلم أين ذهبت تلك الفتاة المفتونة . فقد نقل الى الجواسيس انها خرجت من القيروان وقد أخفت جهة مسيرها »

قال : « ما ظنك بها ؟ »

قال : « أظنها أتت الى هنا لأن يعقوب اليهودى هو الذى أنبأ المعز بعزمنا على قتله فنجا . ويغلب على ظنى أن لمياء أتت الى الفسطاط، لكننى لم أستطع البحث عنهــــا فى حياة كافور لأنه كان يقرب ذلك اليهودى ويصغى اليه . أما الآن وقد مات كافور فانى أوغرت صدر ابن الفرات عليه فأصبح يطارده ولا يلبث أن يصادر أمواله . وهــو يسعى الآن فى اقناع القواد بأن يستسلموا لجوهر . ولـكنه لن يفلح لأنهم مختلفون لا رابطة لهم ، وكل منهم يطمع فى المال لنفســـه ، وهم طوائف اهمها الاخشيدية والكافورية والأتراك ، وليس عليهم أمير حازم يجمع كلمتهم . وفى عزمى ان اجمع شتاتهم بوساطة الســيدة زينب بنت الاخشيد لنفوذ كلمتها عندهم ، لكنها امرأة لا تعلم كيف تعمل فضلا عن اشتغالها بأمر نفسها . لا تخف يا بنى . . كن على ثقة من تدبيرى »

وكانت لمياء تسمع كلامه وفرائصها ترتعد فاذا بسالم يقول : « قد ادهشتنى يا عماه بهذا التدبير . بارك الله فيك »

فقال : «كيف لا وقد قضيت عمرى فى دس الدسائس عملا بوصية ذلك المقتول ظلما ؟ . ولكن أين ذهبت تلك الملعونة لا أدرى ؟ »

قال سالم : « ما لنا ولها فلتكن حيثما تكون »

ثم استولى السكوت كأن الرجلين ناما ، وأخذت تفكر فيما سمعته فرأت أنها عرفت أشياء كثيرة لم تكن تعرفها ولا سيما عن الحسين والقبض عليه ، وأن المصريين يسعون فى صلح جوهر والتسليم له ؛ وأن الأمر رهن برأى بنت الأخشيد . وقد صدقت أنهم قبضوا على الحسين لأنها رأت ذلك رأى العين فى أثناء الغيبوبة . فلم تعد تستطيع البقاء هناك واحتالت فى الخروج فلقيها صاحب الفندق فسألته عن الثياب فقال : « هل اتى الاضياف ؟ » قالت : « أظنهـــم أتوا لأنى سمعت حركة » . فقال : « قبحهم الله يدخلون كاللصـــوص » . وأسرع وعاد اليها بالثياب . فتناولتها ودفعت اليه اجره ، وانطلقت تطلب بيت الشريف مسلم بن عبيد الله . وكان الليل قد سدل نقابه فأسرعت حتى وصـــلت فرأت الخيول متزاحمة فى الباحة والنــاس وقوف بالباب ، فاستأذنت فى الدخول فأذن لها ، وسألت عن الشريف فقيل لها أنه فى خلوة مع جعفر بن الفرات . فجلست والاضطراب باد عليها وأصبحت فى شوق لمعرفة ما يدور بين الرجلين ، ثم رأت

جماعة فى لباس المصريين الوطنيين من التجار والزراع تجمعوا وهم يتذمرون ويتأهبون وسمعت أحدهم يقول : « ما لنا وللحروب لقد خربت البلاد واختنق الناس من القحط والغلاء حتى فرغ ما بأيدينا وهذا الجند يمعن فى اقتضاء الضرائب منا . وهم منعمون لا يهمهم الا اخذ الاموال . انهم معذورون اذا خافوا على سيادتهم واحبوا قتال المغاربة »

فأجابه آخر : « مالنا ولهم ؟ خير لنا أن نصالح . وهذا الوزير قد وافقنا على طلب الصلح. ان هذه الدولة الجديدة رشيدة وقد سمعت الثناء على خليفتها وزهده فى الأموال ورغبته فى راحة رعيته »

فتقدم ثالث وقال : « وبلغنى أن هذا الجند قادم الينا وقد حمل الذهب على الجمال كالأرحية. اين ذلك من مصادرة جندنا وحكومتنا لاموالنا ؟ »

ثم سمعت رجلا يضحك متماجنا ويقول : « كيف تدعون الفقر يا قوم اليست الاموال مخزونة فى بيت الاخشيدية والكافورية ؟. هذه بنت الاخشيد قد فرشت منزلها بما لم تبلغه زبيدة زوج الرشيد ، وعندها الجوارى بالمئات . . وتقولون اننا فقراء ؟ » . فضحك الجميع من مجونه . ثم شغلوا بحركة وضوضاء ظهرت هناك ، فالتفتت لمياء فرات ابن الفرات خارجا وقد خرج الشريف مسلم لوداعه وابن الفرات يبالغ فى الثناء عليه . ولما ودعه قال ابن الفرات : « أتعدنى يا سيدى بالذهاب غدا الى الاسكندرية ؟ »

قال : « لينعم بالك ، سأبذل جهدى فى اقناع القائد بقبول الصلح»

ففهمت ان ابن الفرات يسعى فى الصلح ، وتذكرت ما سمعته من ابى حامد فى هذا الشأن . وارادت ان تكلم الشريف فرأته تحول الى غرفته كأنه فى شاغل عن المقابلات فأجلت مقابلته الى فرصة أخرى، وذهبت الى دار الحريم واستلقت على الفراش واخذت تفكر فيما سمعته فغلب عليها النعاس فنامت

□

افاقت فى الصباح على ضوضاء القوم فى الدار فنهضت وسألت عن الشريف فقيل لها : « انه بكر الى الاسكندرية مع وفد من أعيان المصريين ومعه كتاب الوزير ابن الفرات فى طلب الصلح

اما هى فما زالت فى قلق لما علمته من مساعى أبى حامد وأسفت لانها لم تستطع مقابلة مسلم قبل ذهابه . وفيما هى فى ذلك رات يعقوب داخلا فأحست براحة واسرعت اليه فلما رآها هش لها وتقدم

نحوها فاومأت اليه ان يجلس وقصت عليه ما سمعته بالأمس . فاستغرب قولها وادهشه عزم أبي حامد وما دبره فقالت : « لاحاجة بي الى أن اخبرك عما يهمني مما قصصت عليك »

قال : « اما الحسين فاذا صح ما قالوه عنه وأنه آت الى هنا فهو في مامن ، ولا شك أن ذلك الغادر مغرور » . ثم اطرق وهو يحك عثنونه وقال : « ولكن . . » . وسكت

فقالت : « ولكن ماذا ؟ هل استطيع ان اعمل عملا . انى اشعر بتقصيري في مهمتي لأنى شغلت بنفسى عن خدمة مولاى المعز . ما بالك ؟ . قل »

قال : « فهمت من حديثك ان ذلك الملعون يهدد سعينا في الصلح بدسائسه عند بنت الأخشيد ، ولا سبيل لى الى هناك وأنا رجل ، فلا استطيع التنكر » .

فادركت انه يشير الى استطاعتها ذلك لانها فتاة فاطرقت ثم قالت : « هل اقدر أنا على ذلك ؟ »

قال : « طبعا ولكن . . »

قالت : « قد ادركت الآن مركز بنت الأخشيد في هذه الدولة ، ويظهر ان الكل يثقون بها رغم ما بلغنا من انغماسها فى اللهو ، فما الذى ترانى استطيع القيام به ؟ »

قال : « ارى ان تدخلى دار بنت الاخشيد وتتسلطى على عقلها حتى تصير اطوع لك من بنانك »

فرأت انه يحبب اليها التجسس وهي اكبر نفسا من ذلك . فتوقفت عن الجواب لحظة وهي تنظر فى مرآة معلقة فى الحائط اعجبها شكلها وهى صنع مصر ولم تكن رأت مثلها من قبل . كانت تنظر الى المرآة وهى تفكر فى أمر تنكرها . فابتدرها يعقوب قائلا : « لاتترددى يا بنية . اذا كنت تحبين المعز وتريدين الفوز لجوهر فالأمر فى يدك ولا يستطيعه سواك » .

فلما سمعت قوله تحمست وهان عليها كل صعب فقالت: «روحى فداء أمير المؤمنين . فما العمل ؟ »

قال : «تعلمين شغف بنت الاخشيد باقتناء الجوارى الحسان؟..» فقالت : « نعم اعلم ذلك »

قال : « ارى أن تتنكرى بثوب جارية مغربية وأن اجعلك هدية لبنت الأخشيد ، ولا ريب عندى أنها لا تلبث أن تستسلم لرأيك عند التعرف اليك والأمر بعد ذلك لفطنتك »

فنهضت وقالت : « ها انذا على اهبة الذهاب،من يأخذنى ؟ وكيف اصنع ؟ »

قال : « تمهلى .. سأعود بعد قليل ، وانما اتقدم اليك ان تلبسى ثوبا مثل اثواب الجوارى » . قال ذلك وخرج

فأصلحت شعرها وغيرت هندامها حتى لا يشك من يراها فى انها جارية ، وقد زادها الضعف جمالا وهيبة . ثم عاد يعقوب ومعه رجل عرفت انه تاجر الرقيق الذى قبضوا عليه فى القيروان ووقف بين يدى المعز واعترف انه جاء ليبتاع جوارى لبنت الاخشيد فتجاهلته ، ثم تقدم يعقوب : « هذه هى الجارية يا سيدى ، كيف تراها ؟ »

قال : « لا بأس بها »

فضحك يعقوب وقال : « لا تقل لا بأس بها بل قل انها جميلة واظنها تعجب مولاتنا كثيرا نظرا لما فطرت عليه من الذكاء والأدب فضلا عن الجمال »

فقال الرجل : « ما اسمها وكم ثمنها ؟ »

قال : « اسمها سلامة ، واما الثمن فانى لا اتاجر بالرقيق كما قلت لك ، وانما اردت ان اقوم بخدمة لمولاتنا . خذها اليها ويكفينى ان تقبلها هدية منى . وهذه الفتاة عزيزة على لأنى اعرف منشأها ، فلا ينبغى ان تعامل مثل سائر الجوارى . قل هذا للسيدة بنت الاخشيد اذا شئت »

قال : « سأفعل » . واشار الى لمياء فتبعته وهى تتجلد



بنت الأخشيد

كانت بنت الأخشيد تقيم بقصر قرب دار عبد العزيز أكبر دور الفسطاط ، وقد تقدم ذكرها ، وذكرنا ما فيها من الغرف وعدد من فيها من الناس . وهي واقعة على ضفة النيل الشرقية يقابلها في الغرب جزيرة الروضة . وقصر بنت الأخشيد فخم يطل على النيل قد فرش بأثمن الرياش . والدولة الاخشيدية يومئذ في ابان بذخها، تقلد العباسيين باقتناء مثل ما في دورهم من الرياش الفاخر والاثاث الثمين من الأبسطة المطرزة والأستار المزركشة المشدودة الى الجدران بمسامير من الفضة ، ومن الاسرة المصنوعة من الذهب او الآبنوس المنزل بالعاج ونصبوا منائر الفضة عليها الشموع العنبرية اذا أوقدت فاحت رائحتها حتى تملأ الفضاء

فلا غرو اذا دهشت لمياء عند دخولها ذلك القصر بعد أن رات بساطة دار المعز في القيروان . وكانت تحسب در أبيها في سجلماسة قبل زوال دولته قد بلغت ارفع احوال الحضارة ، فاذا هي لا تعد شيئا اذا قيست بدور الأخشيديين ، خصوصا هذه الدار فان بنت الأخشيد كانت لفرط اعجابها بنفسها تقلد نساء الخلفاء العباسيين في البذخ ولا سيما زبيدة زوج الرشيد ، فقلدتها باصطناع قبة من الفضة والآبنوس والصندل ، كلاليبها من الذهب ملبسة بالوشي والسمور والديباج الأحمر والأصفر والأخضر والأزرق . رغم ما كانت عليه البلاد من الضيق

تلك كانت سياسة الحكومة في تلك الأيام ، ولا سيما في اواخر الدولة فما كان الحاكم يسأل الا عن جمع المال لنفسه والتلذذ بالشهوا ت، وقد يبلغ من استمتاعه أن يموت من التخمة والناس حوله يموتون من الجوع

كانت بنت الأخشيد في حدود الكهولة تظهر لأول وهلة انها قوية الخلق وهي في الواقع ضعيفة الراي لكنها جسورة لا تبالي ما تفعل ولا تقدر العواقب ، فكانت مثالا لطبقة المترفين من أهل ذلك العصر لا يفوتها ضرب من ضروب الملذات . ولكنها وجيهة نافذة الكلمة ليس في رجال الدولة من لا يخشى بأسها ولا سيما بعد موت

كافور وصارت الامور الى احمد بن علي حفيد اخيها وهو غلام . فأصبح طوع ارادتها هو وكل رجال دولته الا جعفر بن الفرات اذ أحب أن يستأثر بالنفوذ فأغضبها وأغضبته ، فمال الى الاهلين الراغبين فى التسليم لجوهر قائد جند المعز . وأما سائر الاجناد فكانوا يلتمسبون رضاها لا يبرمون أمرا الا برأيها

وكانت جميلة الخلقة لا تزال الملامح التركية ظاهرة فى محياها ، لأن اباها فرغاني . ولم تتزوج رغبة فى استبقاء عصمتها فى يدها فانصرفت قواها الى الاستمتاع بالحياة والتماس النفوذ والشهرة ، فجعلت قصرها مباءة لرجال الدولة . وكانت فى هذه الفترة مشغولة الخاطر لما بلغها من عزم المصريين على التسليم ومعهم ابن الفرات ، لكنها لم تكن تتوقع حدوث ذلك فعلا اذ لم تكن على بينة من حقيقة حال الأهالى ولا مقدار ما بلغوا اليه من الضنك . ولم يخطر لها أنهم يتجرأون على مخابرة الاعداء ، وكان ينبغي ألا يفوتها ذلك ، ولـكن حكام ذلك العصر لم يكونوا يحسبون للأمة حسابا اذ كان كل همهم منصرفا الى احتلابها وابتزاز أموالها

وأصبحت بنت الاخشيد ذلك اليوم وهي تتوقع أن يأتى رجال الدولة يشكون اليها ما فعله ابن الفرات . وقبل نهوضها من الفراش اتتها المواشط والولائد يخدمنها فيما تحتاج اليه من الغسل أو اللبس أو تسريح الشعر وتصفيفه . وقضين فى ذلك ساعة يتسابقن الى استرضائها بالاطراء أو المجون . وفيما هي فى ذلك أتتها جارية تقول : « ان صاحب الرقيق يستأذن على مولاتى »

قالت : « دعيه ينتظر فى البهو الـكبير حتى اخرج . وهل هو وحده ؟ »

قالت : « معه فتاة لعلها جارية »

قالت : « جارية سوداء ؟ »

قالت : « كلا بل جارية بيضاء جميلة لم أشاهد مثلهـا قبل الآن »

فاهتمت بنت الاخشيد بالخبر ، وأمرت الماشطة بأن تسرع فى الباسها

أما ميـاء فكانت قد أقبلت مع النخاس على قصر بنت الأخشيد وهو يمتاز بفخامة بنائه وبوقوف الحجاب ببابه ـ فدخلت فى حديقة طرقها مرصفة بالحصى الملونة على أشكال الطير والوحوش ، فتقدمها النخاس وهى تتبعه حتى دخل باب القصر الى ردهة واسعة فرشت بالسجاد . وبعض السجاجيد عليها وشى جميل بأشكال الزهور أو

بعض الحيوانات أو ابيات من الشعر . فاستقبلتها القهرمانة قيمة القصر وعليها الأساور والدمالج وحول عنقها العقود . فقالت لمياء فى نفسها : « اذا كانت القيمة هكذا فكيف تكون السيدة ؟ » . فدعتهما القهرمانة الى بهو الاستقبال ، فدخلا ولمياء تزداد شوقا لمشاهدة بنت الأخشيد ، وذهبت القيمة لابلاغ الخبر

وبعد قليل اقبلت السيدة تجر ذيل ردائها الوردى ، وعلى راسها عصابة مرصعة قلدت بها العالية أخت الرشيد وصففت شعرها تصفيفا خاصا لا يجسر احد من الفسطاط على تقليده ، وشبكته باكليل من الذهب بشكل طائر . وتمنطقت بمنطقة مزركشة لها عروة مرصعة على شكل الكروبيم — قلدوا به بعض ما على الآثار المصرية من الرسوم . وشعرت لمياء بقدومها من حركة الخدم فى الدهليز ومما تضوع من الطيب ، فوقفت ووقف النخاس وتقدم حتى اكب على يد الأميرة كأنه يقبلها ، وفعلت لمياء مثل ما فعله فظهر التكلف فى حركاتها لأنها لم تتعود مثل ذلك

فحالما رأتها بنت الأخشيد وقعت من نفسها موقعا جميلا وأعجبها ما فى عينيها من المعانى التى زادها الضعف سحرا . فتقدمت الى لمياء ووضعت يدها على كتفها كأنها تحاول ضمها فاستأنست لمياء بها ووقفت مطرقة ، فأشارت اليها أن تجلس وجلست على مقعد من الأبنوس فرشه مكسو بالحرير وقالت للنخاس : « من اين لك هذه الفتاة ؟ »

قال : « هذه هدية من عبدك يعقوب بن كلس ، رآها لا تليق بأحد سواك نظرا لما هى عليه من الأدب والذكاء . وقد كلفنى أن أنوب عنه فى تقديمها »

فلما سمعت اسم يعقوب مر على ملامحها شىء من الانقباض لكنها اظهرت الشكر وقالت : « انها هدية نفيسة لا اظن يعقوب أهدى مثلها فى حياته وربما يرمى الى التماس خدمة منا بعد ان اغضب الوزير . ان اليهود أمرهم عجيب .. قد قبلنا هذه الهدية مع الشكر بارك الله فيك » . قالت ذلك ومدت يدها فأخرجت خاتما من احدى أصابعها ودفعته اليه فتناوله وقبله ومضى . وظلت لمياء صامتة وقد أدهشها ما رأته من التباين العظيم بين حال الأمة المصرية وحال حكامها . وقابلت بين بنت الأخشيد بمصر وأم الأمراء فى القيروان . ورجح لديها قرب سقوط هذه الدولة . وفيما هى فى ذلك اتى الحاجب فوقف قرب الباب فعلمت بنت الاخشيد أنه يريد مخاطبتها فى أمر فأومأت اليه فتقدم فقالت : « ما وراءك ؟ »



« وتقدمت زينب الى لمياء ووضعت يدها على كتفها كأنها تحاول ضمها »

قال : « ان بعض القواد الاخشيدية يلتمسون المقابلة »

فاظهرت استنكافها وقالت : « دعهم ينتظروا ». ونهضت واشارت الى لمياء أن تتبعها وسألتها : « ما اسمكِ ؟ »

فبغتت واوشكت أن تقول اسمها الحقيقى فبلعت ريقها وقالت : « سلامة يا سيدتى »

فقالت : « اسمك جميل » . وصفقت ونادت القهرمانة فأتت فقالت لها : « كيف ترين هذه الفتاة المغربية ؟ »

فنظرت اليها وهى تبتسم وقالت : « ما شاء الله !. انها جديرة بأن تكون فى قصرك »

قالت : « فاليك هى ، افردى لها غرفة خاصة لترتاح الآن »

فاشارت مطيعة وانصرفت ولمياء تتبعها حتى أدخلتها غرفة بهـا نافذة تطل على النيل ، فاستأنست بمجرى الماء ، لكنها لم تأت الى ذلك القصر وتركب ذلك المركب الخشن لتتمتع بالمناظر الطبيعيـة فاخذت تفكر فيما ينبغى أن تفعل . وتذكرت أن الحاجب أنبأ بنت الأخشيد وهى فى حضرتها عن قدوم بعض القواد لمقابلتها وهى فرصة لا ينبغى أن تفوتها ، والوقت ضيق لا يأذن بالتأجيل ، فأخذت تفكر فى حيلة تستنبطها لحضور تلك المقابلة لعلها تستطلع شيئا

وفيما هى فى ذلك جاءت القهـرمانة تتهـادى فى مشيتها وتشمخ بانفها عجبا . فلما دنت من لمياء وقفت هذه تأدبا فقالت القهرمانة : « يظهر أنك وقعت من نفس مولاتنا موقعا جميلا لم توفق اليه غادة قبلك ! » . قالت ذلك وضحكت فبانت اسنانها متفرقة لأن الزمن ذهب بنصفها . وكانت جميلة فى صباها ولـكن عيشـة الر[illegible] أسمنتها وداهمتها الشيخوخة فجعلت جلدها طيات يتقطر العرق من بينها . فاذا مشت خطوتين ارهقت ، ولـكنها كانت خفيفة الروح فاستأنست لمياء بها وسرها ما سمعته من اعجاب بنت الأخشيد لأن ذلك يعجل ما ترجو الاطلاع عليه أو الوصول اليه فى سبيل خـدمة المعـز . فاطرقت وقالت : « ليس فى ما يدعو الى اعجاب سـيدتى الأميرة ، ولكنها ربما اشفقت على الضعف الظاهر فى وجهى »

فقطعت القهرمانة كلامها قائلة : « ان هذا الضعف يزيدك جمالا ولطفا . والآن فان مولاتنا الاميرة كلفتنى أن اصلح من شأنك وآخذك اليها لتتناولى الغداء معها »

فشغلها ذلك التلطف عن التفكير فى أبى حامد ورفيقه ، واشتغلت القهرمانة بالاصلاح من شأنها فأتتها بثوب من الحرير الناعم الملون نسيج مصر وعليه صور تأخذ بالابصار وحوله منطقة مذهبة . وأخذت

الماشطة في اصلاح شعرها وتضفيره على نسق خاص . فضايقها ذلك وتقدمت الى القهرمانة ان تعفيها من هذا التصفيف فأجابتها : « هكذا تريد مولاتنا » . فقالت : « اسأليها لعلها تعفيني لان ذلك يضر برأسي » .

فمضت ثم عادت وهي تقول : « وهذا دليل آخر على حب مولاتنا لك ، فانها سمحت ان تكوني كما تشائين وان تسرعي في الذهاب اليها فان المائدة قد أعدت » .

فسرحت شعرها بيدها تسريحا بسيطا وضفرته ضفيرتين ارسلتهما الى الوراء الا خصلا صغيرة ارسلتها على الصدغين وابت الاكتحال او التزجج . وكانت بين يديها جارية سوداء تحمل لها المرآة فنظرت الى وجهها فيها فرأت انها أجمل مما كانت تظن . ثم مشت في اثر القهرمانة في دهليز يؤدي الى قاعة واسعة في صدرها دكة مرتفعة قد نصبت عليها المائدة ويشرف الجالس اليها على ضفاف النيل فيرى السفن ذاهبة جائية ووراءها جزيرة الروضة وفيها الأبنية الفخمة وفي جملتها المقياس . ووراء ذلك بر الجيزة الى الأهرام .

والقاعة مفروشة بالبسط والسجاد مثل اكثر غرف تلك القصور ، غير الارائك والوسائد والمقاعد وكلها مذهبة او منزلة بالعاج والابنوس . وقد ارخيت الاستار المزخرفة على الجدران التي تكسوها . ومنها ستارة على عرض القاعة مرفوعة بامراس من الحرير ترخى عند الحاجة فتحجب مجلس الأميرة عن سائر الجلوس . كانت هذه القاعة فرشت لعقد المجالس الكبيرة فاذا حضرت بنت الاخشيد المجلس ارخت الستارة ودار الحديث او المفاوضة ولا يراها احد من الحضور . فنصبوا لها بجانب المائدة مقعدا مكسوا بالخز المطرز باسمها . فجلست عليه والتفت بملاءة كالمطرف من القطيفة الحريرية وقد طرزت بالقصب ورصعت بالأحجار الكريمة باشكال بديعة تمثل شجرا وطيورا وحيوانات اخرى مما قلدت به نساء العباسيين في ابان بذخهم . ولعلها قلدت بها بساطا لأم الخليفة المستعين، عليه الطراز والترصيع على صورة كل حيوان من جميع الأجناس وصورة كل طائر من ذهب وأعينها من يواقيت وجواهر

دخلت لمياء وبنت الأخشيد متكئة على المقعد والمطرف على جبينها يأخذ لمعانه بالأبصار والمائدة بجانبها عليها الأطعمة . وقد وقف الخدم من الجواري يحملن الاطباق فيها الحلوى او الفاكهة . وهن في أجمل ما يكون من الأثواب وتصفيف الشعور الا لمياء فانها ظلت على بساطتها

فتقدمت القهرمانة اولا وانبات السيدة بنت الاخشيد بقدومها

وانصرفت فدخلت لمياء وعليها ذلك الثوب الجميل الذى زاد وجهها اشراقا وهيبة ، ولم تتمالك بنت الاخشيد عند دخولها عن الجلوس ووسعت لها مجلسا على المقعد ودعتها الى القعود بجانبها فقعدت ، فرحبت بها وقالت : « ان هدية ابن كلس اليوم قد كفرت عن سيئاته وسيئات شيعته » . وضمتها وقبلتها ولمياء مطرقة وقد زادها الحياء وقارا .. والحياء من اجمل ما تزدان به المرأة بل هو اجمل اثواب زينتها الحقيقية

ثم سألتها أن تتناول الغداء معها . وأشارت الى خادم بيده طبق ان يضعه على المائدة بين يديها وفيه سكباج فتناولت قطعة وناولت لمياء قطعة تشجيعا لها فأطاعتها وتناولت مما حضر من الألوان . ولم يكن بينها شيء لم تعرفه الا لونا فى جام انكرته ولم تستلذ طعمه . ولحظت بنت الاخشيد ذلك فقالت : « يظهر أنك لم تستطيبي هذا اللون مع أن الدرهم من وزنه يساوي عشرات الدنانير لأنه مصنوع من ادمغة نوع من الطير لا يوجد فى غير مصر ونحن ننفق فى جمعه الأموال الطائلة لأن دماغه كثير الغذاء واللقمة منه تغنى عن عدة أطباق من اطعمة أخرى »

ثم امرت بالحلوى فأتوا بعشرات من أشكالها بين معاجين ومطبوخات وفاكهة . وكانوا يقدمون فى أثناء الطعام باقات الأزهار الطيبة الرائحة ، غير ما يرشونه فى أرض القاعة من ماء الزهر أو العطر وما يحرقونه فى المباخر المنصوبة بين الأبواب من الند أو العود

وكان فيما قدموه على المائدة سائل محمر اللون (خمر) لم تعرفه لمياء ولا مدت يدها اليه بل اقشعر بدنها حالما وقع بصرها عليه لأنها تذكرت الشراب الذى ذهب بحياة أبيها . على أنها كانت تنظر الى كل ذلك مبهوتة ، وتقابل بين ما كانت تراه من تقشف المعز وأم الأمراء والاموال عندهم فى الخزائن وسلطانهم فى ابانه ، وبين ذلك الرخاء والبلاد فى ضيق والناس يتضورون جوعا

وكانت بنت الاخشيد تأكل بنهم ولذة ، وتعجب لتعفف لمياء وتحسبها تفعل ذلك لعلة لأنها تعودت أن ترى غاية الانسان فى دنياه المتاع بالملذات على اختلاف اشكالها وضروبها . فلم تتصور ان يمتنع من لذة الا اذا عجز عن نيلها . ذلك شأن المنغمسين فى الشهوات وهم يكثرون فى اواخر الدولة قرب سقوطها اذ تذهب ملذاتهم العقلية أو الأدبية بذهاب مجدهم ونفوذهم فلا يبقى لهم غير الملذات البدنية فينصرفون اليها فلا تزيدهم الا ضعفا وانحطاطا . ان ملذات الرجال فى أوائل الدولة تقوم بالنصر او الفوز واستباق الفتح أو نيل المناصب

وتقويمها وتوسيع دائرتها لا تهمهم اللذات البدنية الا قليــلا . فاذا ذهب المجد واخذ أصحابه في التقهقر لا يبقى غير هذه اللذات

□

امرت بنت الاخشيد برفع المائدة وقد امتلأت معدتها وانتفخت عروقها وأسرعت دورتها وبان ذلك في عينيها فاستلقت على المقعد . واحبت لمياء أن تنتقل الى المقعد الآخر فامسكتها واقعدتها بجانبهــا واخــذت تحادثهــا فبدأت بالسؤال عن بلدها فقــالت : « من أين انت يا سلامة ؟ »

فلم تدر بماذا تجيب ، لانها لا تريد ان تكذب ولا أن تقول من هي فأجابت جوابا وسطا فقالت : « اني من افريقية (بلاد المغرب) »

فوقع اسم افريقية وقعا شديدا على سمعها لأنه شغلها الشــاغل منذ اشهر ، فتصاعد الدم الى وجههـــا لكنها تجاهلت وابتسمت وقالت : « ان افريقية واسعة فمن اى قسم منها انت ؟ »

فقالت : « لا يطلب من الجوارى معرفة انسابهن ، لأنهن ينتســبن الى مواليهن فانا في دار السيدة بنت الاخشيد ، وانما انتسب اليهــا وكفى »

فاستحسنت جوابها الدال على الذكاء ، واحبت تبديل الحـديث واذا بالحاجب دخل وقال : « القواد الاخشيدية لا يزالون في انتظار الاذن لهم بالمقابلة يا سيدتي »

فتأففت وهزت راسها وقالت : « اقلقوا راحتي بمقابلاتهم .. ماذا اصنع لهم ؟ هذا اميرهم احمد فليقابلوه ... » . قالت ذلك ونظرت الى لمياء

فرأت لمياء الا تضيع هذه الفرصة فابتسمت وقالت : « صدقت يا ســيدتي ان المقابلات تزعج ولــكنك تعلمين ان الراس عرضــة للأوجاع ، ولولا ثقتهم بتعقلك وسداد رأيك لم يطلبوا مقابلتك . فاذا جاز لي ان اشير عليك فارى أن تأذني في دخولهم وتشجيعهم وتنصحي لهم فان أميرهم صغير السن .. »

فقطعت بنت الاخشيد كلامها قائلة : « احسنت يا سلامة ، لكنني لا أستطيع مجالستهم الآن بعد الطعام ، فارى ان أؤجل الاجتماع الى المساء »

فقالت : « ذلك لك اذا شــئت . لــكنني لا اظنهم يلحون في طلب المقابلة هذه الساعة الا وهم في حاجة اليها ، واذا استثقلت الانتقال

الى قاعة اخرى ، فاستقدميهم ، الى هنا وانزلى هذا الستر بينك وبينهم وخاطبيهم بما تريدين »

فاعجبها هذا الرأى كثيرا لانه يمكنها من الاستمتاع براحتها فى الجلوس أو الاتكاء وقالت : « هذا الرأى صواب وابقى أنت معى »

ففرحت لمياء اذ نالت مناها وقالت : «اذا لم يكن بأس من وجودى فانى ابقى طوع امرك »

قالت : « ان وجودك يؤنسنى . ولا تستغربى ما ترينه من اعجابى بك لاول مرة رايتك فيها ، فانى لم اجد هذه الاخلاق فى واحدة من الجوارى فانت اميرة باخلاقك » . ثم التفتت الى الحاجب وقالت : « اذا شاء القواد فليدخلوا الى هنا » . وامرت بعض الخدم ان يرخوا الستر فاصبحت القاعة قاعتين بينهما ذلك الستر وهو من الديباج المطرز وفيه ثقوب ترى منها من تشاء من الجلوس ولا يرونها

□

وبقيت لمياء جالسة تنظر من احد الثقوب لتتعرف الداخلين ، وما لبثت أن سمعت وقع الاقدام وقعقعة السيوف واذا بثلاثة عليهم الألبسة الفاخرة والعمائم الصغيرة والدراعات المزركشة مما يلبسه كبار القواد . وقد تقلد كل منهم سيفا يجره الى جانبه ، فلما دخلوا القوا التحية ، فامرتهم بنت الاخشيد بالجلوس وهمست للمياء : « هؤلاء ثلاثة من قواد جندنا المخلصين ويعرفون بالاخشيدية نسبة الى أبى الأخشيد رحمه الله »

فاظهرت لمياء الاعجاب . فقالت بنت الاخشيد بصوت عال : « مرحبا بقوادنا الأجلاء عسى ان يكون مجيئكم لخير ؟ »

فابطأوا فى الجواب هنيهة لحظت لمياء فى خلالها أن كلا منهم يدعو الآخر للكلام . ثم تصدى اكبرهم سنا وقال : « اننا جئنا لخير ان شاء الله ، ونأسف اذ ازعجنا مولاتنا ، ولكننا لم نر بدا من ذلك والعدو على الأبواب وهؤلاء الكافورية لا يزالون ينازعوننا على هذه الدولة . وكنا نحسب مبايعة مولانا الامير احمد توقفهم عند حدهم فيكفون عن اعتدائهم ، فاذا هم على ما كانوا عليه يفسدون الجند علينا ويوغرون القلوب على مناوأتنا والوزير جعفر يزداد استبدادا فى الدولة وقد قبض على الأموال فلم يترك بيضاء ولا صفراء . وقد بلغنا انه راسل العدو طالبا الصلح ، فهل مولاتنا ترضى بهذا العمل ؟ أم تراه استخف باميرنا لصغر سنه ؟ »

فقالت بنت الأخشيد : « انا لا ارضى بذلك . هذا لا يكون ابدا . .

انسلم البلد الى العدو وعندنا الجند والقواد ؟ كيف يفعل الوزير ذلك . لا بد من عزله »

فاجاب احد القواد : « انما فعل ذلك بايعاز الكافورية لأنهم على رأيه ، وقد ساءهم كما ساءه أن يعود الأمر الى نصابه ويتولى الملك أهله وأصحابه ويخرج من ايديهم ، فأرادوا أن يخرج من يد أميرنا ، ولو صار الى عدونا ! » . . قال ذلك والحنق باد فى كلامه

ولم تكد بنت الاخشيد تتدبر كلامه حتى سمعت ضوضاء بباب القاعة ، ثم دخل بضعة رجال عرفت انهم من قواد الكافورية وكأنهم كانوا بالباب وقد سمعوا الطعن فيهم وأرادوا الدخول فمنعهم الحجاب فدخلوا قهراً وتصدى واحد منهم للكلام ووجهه الى الطاعن وقال : « تقولون انا افسدنا الدولة وانها لكم وقد اختلسناها . اننا لم نختلسها ولولا اميرنا كافور لصارت هذه الدولة فى خبر كان . فهو الذى حفظها ونظمها وثبت دعائمها من اول امرها منذ تولاها مولانا الاخشيد . فقد كان له خير ناصح ومشير ، ولو ظل كافور حيا لما تجرأ العدو على حربنا . وها انتم أولياء الامر الآن فاخرجوا العدو من الدار »

فاجابه الاخشيدى : « نعم نخرجهم اذا تركتمونا ولم تمالئوهم وتطلبوا صلحهم . دعونا وشأننا معهم ، نعدهم على اعقابهم ! »

فصاح فيه قائد آخر : « ويحك ! . اتجسر على هذا الكلام بين يدى مولاتنا ؟ . انحن نمالىء الاعداء ؟ »

فقال : « نعم انكم تمالئونهم ، اليس الوزير جعفر سيدكم ونصير اميركم ، يخابر الاعداء فى طلب الصلح ؟ »

فاغتصب ضحكة وقال : « انه يفعل ذلك برأينا . . وقد والله احسن صنعا . لأن دولتكم قد شاخت ، واذا انكرتم ذلك هلم الى العدو حاربوه واخرجوه »

فحمى غضب الاخشيدية وصاحوا بصوت واحد : « لا نصبر على هذه الاهانة بين يدى مولاتنا ومولاتكم ! » . وتقدم احدهم ويده على قبضة حسامه وقال : « والله لولا حرمة هذا المكان لضربت اعناقكم بهذا الحسام وألحقتكم بأميركم العبد الأسود الذى تفاخروننا به ، لقد صدق فيه قول المتنبى » . اشارة بذلك الى هجاء المتنبى لكافور

فتصدى رجل من الكافورية واستل حسامه وقال : « أتطعن فى الاموات ؟ . انها قحة لم يكن لمولاتنا بنت الاخشيد أن تسكت عنها »

وعلت الضوضاء فصفقت بنت الاخشيد وصاحت : « ويحكم ما هذا ؟ أتتشاتمون فى حضرتى ؟ انسمع الطعن فى اسلافنا باذننا هذا

امر لا نرضاه . وليس هذا وقت الخصـــام والعدو بالباب . وانتم يا أصحاب كافور ، انه لم يكن الا خادما امينا رحمه الله فما بالكم تفاخروننا به . اما امارته فقد كانت فلتة انتحلها لنفسه او انتحلها له بعض ذوي الأغراض ، وزعم ان الخلعة اتته من بغداد . ما لنا ولهـذا الآن ؟ انه خصام في غير اوانه ! »

فوقف الكافورية جيعا وقال كبيرهم : « اما وقد سمعنا هـذه الاهانة من فم مولاتنا فلم يبق لنا الا ان نخرج ونترك الأمر لأصحابه وولاة امره » . قالوا ذلك وخرجـوا والغضـب باد في كل حركة من حركاتهم

وكانت لميـاء في اثناء ذلك تزداد وثوقاً بنجاح جند المعز . فقـد رات بعينيها وسمعت باذنيها اختلال امور الدولة وانقسـام قوادها وتباغضهم مما لاسبيل الى تداركه

فلمـا خرج الـكافورية التفتت بنت الأخشـيد الى لميـاء كأنها تستشهدها على هذه القحة وقالت : « ارايت اجهـل من هؤلاء ؟ . ويلاه كيف نحارب الاعداء ، اننا لا نقوى على قتالهم ؟ »

فاستبشرت لمياء بالفوز وقالت : « على رسلك يا سيدتي ، وعسى ان يكون هناك باب الفرج »

وكأن بنت الاخشيد ندمت على ما فرط منها فاستأنفت الـكلام وقالت : « لا اطيق أن اتصور ان يدخل البـلاد عدو غريب يحكم في رقابنـــا ؟ » . ورات انه كان عليها ان تلين القول للـكافورية وانها اخطأت فارادت أن تلقي التبعـة على سواها شان ضـعيف الراي . فالتفتت الى الاخشيدية وكانوا لا يزالون واقفين يتحدثون بمـا أتاه الـكافورية وقالت : « ما كان اجـدركم بألا تغلظوا لهم الـكلام وهم اخوانكم وعليهم المعول في الحرب »

فأجابها احدهم : « وانت ايضا يا مولاتنا تلقين التبعة علينـا ؟ أما سمعت الاهانة التي لحقت بنا وبك وبسائر آل الاخشـيد . فليكن ما تشائين . . أو لعلنا اخطأنا اذ بايعنا الامير احمد على صغر سنـنه ، لكننا لم نفعل ذلك الا اعتمادا على نصرتك . فاذا كنت ترين اننا غير أكفاء فلنذهب » . قال ذلك وخرج وتبعه رفاقه

فأحست بنت الأخشيد عند ذلك بضعف عزيمتها ، وانها اصبحت لا نصير لها الا اذا تذللت واستعطفت، فانقبضت نفسها وبان الانقباض في وجهها ، وسكتت هنيهة ولمياء تراقب حركاتها وتقرأ ما يجول في خاطرها . فلما راتها على تلك الحال قالت : « ما بال سيدتي كئيبة ؟. امن أجل كلمة تنقبض نفسك ؟ »

فتنهدت وقالت : « آه يا سلامة ! ليس انقباضي من اجل كلمـة ،

ولكن هؤلاء الناس لا يقدرون العواقب ، وقد خرجوا يتوعد بعضهم بعضا ، وهم يدنا وساعدنا وجندنا،فبمن نحارب عدونا ؟ لا نصالح ولا نقدر أن نحارب . ويلاه ما العمل ؟ » . ودمعت عيناها . فأكبت لياء عليها وضمتها وقبلتها وقد اشفقت عليها وقالت : « لا بأس عليك يا سيدتى لا تخافى »

فاستأنست بذلك الحنو وقالت : « كيف لا اخاف ؟ . واذا كان العدو قويا كما يظنون وقدر له الغلب فماذا يصيبنى ؟ »

قالت : « لا يصيبك شيء يا مولاتى »

قالت : « لاتلطفى الامر على »

قالت : « انى لا الطفه ويجب الا تياسى من النصر . ولكن هبى ان العدو اغتنم هذا الضعف وتغلب فانت فى امان ، لأن هؤلاء المغاربة على كونهم أعداء اقرب الى الضن بكم من هؤلاء الأجناد المتمردين ! »

فرأت فى لهجتها شدة وعزيمة فقالت : « وكيف عرفت ذلك ؟ »

قالت : « عرفته لانى من بلاد المغرب كما تعلمين ، وكان سيدى الأول ذا صلة متينة بأهل القيروان وتعرف الى المعز وقائده . وكثيرا ما سمعتهم يتحدثون عن طباعهم . انهم اقرب الى الخير من هؤلاء الاجناد و . . »

فقطعت كلامها قائلة : « هل تعرفين المعز وقائده ؟ »

قالت : « نعم يا سيدتى اعرفهما معرفة جيدة وهما يعرفاننى ايضا ».

فضحكت مسرورة بهذه البشرى ، واحست بنفوذ تلك الفتاة واحبت أن تقول شيئا فمنعها الحياء وحالت دونه الأنفة،فأدركت لياء غرضها فبادرتها قائلة : « انظرى يا مولاتى . ان ما لقيته من لطفك ومحبتك يقتضينى أن اغار عليك ، فاذا اذنت لى فى كلمة . . ». قالت : « قولى »

قالت : « انكم الآن فى حرب مع المغاربة ، وقد سمعت الآن أن ابن الفرات ساع فى الصلح ، فاذا وفق اليه فثقى بانك تكونين معززة مكرمة فانى اعرف أم الأمراء زوج المعز وهى من أكرم خلق الله وتحبنى حبا جما . فأنا اضمن لك ما يصون مقامك . واذا لم يفلح ابن الفرات وجرت حرب فاذا فاز المصريون فانت صاحبة السيادة . واذا غلبوا على أمرهم فأنا أفديك بروحى واكون وسيلة لحفظ كرامتك وأموالك »

ففرحت بنت الأخشيد ، ولكنها احست بصغر النفس وندمت على تصريحها بما قالته وخافت أن تستضعفها لياء أو تحتقرها

فقالت : « ولكن الفوز راجح لنا باذن الله »

فقالت لمياء : « ان النصر من عند الله يؤتيه من يشاء . وقد قلت لك ما أستطيعه والأمر لله من قبل ومن بعد »

فضمتها بنت الأخشيد الى صدرها وقالت : « انى اشكر لك غيرتك ايتها الحبيبة »

□

كانت الشمس قد مالت الى الاصيل ، فتحفزت بنت الاخشيد النهوض ، فوقع بصرها على قارب يجرى فى النيل مسرعا، والتفتت لمياء وتفرست فيه فلم يطل تفرسها حتى عرفت جماعة فيهم ابو حامد وسالم ، فخفق قلبها وارتعدت فرائصها وعلتها البغتة وتوردت وجنتاها ، لكنها تجلدت وتجاهلت فقالت بنت الأخشيد : « هل ترين هذا القارب ؟ يلوح لى انه قادم الينا وقد تعبنا اليوم من المقابلات » . قالت ذلك واطلت من الشرفة ولمياء معهما فرأتا القارب وقف عند المسناة بقرب باب القصر فقالت : « انهما قادمان الينا بلا شك فهل اقابلهما ؟ »

قالت لمياء : « تسألينني يا سيدتى ؟ انى لا ارى بأسا من المقابلة من وراء هذا الستر لعل مع القادمين خبرا جديدا ، فاذا اعجبنا استفدنا منه والا اهملناه »

قالت : « لله درك من حكيمة عاقلة ، يا ليتنى ظفرت بك من قبل »

وبعد هنيهة جاء الحاجب يستأذن لرجلين من اعيان المغرب . فاذنت بنت الأخشيد فى ادخالهما ، وأخذ قلب لمياء يخفق حتى خافت أن تخونها عواطفها فتشاغلت بالالتفات الى النيل لئلا يبدو ارتباكها . ثم دخل الرجلان فرأت من وراء الستر أنهما ابو حامد وسالم فجعلت تغالب عواطفها لترى ما يكون ، وهى تتوقع أن ترى شيئا جديدا يتم لها به ما كشفته فى تلك الجلسة وكان قد اقلقها ما سمعته من أمر الحسين

فلما دخلا القيا التحية ، فأمرت لهما بنت الأخشيد بالجلوس ورحبت بهما ، ولمياء تتفرس فيهما فرأت سالما على غير ما تعرفه من حسن الطلعة ، فظنت السفر غيره ، والواقع أن ما عرفته من خيانته وغدره قلل كثيرا من جماله

أما ابو حامد فقد كان أقوى خلقا واثبت عزيمة . يدلك على ذلك

بقائه على المطالبة بدم ابى عبد الله الشيعى دهرا لا يرى لنفسه عنه متحولا ، رغم ما لقيه من الفشل المتتابع وآخره فشله فى أمر كافور ، وكان قد أوشك أن ينجح لو بقى كافور حيا ولم يصب جند مصر ما اصابه من الانقسام . ومع علمه بانقسام الجند وضعفه فان عزمه بقى ثابتا لا يتزحزح عما عزم عليه منذ اعوام وهو يسوق سالما معه فيطيعه ويقول بقوله

فلما جلسا قالت بنت الاخشيد : « مرحبا بالاضياف ، من أين اتيتم ؟ ومتى كان قدومكم ؟ »

قال ابو حامد : « أتينا مصر منذ بضعة أشهر ، ونحن من أمراء المغرب فى سجلماسة أصابنا ما أصاب سائر امراء المغرب من ظلم العبيديين فقد فتحوا بلادنا واستبدوا وطلبوا الينا التسليم فأبينا وجئنا مصر لنعيش فى ظل الأخشيديين حيث لا يقع بصرنا على أحد من اعدائنا ولعلنا نستطيع خدمة الدولة . وقد علمنا أن ادعياء الخلافة بالمغرب زحفوا على مصر بقيادة المملوك الصقلى ، فتوقعنا أن تجتمعوا لدفعهم ، فالامر يهمنا وعدو عدوى صديقى . لكننا سمعنا بما أصاب قلوب بعض القواد والوزراء من الوهن حتى تحدث بعضهم بطلب الصلح . فعجبنا لهذا الضعف واحببنا أن نرى الجند خطاهم فلم نر أوجه من بنت الأخشيد فان الأمير حفيد أخيها وهو غلام فهى صاحبة الراى الاعلى »

فقالت بنت الأخشيد : « بارك الله فيك . وبماذا جئتنا من أسباب الطمأنينة ؟ »

قال : « ان ما جئتك به يا مولاتى هو أن اسعى فى التوفيق بين القواد الأخشيدية والكافورية . وهذا لا يكون الا اذا اثبت لهم أن جند المغاربة لا يستطيع أن يفتح هذه البلاد ، وأن ما وقع من انقسام كلمتهم ، انما مرده خوفهم من الفشل . وهذا طبيعى فى كل زمان ومكان . لا يختصم شريكان الا اذا خسرت تجارتهما . فاذا اقنعتهم بأن أولئك الادعياء لا يستطيعون فتح مصر ، تشجعوا واتحدوا وطردوا العدو عن بلادهم »

فأعجبت بنت الأخشيد بفصاحته وقوة حجته ، ونظرت الى لمياء فوجدتها مصغية ولم تتنبه الى ارتباكها فقالت لأبى حامد : « وما هو دليلك ؟ »

قال : « دليلى ان قائد جند المغاربة رجل اسمه جوهر الصقلى ، ولهذا الرجل ابن اسمه الحسين عزيز عليه . وقد علم الحسين هذا بمال كنا قد خبأناه فى بعض الأماكن قرب سجلماسة لنستعين به

على استرجاع ملكنا ، فاغتنم فرصة غيابنا وذهب بشرذمة من الجند ليستولى على المال . ولكن رجالنا هناك قبضوا عليه وارسلوه الينا مغلولا ، فاذا شئت دفعناه اليك تجعلينه رهينة تهددين به اباه »

وتذكرت بنت الأخشيد قول لمياء انها تعرف المعز وقائده وجميع رجال الدولة فى القيروان ، فلما سمعت ما قاله ابو حامد عن الحسين ابن جوهر التفتت اليها فوجدتها لا تزال شاخصة تتطاول بعنقها لسماع بقية الحديث فقالت لها همسا : « هل تعرفين الحسين ابن جوهر ؟ »

قالت : « نعم أعرفه واحب ان تأمرى باحضاره لئلا يكون هذا الرجل كاذبا »

قالت : « وهل تعرفين هذين الرجلين ؟ »

قالت : « نعم رأيتهما فى القيروان وسمعت عنهما ما يضعف الثقة بهما ، فاذا أمرت باحضار اسيرهما لنراه كان ذلك اقرب الى التثبت »

قالت بنت الأخشيد من وراء الستر : « اين ذلك الأسير ؟ »

قال أبو حامد : « هو عندنا واذا شاءت مولاتى اتيناها به »

قالت : « افعل »

فأشار ابو حامد الى سالم أن يمضى ويأتى به ، فمضى ولبثت لمياء على مثل الجمر تتماسك وتتجلد لئلا تغلبها عواطفها ، وهى تحب أن يكون كاذبا فى قوله فيكون الأسير رجلا آخر ، لكنها ما لبثت أن سمعت ضوضاء قرب الباب وسالم يقول : « تقدم يا جبان لتراك مولاتنا بنت الأخشيد »

فتطاولت لمياء بعنقها حتى وضعت عينها على ثقب الستر واذا بالحسين يدخل والاغلال الحديدية فى عنقه ويديه ، لكنه مشى بقدم ثابتة والتفت الى سالم وقال : « متى رايتنى احاول الفرار حتى تدعونى جبانا ؟ »

فالتفتت بنت الأخشيد الى لمياء لتستطلع رأيها فى الرجل فراتها ترتعد وقد احمرت عيناها وكادت تغلب على امرها فقالت : « هل هذا هو الحسين كما يقول ؟ »

فأشارت براسها أن « نعم » ولم تفه بكلمة لئلا يختنق صوتها فينفضح أمرها ، فاستغربت بنت الأخشيد ما بدا من اضطرابها لكنها وجهت خطابها الى الحسين قائلة : « أأنت الحسين بن جوهر قائد جند المعز ؟ »

فأجابها وهو رابط الجاش ثابت الجنان : « نعم أنا الحسين بن جوهر فاتح أفريقية وقائد جند المعز ليفتح مصر عما قليل »

فوكزه سالم بيده وقال : « اخرس يا نذل ، أبمثل هـذا تخاطب مولاتك ؟ »

فرفسه الحسين برجله وقال : « اخرس انت ، فهى مولاتك أنت . ولو عرفتك لتبرأت من هذه الولاية ، أما مولاى فهو المعز لدين الله الفاطمى »

فتصدى أبو حامد للكلام وهو يضحك وقال مستخفا : « ألا تزال تسمى ذلك الدعى فاطميا وفاطمة بريئة من نسبه ؟ »

فقال الحسين : « انه فاطمى رغم خيانتك وغدرك »

فقالت بنت الأخشيد : « ما أوقعك فى الأسر ؟ »

قال : « وقعت فيه تفانيا فى خدمة مولاى المعز ، وقد فزت والحمد لله بما اردت . فأخذت المال الذى خزنوه فى فج الأخيار وبعثت به الى القيروان فصبوه قطعا كالأرحيـة حملوها معهم على الجمال الى هنا »

قال ابو حامد : « لا تكذب ! »

قال : « انما الكاذب أنت !. انى فعلت ما طلب منى وارسلت المال الى مولاى المعز ، وسيستعين به على فتح مصر . ولا يغرنك ما اتاه رجالك من القبض على فان ذلك غير ضائرى . قد قمت بما على واذا مت السـاعة لا أبالى فان الأعلام الفاطمية لا تلبث أن تخفق فوق الفسطاط ، واذا لم أوفق الى رؤيتها وأنا حى فان عظـامى تراها وتفرح »

فأعجبت بنت الأخشيد بجرأته التى لا تقـدر ان تتصورها ولا سمعت بمثلها لما نشأت عليه من الخمول والرخاء ، فالتفتت الى لمياء فرأتها مع عظم تأثرها قد غلب البشر على محياها فقالت همسا : « أ ستغرب ما أسمعه ! »

قالت لا تستغربى يا سيدتى . فهذا شان هؤلاء القوم ، وهم لم يفتحوا افريقية الا بمثل هذا التفانى » .

قالت : « رغم ما سمعته من هذا الشاب فانى أشعر بانعطاف اليه ولم يعجبنى تطاول هذا السجلماسى »

فلم تتمالك عن الانتصار للحسين فقالت : « فكيف لو علمت الفرق بين أخلاق الرجلين ؟ »

قالت : « هل تعرفين شيئا عنهما ؟ »

قالت : « أن أهل القيروان يتحدثون بذلك . اما الآن فمرى اذا شئت أن يكون هذا الاسير فى دارك ، واصرفى الرجلين الى الغد »

قالت : « أحسنت » . وصفقت فأتى بعض غلمانها فقالت : « خذ هذا الأسير الى غرفة يقيم بها حتى ننظر فى أمره ، واحلل وثاقه فلا خوف من فراره »

فقاده الغلام بيده ، وخرج ، فوقع هذا العمل من نفس لمياء موقعا جميلا وكاد قلبها يطير من الفرح . ولحظت بنت الأخشيد ذلك فيها فظنتها فعلته لشعور مثل شعورها فعذرتها ، والتفتت الى أبى حامد وقالت : « سننظر فيما عرضته علينا ، وسأقص ما رأيته على قوادنا فعسى أن ينفعنا الله بكم » . ففهم أبو حامد أنها تصرفهما ، فنهض وخرج مع سالم ، وقد سقط فى أيديهما ، وان لم يفهما ما جال فى خاطرها

□

ونهضت بنت الاخشيد لتوها وهى تتثاءب وتقول : « ما أثقل هذا اليوم !. لقد تعبت من المفاوضات . ان هذا لا يستطيعه الا كبار الرجال ، وقد أخطأنا بتولية هذه الامارة غلاما صغيرا »

فنهضت لمياء معها وقد غربت الشمس وأخذت الظلال تتكاثف وتتحول الى ظلام . وأصبحت تود الاختلاء بنفسها للتفكير فميا تراكم فى ذهنها من الحقائق الجديدة ، وما أصاب قلبها من الصدمات المتوالية . فرأت بنت الأخشيد تحولت الى غرفتها واشارت اليها أن تتبعها فأطاعت . وقد أدهشتها تلك الغرفة بما فيها من الرياش الثمين وفى صدرها سرير من الأبنوس المنزل بالعاج والذهب وفوقه كلة من الحرير الشفاف (الملس) وكل ما فى الغرفة زاه زاهر عكس قلب صاحبته المسكينة فانها خرجت من تلك الجلسة وقد تراكمت عليها الهموم والمخاوف ولم تكن تشعر بشىء من ذلك قبلا . وأصبحت شديدة التعلق بلمياء ولا سيما بعد ما آنسته من تعقلها والخدمة النافعة التى عرضتها عليها . فجلست على سريرها وأمرت لمياء أن تقعد بجانبها فقعدت وهى تفضل الخلوة لكنها اطاعتها ولحظت ما هى فيه من القلق فاشتركت فى احساسها وشعرت أنها امتلكت قلبها

وظلتا هنيهة صامتتين وبنت الأخشيد مطرقة ويمناها على كتف لمياء واليسرى على قلبها كأنها تتقى صدعا أصابه . ثم تنهدت ونظرت الى ما حولها تتحقق خلو المكان من الناس ، ثم التفتت الى

لميـاء وضمتها الى صدرها وقبلتها فى عنقها وأطالت تقبيلها فشعرت بسائل حار يقع على عنقها فاجفلت وعلمت أن بنت الأخشيد تبكى وهى تحبس نفسها لئلا تلحظ لمياء ضعفها . فتلطفت لمياء ورفعت رأسها وضمتها وهى تقول : « ما بالك يا سيدتى ؟ خففى عنك . انى لا أرى باعثا على ذلك . ومن كان فيما أنت فيه من الوجاهة والنفوذ لا مندوحة له عن امثال هذه المشكلات »

فرفعت رأسها وتنهدت ثانية وقالت : « لا تعجبى من ابداء ضعفى بين يديك فى أول يوم عرفتك فيه ، فانى أشعر كانى عرفتك منـذ اعوام . وقد اطلعت على حالنا الليلة فاشيرى على .. أشيرى على يا حبيبتى »

فسرت لمياء من وثوق تلك المرأة بها ، واحست بالعطف عليهـا واستغربت انقلابها بهذه السرعة عما كانت عليــه من الزهو والتيه لما رآها فى ذلك الصباح . وشاركتها فى البكاء وليس اسهل عليهــا من ارسال الدمع فان مصائبها تترى واحساسها حى فقالت : « هونى عليك يا مولاتى ، انى لا أرى باعثا على هذه الشكوى . وقد ذكرت لك ما اقـدر عليه فى خدمتك ، وقد فتح لنـا باب جديد بوجود الحسين بن جوهر اسيرا فى قصرك وتحت رعايتك ، ولا ينفعك أن تثقليه بالقيود والأغلال ، فان ذلك لا يؤذيه . ولا اقول لك اطلقى سراحه فان فى ذلك خيانة لبلدك . ولـكننى اقول لك أكرمى مثواه واحسنى وفادته ، فاذا قدر النصر لجند مصر كان الحسين هذا من اسرى الحرب . واذا فاز القيروانيون وانهزم المصريون عرف الحسين فضلك وسعى فى صيانتك وحفظ كرامتك » .

فدهشت بنت الأخشيد لهذا الرأى الذى لا يأتيه الباطل فقالت : « بورك فيك ، ولعلك علمت انى غضبت لهذا الشاب وساءنى ما أتاه معه ذلك السجلماسى من الفظاظة ، وشعرت بما علمته منك بعد ذلك من التبـــاين فى أخلاقهما بانى ميالة الى محاسنة الحســـين وسأفعل .. »

فأطرقت لمياء لحظة ثم قالت : « وعندى راى اظنك توافقيننى عليه ، أعنى اننا اذا صارت حالنا الى الخطر استكتبناه كتابا الى ابيه يوصيه بك وبمن فى دارك خيرا »

ونهضت تظهر رغبتها فى الانصراف فأحسنت بنت الاخشيد انها اتعبتها فى ذلك اليوم ، فنهضت وقبلتها وقالت : « اذهبى الى فراشك يا عزيزتى واستريحى فقد أتعبتك اليوم »

فودعتها وانصرفت الى غرفتها وقـد امتلأ صدرها املا بالفوز واصبح همها أن تنقل ما شاهدته من فساد أحوال الدولة والجند

الى يعقوب ، حتى ينقله الى معسكر جوهر بالاسكندرية ، فلبثت تترقب الفرص

□

كان الحسين قد ذهب الى فج الأخيار فى شرذمة من الفرسان ، فاستطاع الاستحواذ على الاموال وارسالها الى القيروان ، ثم غافله حراس ذلك المخبأ فعقروا فرسه ، وبعد معركة جاهد فيها جهاد الابطال تكاثروا عليه حتى سقط فشدوا وثاقه ووضعوا الأغلال فى يديه ورجليه وعنقه وبعثوا به الى أبى حامد بمصر ، ولم يخبروه أنه تمكن من حمل المال قبل القبض عليه . او لعلهم اخبروه وتجاهل . ووصل الحسين باغلاله الى مصر وهى فى تلك الحال فرأى ابو حامد ان يتخذه وسيلة لانجاح مساعيه ، فحمله الى بنت الأخشيد ، لكنه احس قبل خروجه من حضرتها انه لم ينجح ، ولكنه تجاهل امام سالم وأوهمه أنهما نائلان ما يريدان عن قريب وأن الجند القيرواني سيعود بالفشل . وكان يحسب التوفيق بين الاجناد اسهل مما رآه على اثر ذلك النزاع فى مجلس بنت الأخشيد

اما الحسين فشعر بالفرج جاءه عندما سيق الى القصر وحلت اغلاله ، فبات ليله مرتاحا وفى صباح اليوم التالى اتوه بثياب نظيفة وفرشوا له غرفة خاصة وأوقفوا له خادما يقوم على حاجته من طعام وشراب . كل ذلك باسم السيدة بنت الأخشيد . فلم يكن ينقصه غير الخروج من القصر اذ كان هذا محظورا عليه ، فكان يقضى أوقاته مفكرا فيما مر به وصورة لمياء لا تبرح أمامه . ولم يكن يعرف اين ذهبت وكلما تصور معاملة سالم وابى حامد غضب وتوعد . وكان فى اثناء الطريق قد علم بحملة أبيه ونزوله الى الاسكندرية وسمع وهو فى قصر بنت الأخشيد أن بعض المصريين يسعون فى الصلح والتسليم ، وود لو انه مطلق ليشترك فى المعارك . وقد شكر لبنت الاخشيد اكرامها اياه بلا سبب يعلمه

وبعد ايام جاء رسول يدعوه الى لقاء بنت الأخشيد فى قاعتها ، وادخله الحاجب القاعة ونادى السيدة من وراء الستر قائلا : « هذا يا سيدتى الحسين بن جوهر فى حضرتك » . وتركه هناك وخرج

فتقدم الحسين والقى التحية ، فردت السلام وقالت : « كيف ترى نفسك يا حسين ؟ »

قال . « اراني مقيدا »

قالت : « ألم تحل قيودك ؟ »

قال : « بلى وهذا فضل منك لا أنساه ، فقد فعلت ما هو اليق بالكرام ولكنني لا ازال اراني مقيداً . انى كالمسجون فى هذا القصر »

قالت : « لا الومك لضجرك من هذا الحبس ، ولو كنت مكاننا لما فعلت غير ذلك ؟ ان أباك حامل علينا بخيله ورجله ووقع ابنه فى يدنا وبلغنا أنك من خير القواد ، فهل نطلقك لتكون عونا لعدونا علينا ؟ أما كفاك أننا حللنا قيودك وأطلقنا لك الحرية وقمنا بما تحتاج اليه من أسباب الراحة ؟! »

فراى حجتها دامغة فقال : « لا أنكر فضلك يا مولاتى ، والحق يقال أننى لا أنسى هذا الجميل . . والدنيا دول . . »

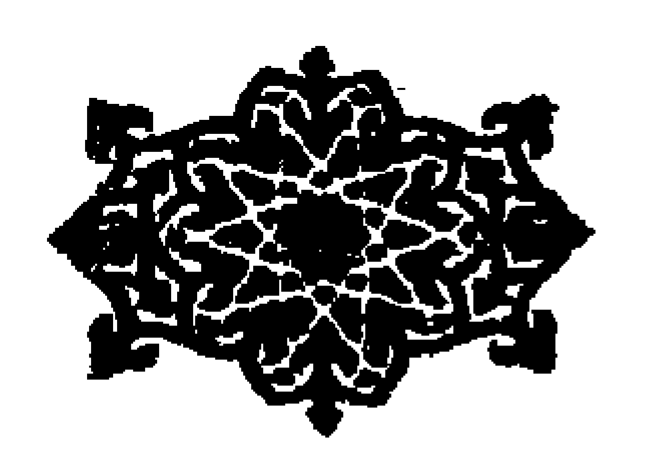
فقالت : « عسى أن تنتهي هذه الحرب صلحا ونجتمع على مودة. وقد بعثت اليك الآن فاذا كنت ترى تقصيرا فى خدمتك فنصلحه »

قال : « لا أشكو من أى تقصير »

قالت : « تقدم قليلا لأقول لك كلمة »

فتقدم حتى دنا من الستر فقالت له : « سأرسل اليك بعد قليل جارية اسمها سلامة تطلب منك أمرا فاقضه لها . وقد لا أحتاج الى ارسالها فاذهب بسلام »

فتراجع حتى فتح الباب فلقيه الحراس فرافقوه الى محبسه ، وقد شغل باله ما اقترحته عليه وكان ذلك بتدبير لمياء لزيادة اطمئنانه. حتى اذا احتاجوا الى كتاب توصية لا يكون ثمة ما يمنعه من الاجابة »



الحرب

قضت لمياء اياما وهى ترى نفسها بقرب الحبيب ، وأنها تستطيع الوصول اليه ، لكنها لم ترض أن تلقاه ، فقد عاهدته وعاهدت نفسها لتصبرن حتى تضع الحرب أوزارها. وكانت تخاف اذا عرف الحسين بوجودها هناك ان يحدث ما يعرقل مساعيها . فتجلدت حبا فى سلامته وكرامته . ومع شجاعتها ورغبتها فى ان يشترك الحسين فى فخر الفتح كانت نفسها تميل الى صيانته من خطر الحرب . وكانت على ثقة من قدرة جند المعز على الفتح بدون الحسين فلماذا تعرضه للقتال فقد يجيئه سهم يصيب منه مقتلا وهى حريصة على حياته.

وافاقت ذات يوم على اصوات المنادين فى أسواق الفسطاط . وكانوا لا يفعلون ذلك الا لأمر هام يريدون نشره ، مما يعلن عنه فى الصحف أو تنشر به المنشورات الرسمية فى هذه الايام . فكانت حكومة ذلك العصر تذيعه على أفواه المنادين . فسمعت لمياء صوت المنادي يقول : « يا أهل الفسطاط قد جاءنا عدو من افريقية يعتدى على بلادنا بلا ذنب اقترفناه سوى طمعه فى الاستيلاء علينا . وقد وقع الى مولانا الأمير أن بعض الخونة المارقين اغرى جماعة من الاعيان بالاستسلام ، فكتبوا بذلك كتابا بعثوا به الى الاسكندرية ، فاعلموا أنها خديعة ترمى الى الايقاع بالدولة . واعلموا ان الأمير أعزه الله وسائر رجال الدولة والقواد الاخشيدية والكافورية والأتراك وغيرهم لا يقبلون صلحا ، وانما يحتكمون الى السيف. وذلك حتى يكون الناس على بينة فى أمرهم فلا يخدعون بقول ولا يصغون لوشاية . وهؤلاء جنودنا خرجوا بمضاربهم الى بر الجيزة لملاقاة العدو اذ قد جاءت الأنباء بقدومه الى هناك . فعليكم يا أهل الفسطاط أن تأخذوا بأيدى الجند ، وتبذلوا لهم ما تستطيعونه من العون . تقدموه الى من يأتيكم من عند الوزير او الأمير ولا تضنوا بالمال فانه أقل ما يبذل فى سبيل الذود عن الدولة والملة . والنصر من عند الله يؤتيه من يشاء وهو على كل شيء قدير »

فاطلت لمياء من نافذة عالية تشرف على الطريق ، فرأت المنادى يسير ووراءه الجماهير من الرجال والأولاد ، وقد علت الضوضاء وساد الاضطراب . فقالت فى نفسها : «لا بد أن يكون لذلك اللعين أبى

حامد ضلع فى جمع قلوب الجند على الدفاع ، ولكن القلوب متنافرة والنيات فاسدة والضغائن متبادلة فلا أمل فى نجاحهم »

وفيما هى فى ذلك أتتها القهرمانة تدعوها الى بنت الأخشيد ، فاسرعت فرأتها جالسة على شرفة من القصر تطل على النيل وما وراءه الى الجيزة ، فابتدرت لمياء قائلة : « يظهر أن السجلماسى قد افلح فى جمع قلوب الاجناد . انظرى كيف يعبرون النيل فى القوارب الى الجيزة ، وهذا الجسر الآخر بين الروضة والجيزة كذلك أيضا . وهذه الجسور مصنوعة من السفن الموضوعة جنبا لجنب وفوقها سقائف من الخشب وطبقة من الرمال والحصى يتوهم غير العارف انها ضعيفة وهى متينة . هل ترين معسكر الاعداء ؟ انى لا اراه »

وكانت لمياء أثناء ذلك تجيل بصرها فى ذلك المعسكر ، ولم تفرغ السيدة من كلامها حتى ظفرت لمياء بمكانه فصاحت : « انظرى يا سيدتى الى ذلك الغبار المخيم الى اليمين وقد نصبت الخيام والفساطيط . هل ترينها ؟ »

فقالت وقد امتقع لونها : « نعم رأيتها ، ويظهر انهم جند كثيف . ما العمل الآن ؟ . ماذا ترين . هل تظنين جندنا يغلب ؟ »

قالت : « أما سمعت قول المنادى أن النصر من عند الله يؤتيه من يشاء ؟ »

قالت : « ما العمل الآن ؟ »

قالت : « اما نحن هنا فلا خوف علينا »

قالت : « هل أخذت الكتاب من الحسين »

قالت : « هذا وقته . هل تأذنين لى فى ذلك ؟ »

قالت : « افعلى ولكن من يوصله الى القائد جوهر ؟ »

قالت : « أنا أوصله ، وانما أحتاج الى ثوب اتنكر فيه بزى الرجال ، فمرى لى بذلك وبجواد أركبه »

قالت : « وهل تستطيعين ركوب الخيل ؟ »

قالت : « نعم ، تعودتها منذ صباى »

فأمرت لها بما طلبته فلبست ثوب أحد الاجناد، وتلثمت ونزلت الى الحسين وقلبها يخفق من هول تلك المقابلة لكنها صممت على التكتم

وكان الحسين قد سمع المناداة كما سمعها غيره ، واصبح كالأسد الهائج اذا رأى الفريسة وهو مقيد . وقعد على سريره واذا بذلك الجندى قد دخل عليه فقال : « من أنت وماذا تريد ؟ »

فخفضت لمياء صوتها واجتهدت فى تغييره وقالت : « أنا سلامة الجارية ، أتيت لاطلب منك ما وعدت به مولاتى بنت الاخشيد »

فقال : « وما ذلك ؟ » . قالت : « أن تكتب كتابا الى أبيك تذكر له فيه أنه عليه اذا قدر له النصر ودخل الفسطاط ظافرا أن يأخذ رجاله بحماية هذا القصر جزاء ما لقيته من رعاية أصحابه . هل تفعل ؟ »

قال : « نعم ، ان لصاحبته فضلا على لا أنساه . . » . قال ذلك واخذ قرطاسا وكتب فيه بخطه رسالة بهذا المعنى ودفعها الى لمياء ، فتناولتها واسرعت فى الذهاب خوفا من ان تغلب على أمرها ويتسلط قلبها على عقلها . وركبت جوادها وخرجت تخترق الصفوف تطلب منزل مسلم بن عبيد الله وهى تراقب ما تراه من احوال النـاس . فرأت الحماسة مقصورة على الاجناد ، وانهم قد اتخذوا ذلك النداء ذريعة لابتزاز الامـوال . والمصريون لا يريدون حـربا لأنهـم ملوا اســتبداد هذه الدولة ومالوا الى استبدال دولة اخرى بها ، وقد لا تكون أقل منها استبدادا لـكنهم يحبون الجـديد . فرأت الجنـد يسوقون جماعة من أعيان التجار ويضربونهم ويهينونهم لأنهم لم يؤدوا الاعانة ، والناس يصيحون ويستغيثون ويشكون فراغ جيوبهم . ثم اجفلت لسماعها صوتا كصوت سالم فالتفتت فرأته ومعه عمـه فى جماعة من القواد سائرين على افراسهم الى الروضة وهم يحرضـون الناس على الطاعة ، وسمعت سالما يقول لبعض الاغنيـاء من الاهلين رآه يستغيث من تطاول الجند عليه فى طلب المال : « اخرجوا الاموال فان هذا الجند يذب عن ارواحكم واموالكم الا تسعفونهم بالمـال ؟ » فعلمت ان الرجلين يدا فى جمع كلمة الجند ونكث الصلح

وبعد قليل وصلت الى بيت الشريف مسلم فرأت بابه مزدحمـا بالناس بين راكب وراجل واكثرهم من الاهلين جاءوا يتظلمـون او يستظلون ، وسمعت نقمتهم على الاجناد وغضبهم لنقض الصـلح . فاخترقت الصفوف حتى وصلت الى الباب فوسعوا لها مكرهين يحسبونها جنديا جاء لمصادرة أو اغتصاب ، حتى دخلت وطلبت أن ترى الشريف فقيل لها انه فى شاغل فقالت : « قد جئت فى رسـالة مستعجلة »

فوسعوا لها فدخلت عليه بعد ان ترجلت وسلمت الجواد الى بعض خدمه . وكان مسلم مختليا فى غرفته مع بعض الاعيان والتجار وقد علت أصواتهم بالاحتجاج على نقض الصلح . فلما قيل لهم أن جنديا بالباب سكتوا فدخلت لمياء بلثامها واشارت الى مســلم بأنها تريد مقابلته على حدة . فدخل معها الى غرفة فأوصدت الباب وراءها ثم ازاحت اللثام فدهش لرؤيتها وقال : « ما وراءك . . من اين أتيت ؟ »

فقصت عليـه خبرها وقالت : « ان الحسـين فى القصر بـأمن ، وانها احتالت فى المجيء محتجة برسالة تؤديها ، وانما غرضها أن تبلغ

القائد جوهر حال الدولة من الاختلال والضعف حتى لا يغتر بالصياح. فاعجب الشريف بحميتها وبسالتها وقال : « لله درك من فتاة باسلة مخلصة . هل تريدين الذهاب إلى القائد بنفسك ؟ »

قالت : « نعم لانى أستطيع بذلك أن أزيده بيانا وعلما بالأمور »

قال : « حسنا تفعلين وسيفرح بلقيـــاك لانك تنقلين اليه خبر الحسين وانه حي آمن، وقد سمع بوقوعه في الأسر ولا يدرى أين هو»

قالت : « أين المعلم يعقوب ؟ ».

قال : « الم تسمعى بما أصابه ؟ »

قالت : « كلا . . ماذا جرى له ؟ »

قال : « أن الوزير ابن الفرات صادر اربعة آلاف وخمسمائة دينار علم بوجودها عنده وأراد قتله فالتجأ الي ثم فر الى معســكر القائد جوهر . وقد حملته ما استطعت من الاخبار والآراء . وستكون رسالتك أهم عنـــده لانك استقيت الخبر من مظـــانه . اركبى . وسأرسل معك بعض رجالي . . لا خوفا عليك . وانما ليدلوك على الطريق » .

فقبلت وخرجت فامتطت فرسها وركب معهـا بضعة من رجال الشريف وساروا قاصدين الى معسكر القائد جوهر ، فقطعوا جسرا على النيل أسفل الفسطاط والشمس قد مالت عن خط الهـــاجرة فوصلوا الى المعسكر قبيل الغروب. وكان رفاقها قد عرفوا فسطاط جوهر فساروا توا لا يعترضهم معترض

□

كان جوهر جالسا فى فسطاطه وقد اوقدت الشموع واجتمع قواده حوله وهم جلوس ، وجوهر مطرق يفكر فى فقد ابنه الحسين. وكان قد سمع من الذين حملوا اليه الاموال من فج الاخيار انه تخلف منهم ، ولعله قتل أو وقع أسيرا . وفيما هم فى ذلك دخل الحاجب وقال : « أن بالباب رسولا من الفسطاط يطلب أن يرى القـائد على انفراد »

فصرف جوهر الحاضرين ، وأمر بادخال الرسول فدخلت لميـاء بثوبها ولثامها وازاحت اللثـام وأكبت على يده تقبلها فلم يتمالك عن النداء « لمياء لمياء ! »

فأشارت بأصبعها على شفتها أن يكتم امرها ، فضمها الى صدره كأنها ابنته وهو يحبهـــا كما يحب الحسين . لكنه تذكر الحســين

فانقبضت نفسه وكادت الدموع تترقرق فى عينيه فقالت : « جئتك يا سيدى ببشرى مزدوجة »

قال : « ما هى ؟ » . قالت : « الاولى ان سيدى الحسين فى أمان ، ولو عرفنى عند ما حملنى رسالته هذه اليك لكلفنى بالقاء التحيـــة ولكنى اضطررت للتستر . والثانية ان عدوكم الذى يحاربكم وتسمعون صياحه ونداءه انما هو كالقصبة المرضوضة او كالطبل صـــوته قوى وقلبه فارغ »

قال : « ماذا ارى ؟ انت لمياء ؟ وقد جئت بهاتين البشارتين وأهمهما وجود الحسين حيا بعد أن يئست من وجوده . أين هو وكيف عرفت ذلك ؟ اخبرينى »

فجلست وقصت عليه ما راته وقاسته منذ تركت القيروان الى أن اخذت تلك الرسالة من الحسين . ودفعتها اليه ، فقرأها وقال : « سأفعل ذلك حبا وكرامة . واين ذلك الخائن وعمه ؟ » . فتنهدت وقالت : « رأيتهما مع الجند يحرضانهم على الحرب وســينالان الجزاء . كيف فارقت مولانا المعز وأم الامراء ؟ »

فقال : « ان مولانا المعز أعزه الله وأتم نصره من معجزات الزمان »

قالت : « ومن أكبر اسباب سعادته أنك قائده »

قال : « كلا يا لمياء ، انى لو سفكت دمى عند قدميه لا أكافئه على صنيعه . انت تعلمين منزلتى عنده ولكننى لو اخبرتك بما نعله يوم خروجى من القيروان على راس هذه الحملة لرايت عجبــا . انه أمر بافراغ الذهب فى الأرحية ، وأن تحمل معى ظاهــرة . وامر أولاده واخوته الامراء وولى العهد وسائر أهل الدولة أن يمشــوا فى خدمتى وأنا راكب . وكتب الى سائر عمـــاله يأمرهم اذا قدمت عليهم أن يترجلوا . فلما اتيت برقة عظم على صاحبها أن يفعل ذلك فافتدى ترجله ومشيه فى ركابى بخمسين الف دينار ذهبا ، فأبيت الا أن يفعل ما أمر به أمير المؤمنين ففعل . أمثل هذا الخليفة يكثر فيه أن أفديه بالروح ؟ ! »

قالت : « صدقت والله انه نابغة الخلفاء . وهل أنسى انا ما اكرمنى به حتى كان ينادينى ابنته . وهل مثل هذا الخليفة يكون نصيبه من حربه غير النصر ؟ وهل تصلح الدولة ان لم يكن رجالها قلبا واحدا فى طاعة أميرهم ؟ اين ذلك من جنـــود مصر ودولتهم فقد ســــمعتهم يختصمون على أمور تافهة ورأيتهم يضربون الناس لابتزاز المـــال . لا شك ان الله اذن بانقضاء دولة الاخشــيديين . . هل ترى أن أعود الى الفسطاط . وما هى العلامة التى نجعلها على دار بنت الاخشيد حتى لا يمسها أحد بسوء ؟ »

فضحك وقال : « كأنك واثقة من دخولنا ظافرين ؟ »
قالت : « لا شك عندى فى ذلك »

قربت على كتفها بيده وقال : « بارك الله فيك انصبوا على باب القصر علما أخضر ، وسأوصى الجند بأن يجتنبوا ذلك الباب »
قالت : « اتأذن فى انصرافى ؟ »

قال : « تبيتين الليلة هنا ونرى ما يكون فى الغد ، ولا باعث على العجلة فى الذهاب » . فأطاعت

أما أهل الفسطاط،فكانوا بعد ما قاسوه من الظلم والاهانةوالسلب اصبحوا يفضلون الفاطميين . وأما بنت الاخشيد فانها مكثت بعد ذهاب لمياء وقد تولتها الدهشة لما شاهدته من مروءة هذه الفتاة وبسالتها . ولبثت تنتظر رجوعها وقضت أكثر أوقاتها فى الشرفة المطلة على الجيزة لتراقب حركات الجندين ، وقلما كانت ترى شيئا منهما لبعدهما عن مجال البصر لكنها كانت تتلهى بذلك ووجهتعنايتها للحسين وامرت باكرامه ورعايته

وكان الحسين بعد ذهاب لمياء قد احس بشيء أذكره حبيبته فلم تعد تذهب صورتها من ذهنه وهو لايدرى السبب . والسبب ان صوتها وهى لم يخل من غنة تعود قلبه أن يطرب لها يوم اجتماعه بها فطرب لها الآن وهو لا يعلم ان مخاطبته خطيبته .

قضى الحسين ليلته وهو يفكر فى لمياء واين هى . وتذكر قولها يوم وداعه انها ستلاقيه فى الفسطاط وتمثلت له حماستها ووثوقها بالظفر من ذلك الحين . فاختلج قلبه واحس بشوق الى رؤيتها أو معرفة خبرها .

مضت أيام ولم ترجع لمياءبالجواب من جوهر فقلقت بنتالاخشيد ورجح لديها فوز الفاطميين يوما بعد يوم فأصبحت خائفة على حياتها وانما طمأنها أن الحسين بن جوهر أسير عندها تحتمى به عند الحاجة ولما اشتد قلقها بعثت اليه فجاءها فسألته عما يراه من أمر تلك الحرب

فقال : « لا ريب عندى فى فوز جندنا يا سيدتى »
قالت : « عجبا .. كيف تؤكد ذلك ؟ »

قال : « لاننا متحدون قلبا وقالبا فى خدمة أمير المؤمنين نساء ورجالا ، ليس فينا الا من يفدى أمير المؤمنين بروحه ، فهل انتم كذلك ؟ »

فقالت وقد غلبت على عواطفها : « لا يابنى . لسنا كذلك لسوء الحظ »

قال : « أما نحن فلا هم لنا الا التفانى فى نصرة الخليفة . أضرب لك مثلا على ذلك فتاة خطيبتها فى القيروان ، وجاء ذكر الحملة على مصر فأبت أن يتم الزواج الا فى الفسطاط بعد فتحها . ثم هجرت بيتها وسافرت فى خدمة الدولة تمهيدا لهذا النصر لا يعلم أحد أين هى . ولا انسى قولها ساعة الوداع : (سنلتقى فى الفسطاط فى قصر مولاى المعز لدين الله على ضفاف النيل) . ذلك لوثوقها بالنصر والجند لم يتحرك من القيروان »

فاستغربت بنت الاخشيد قوله وقالت : « لله درها من فتاة نادرة المثال وأين هى الآن ؟ »

قال : « أن قلبى على مثل الجمر لاجلها ، ولكننى واثق اننا سنلتقى هنا »

قالت : « يظهر ان نساء بلادكم اقوى من نساء بلادنا واشد حماسة ، فانى عرفت جارية مغربية اهداها الى يعقوب بن كلس بالأمس لم تر عينى أعقل منها ولا أطيب من قلبها وهى مع ذلك شجاعة باسلة لا تبالى ركوب الاخطار ، وقد قالت إنها تعرفك وتعرف اباك والخليفة وتعرف أيضا الاميرين السجلماسيين اللذين حملاك الينا اسيرا »

قال : « ما اسمها ؟ » . قالت : « سلامة . . »

قال : « أهى التى اتتنى متنكرة بثوب جندى واخذت الكتاب الى ابى ؟ »

قالت : «نعم هى بعينها لله درها ! . انى لم اعهد مثل هذه الحماسة والبسالة فى النساء حتى لقد قلت لها مرة : (ليست هذه الاخلاق من اخلاق الجوارى) . . »

فراى الحسين شبها بين اخلاق لمياء وبين ما سمعه عن سلامة لذكر خروج لمياء من القيروان لخدمة المعز . . . فاطرق يقول فى نفسه : « هل يمكن أن تكون سلامة هى لمياء متنكرة ؟ »

واستبطات بنت الاخشيد جوابه ورات اطراقه فتصورت انها جددت ذكرى خطيبته وهو بعيد عنها ، فلم ترد أن تشغله عن تأملاته فحولت بصرها نحو النافذة المطلة على النيل والجيزة ووراءه فرات الروضة تعج عجيجا بالناس وفيهم الفرسان بالرماح والسيوف والمشاة بالحراب فى غير زى المصريين وقد تطايرت السهام وابرقت السيوف فصاحت : « ويلاه هذه هى الحرب . قد دخل العدو بلدنا »

فالتفت الحسين الى الروضة واجال نظره فى تلك الجهات فقال :

« قضى الأمر يا مولاتى هذا جندنا يقطع الجسر وهذه اعلامنا ولا يلبث أن يدخل الجند الفسطاط ظافرا .. لا تجزعى انى أفديكم بدمى ها أنذا نازل لاقف بالباب وامنع رجالنا من دخوله » . قال ذلك وأسرع نحو الباب الخارجى الكبير وكانوا قد أوصدوه . فرأى جنديا مغربيا يتسلقه وخدم القصر يستغيثون به ويتقدمون اليه ألا يفعل لأنهم لا يحاربون وهو لا يبالى . فصاح فيه الحسين : « انزل يا رجل ان الذى يخاطبك هو الحسين بن جوهر »

فلم يكترث الجندى لقوله بل ظل فى عمله حتى وصل الى عتبة الباب العليا فأخرج من جيبه علما أخضر نصبه فوقها وتحول الى الداخل وأشار الى أهل القصر ان يتركوا الباب مغلقا ، فنظر الحسين فى وجهه فرآه ملثما فقال له : « من أنت يا رجل ؟ لماذا لم تجبنى ؟ »

فأومأ اليه « أن أسكت الآن » ودخل مسرعا فتذكر الحسين الجارية سلامة وكيف تركته متنكرة بثوب جندى مصرى وما خامره من الشك فيها عند سماع خبرها من بنت الاخشيد . فأصبح شديد الميل الى تحقيق ذلك فلحق بها ولم ينتبه له أحد من أهل القصر لاشتغالهم بالحذر والخوف وبما قام من الضوضاء فى المدينة بين عويل وصياح . وقد أرعبهم دخول ذلك الجندى المغربى لكنهم ما لبثوا أن رأوه ينصب الراية الخضراء حتى اطمأنوا ولكن الذين رأوه داخلا يعدو ولم يروا الراية ذعروا

أما الحسين فما زال مسرعا حتى دخل القاعة وطلب الى الحاجب أن يدعو السيدة بنت الأخشيد فناداها فأتت ولم ترسل الستر بينها وبينه وانما اكتفت بالنقاب وحالما وقع نظره عليها استغرب ما عليها من الاثواب الثمينة والحلى وهو يسمع بما عليه أهل مصر من الضنك . أما هى فحالما رأته صاحت : « ماذا جرى ؟ »

قال : « كل شىء فى أمان ، وهذا علم أبى قد نصب فوق الباب وهو علامة الأمان فلا يجسر أحد أن يمس هذه الدار بسوء لا تجزعى »

قالت : « ومن غرسه هناك ؟ »

قال : « جندى مغربى أظنه الجندى الذى حمل رسالتى الى أبى وقد أسرعت لأراه »

قال : « أتظن سلامة رجعت ؟ أين هى ؟ » . وصفقت فأتت القهرمانة وهى تلهث من الخوف ، فضحكت بنت الأخشيد من منظرها وقالت لها : « ما بالك يا خالة لماذا تلهثين ؟ »

قالت وهى تقطع صوتها : « أن الاعداء دخلوا .. الفسطاط .. و .. و .. ودخل رجل منهم هذه الدار .. »

قالت : « لا تخافى ان هذا الجندى جاءنا بعلم الأمان من قائد جند المغاربة . اطمئنى لا بأس علينا . وهذا الحسين ابن القائد . . . أين سلامة الجارية ؟ »

قالت : « لم أرها منذ أيام »

قالت : « ابحثى عنها وادعيها الينا »

وقعدت وأشارت الى الحسين أن يقعد فقعد وعيناه شائعتان نحو الباب ينتظر وصول تلك الجارية ، ولحظت بنت الأخشيد قلقة فقالت « مالى أراك قلقا كأنك تنتظر أن تأتيك سلامة بكتاب من أبيك ؟

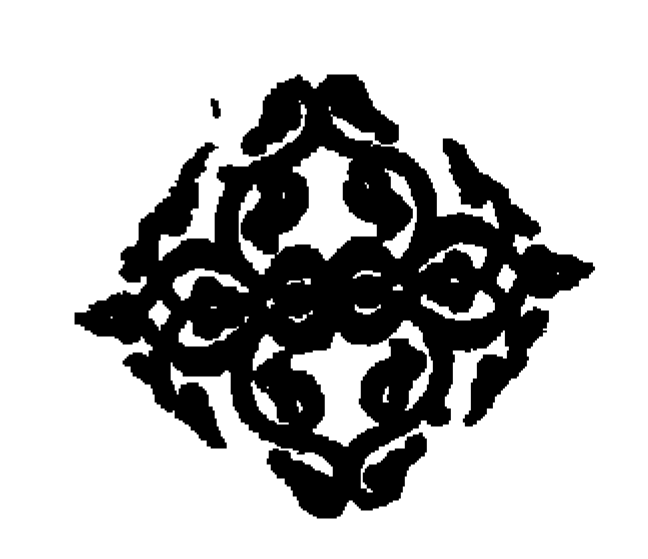
قال : « كلا . فان هذا العلم يكفى جوابا . ولـكننى أتوقع أن تكون سلامة هذه غير ما تتوهمينها »

قالت : « وكيف ذلك ؟ »

قال : « تمهلى ريثما نرى »

واذا بالقهرمانة عادت وهى تقول : « لم أجد سلامة هناك ولـكننى رأيت جنديا فخفت ورجعت »

فنهض الحسين وقال : « أين هذا الجندى ؟ أوصلينى اليه »



لقاء الحبيبين

مشت القهرمانة وبنت الأخشيد والحسين حتى وصلوا الى الغرفة فوجدوا الجندي واقفا الى النافذة يراقب حركات المتحاربين لاينتبه الى أحد فى الدار ، فمشى الحسين مسرعا حتى وقف وراءه بحيث يرى ما يراه . فرأى المغاربة تكاثروا والأخشيدية يفرون أمامهم الى المدينة ، وقد تراكم القتلى منهم على الجسر وتجاوزهم بعض المغاربة على خيولهم وظهر الفوز واضحا لهم فصاح الجندي : « الحمد لله قد كتب النصر لنا » . والتفت فوجد الحسين وراءه فبغت ووقف لا يبدى حراكا فصاح فيه الحسين قائلا : « من انت ؟ »

فلم يجب وانما أشار الى ثوبه أنه جندى فقال : « أنا الحسين ابن جوهر فانزع هذا اللثام عن وجهك »

فاطرق ولم يجب . فقالت بنت الأخشيد : « هـذه سلامة حبيبتنا . اكشفى وجهك للحسين يا بنية انه حامى ذمارنا »

فلم تجب فتقدمت بنت الاخشيد ورفعت اللثام بيدها فأرادت لمياء أن تحول وجهها حتى لا يراها الحسين فرآها وعرفها وصاح : « لميـاء ... » . وأمسك بيدها وأدارها نحوه ليتحقق ظنه وهى تحول وجهها عنه حياء فدهشت بنت الأخشيد لما رأته وتذكرت ما قاله عن خطيبته فعلمت أنها هى نفسها فتقدمت وساعدت الحسين عليها وأمسكت بيدها الاخرى وقالت : « أنت لمياء خطيبة هذا البطل وتزعمين انك جارية ؟ تكلمى .. »

فالتفتت الى الحسين لفتة تعودها منها فأثرت فى قلبه تأثير السهم وقال : « تكلمى ما بالك ؟ »

فقالت وعيناها تلمعان : « قد تعاهدنا ان نلتقى هنا بعد فتح مصر .. فهل فتحت ؟ »

قال : « أوشكت ان تفتح .. »

قالت : « اصبر لا تفرح قبل تمام النصر . أنت هنا منذ أيام وأنا عالمة بذلك ، ولم اشأ أن أطلعك على وجودى لئلا نشتغل بالقلوب عن السيوف ولا أزال على ذلك حتى الآن . ان خـدمة المعز مقدمة



« ووجدوا الجندى واقفاً إلى النافذة يراقب حركات المتحاربين »

على كل شيء فاذا فرغنا منها وفتحنا البلد . واستقر لنا الامر فانى أمتك أترامى عند قدميك . . » . قالت ذلك وابرقت عيناها وبان الهيام فيهما واسترخت عزائمها . والحسين ينظر اليها نظر الاعجاب والخجل وقال : « أبيت يا لمياء الا أن تكونى السابقة الى الفضل فى خدمة أمير المؤمنين ، انى متفان فى خدمته ولكننى دهشت لرؤيتك هنا وأنا أعهد مقرك منذ افترقنا بالقيروان . الحمد لله على هذا اللقاء »

فنظرت اليه نظرة عتاب وقالت : « وذانك الرجلان اللذان ساقاك الينا فى القيود والاغلال . انى لا أعد النصر تاما وهذان الرجلان على قيد الحياة . وأنا فى شوق الى سماع ما جرى لك فى أثناء هذا الغياب . وأنت مشتاق الى حديثى ، فاذا تم النصر كما نريده تحدثنا كثيرا »

فلما تذكر أبا حامد وسالما هاج الدم فى عروقه فقال : « اين هما ؟ »

قالت : « سأقص عليك نبأهما عما قليل »

والتفتت بنت الاخشيد الى لمياء وقالت لها : « سنتركك حتى تغيرى ثيابك »

قالت : « كلا يا سيدتى لا اريد ان اغير شيئا قبل الفراغ من هذا العمل . وهل ترين منظرا أجمل مما أرى هنا . ليس فى الدنيا الذ من النصر فى ساحة الحرب . . لا صبر لى على هذا المنظر هيا بنا الى المعركة »

قالت ذلك واسرعت فتبعها الحسين وهو يقول : « المعركة . لست اشد منى غيرة على الدولة ولكنك شغلتنى » . ونزلا فركب كل منهما فرسه وتسلحا وبنت الأخشيد ترى وتعجب . فلما خرجا قالت فى نفسها : « ان قوما انصارهم مثل هذين حرى بهم أن يفتحوا العالم »

ولم يسيرا الا قليلا حتى رأيا رجلا من اتباع الشريف مسلم حاملا علما أبيض يؤمن الناس فنادته لمياء فوقف فقالت : « من أرسلك بهذا العلم وكيف الحال ؟ »

قال : « لما غلب الاخشيدية وقتل منهم خلق كثير ارتدوا الى مصر واخذوا من دورهم ما قدروا عليه وانهزموا فخرج نساؤهم الى الشريف أبى جعفر وطلبن منه أن يكاتب القائد جوهر بالامان . فكتب اليه يهنئه بالفتح ويسأله اعادة الامان ، وهذا جوابه معى يؤمنهم وهذا العلم الابيض شاهد على ذلك . فاطمأن الناس وخرج

الاشراف والعلماء ووجهاء البلد بموكب حافل يتقــدمه الوزير ابن الفرات وجماعة الاعيان الى الجيزة لملاقاة القائد عند دخوله الفسطاط ليعودوا به . الا تسمع المنادى ينادى بذلك »

فالتفتت لمياء الى الحسين وقالت : « قد تم النصر والحمد لله ، فلا حاجة الى الخروج بل ننتظر وصول الموكب »

وفى عصر يوم ١٧ شعبان سنة ٣٥٨ هـ اقبل الموكب حتى دخـل الفسطاط بالســلاح والعدة ، فدخل جوهر وطبـوله وبنوده بين يديه ، وعليه ثوب ديباج مثقل وتحته جواد أصــفر ، فرافقوا الموكب حتى شق البلد ونزل فى مكان اناخ فيه جوهر جماله وبنيت فيه القاهرة بعد ذلك . فالتفت الحسين الى لمياء يستشيرها فيما ينبغى ان يفعلا فقــالت : « هلم بنــا الى مقر ذينك اللعينين فى الفنــدق »

فتبعها وساقا الجوادين وقد قاربت الشمس الغروب حتى أتيا الفندق فلما رآهما صاحبه رحب بهما خوفا منهما وان كان المنادون قد نادوا بالامان ثم وقع نظره على لمياء فعرفها ورآها بلباس جند المغاربة فاستأنس بها وقال : « هذا صديقنا الصقلبى ! »

فضحكت له وقالت : « اننا فى حاجة الى تلك الغرفة الآن »

قال : « قد دخلها الرجلان فى هذه الساعة »

فالتفتت الى الحسين وقالت : « قد تم سعدنا » . وساقا الجوادين الى داخل الفندق حتى صارا فى وسطه وترجلا واسرعا الى الغرفة فطرقا بابها فسمعا لغطا ولم يفتح الباب فاستل كل منهما خنجره وصاح الحسين : « افتح »

فأجابهما أبو حامد من الداخل : « لن افتح لكما .. ليس خوفا على حياتى ولكننى لا اريد ان أموت بيد أحدكما .. ولا ينبغى أن أبقى حيا بعد هذا الفشل . وأخاف أن يجبن هذا الغلام فيستعطف ويتذلل وأنا أعرف ضعفه وجبنه . فأنا الآن قابض على عنقه وها انى قد طعنتــه فمــات ، وهــذه طعنــة فى قلبى وهــذا البــاب قد فتحته لــكما فاستلما جثتين بلا روح ! »

ثم سمعا وقوع الجثة وفتح البـاب فوجدا الرجلين يختبطان بدمهما ، فغطت لمياء عينيها حتى لا ترى ذلك المنظر الرهيب وقالت : « هلم بنا الى المعسكر . فقد قضى الامر وتم النصر »

فتبعها وهو يقول : « كنت أود أن أقتلهما بيدى »

وفيما هما خارجان اعترضهما صاحب الفندق وهو يبكى ويقول : « قتلتما الرجلين الآن يتهموننى بقتلهما »

فتقدمت لمياء اليه وقالت : « قتلا بأمر القائد جوهر . وهـذا هو الحسين بن جوهر القائد لا تخف »

فاكب على ركاب الحسين يقبله ويقول : « اعذرني يا سـيدي والله ان هذا الصقلبي رجل طيب . مع السلامة يا سيدي »

وانصرفا حتى اتيا المعسكر وقد إظلم الليل ، ولـكن الانوار كانت تسطع في تلك الانحاء ، وقد اقبل المصريون زرافات ووحدانا على جوهر يهنئونه بالنصر ، وعرفا فسطاطه من كبره وكثرة من حوله من الحجاب ، فما زالا حتى وقفا بالباب واستأذنا في الدخول . فلما قيل لجوهر ان الحسين يستأذن عليك نهض وضمه الى صـدره وقبله فقبل الحسين يده . ثم تقدمت لميـاء بثوب الجند فقبلت يد القائد فدعاها الى الجلوس هي من جانب والحسين من الجانب الآخر . وكان في جملة الحضور ابو جعفر مسلم بن عبيد الله الشريف فعرفهما اليه فرحب بهما وهنأهما بالنصر . واذا بصوت خرج من جوانب الخيمة يقول : « ويعقوب ؟ » . فعلمت لمياء أنه صوت يعقوب ابن كلس فالتفتت الى جوهر وقالت : « لا اقدر ان أصف لك الفضل الذي أولاني اياه الشريف أبو جعفر والمعلم يعقوب ، فاننا مدينون لهما بكثير من أسباب النصر ولولاهما لكنت في عالم الاموات »

فقال الحسين : « فالفضل اذن على انا »

وبعد قليـل انصرف المهنئون وبقي جوهـر ومسلم ويعقوب والحسين ولمياء وكان اجتماعهم هنيئا على اثر ما عانوه من التعب حتى كتب لهم النصر فقص كل منهم ما عاناه في اثناء الغياب والتفت جوهر الى لميـاء وقال : « قد صحت نبوءتك يا بنيـة فالتقينا في الفسطاط بعد فتحها الم يئن أوان العقد »

فقالت : « الحمد لله على ذلك ولـكننا اشترطنا ان يكون العقد في قصر مولاي المعز لدين الله على ضفاف النيل ... »

قال : « الم تصر الفسطاط كلها قصرا له ؟ »

قالت : « بلى لكنني أريد قصره الخاص به »

فضحك جوهر وقال : « انك تريدين ان يؤجل الاقتران حتى يحضره المعز بنفسه فانك أهل لذلك . وفي الغد نبدأ ببناء القصور لمولانا وبعد قليل يأتي الى مدينته ويعقد لـكما بيده المباركة »

واخذ جوهر في اليـوم التالي في بناء القاهرة ثم بنى القصـور وبعث الى المعز بأخبار الفتح ، فانتقل المعز الى مدينته واقام بها وتوارثها أعقابه بعده على ما هو مدون في كتب التاريخ . وكان أول عمل عمله انه عقد للحسين على لميـاء باحتفال لم يسمع بمثله

روايات تاريخ الإسلام

صدر منها :

فتاة القيروان

الأمين والمأمون

غادة كربلاء

المملوك الشارد

عروس فرغانة

عبد الرحمن الناصر

عذراء قريش

فتح الأندلس

أرمانوسة المصرية

جهاد المحبين

صلاح الدين الأيوبي

الانقلاب العثماني

العباسة أخت الرشيد

استبداد المماليك

أبو مسلم الخراساني

شجرة الدر

شارل وعبد الرحمن

أحمد بن طولون

فتاة غسان

أسير المتمهدي

الحجاج بن يوسف

١٧ رمضان